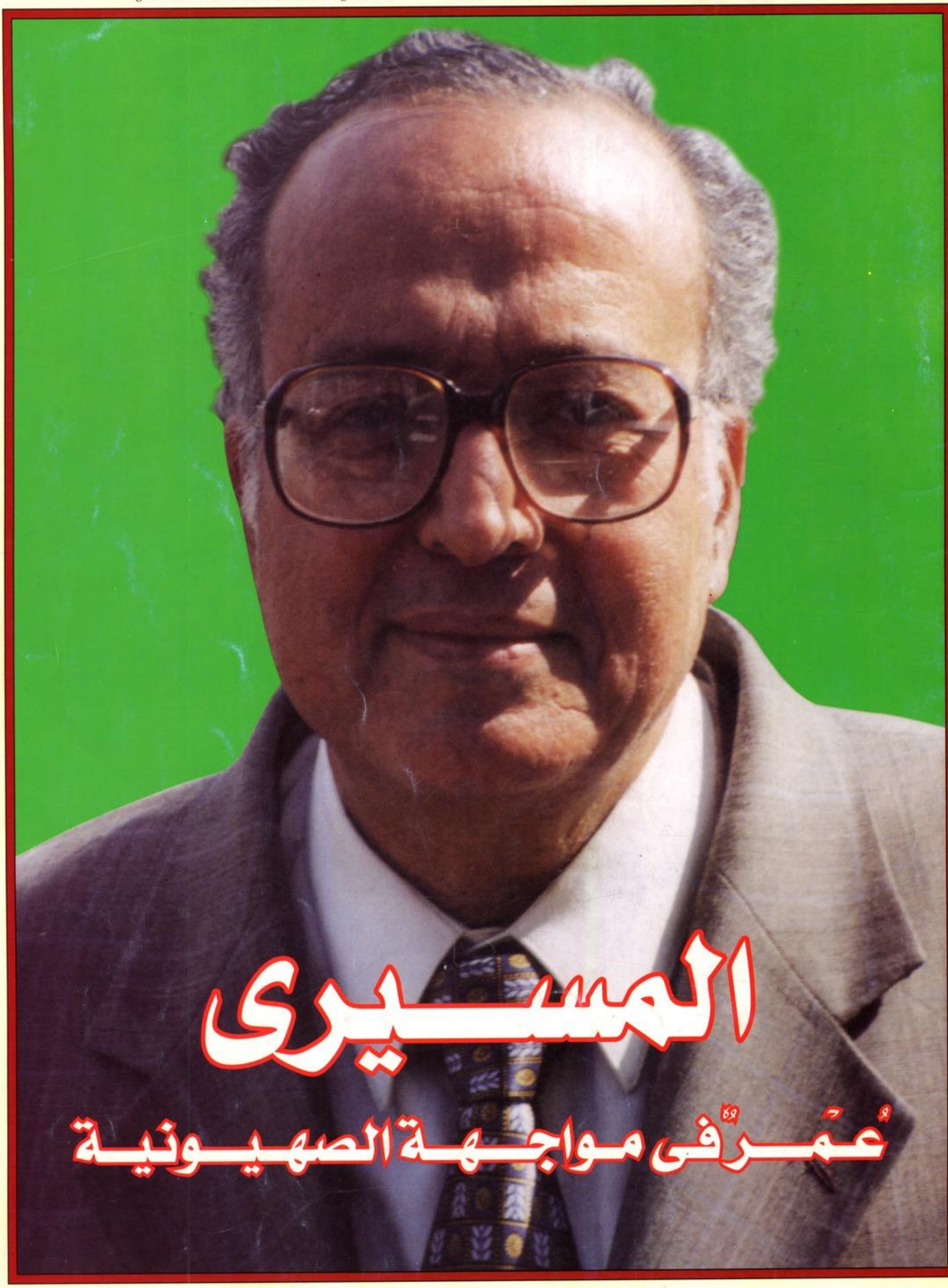
الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد المائة وخمسة عشر . السنة العاشرة . أغسطس ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 115 - August 2008



السنة العاشرة
العدد ١١٥
أغسطس ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أحمد حجاج.. أمين عام الجمعية الأفريقية ـ القاهرة.
- أحمد على الجارم.. الأستاذ المتفرغ بكلية الطب جامعة القاهرة وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- افراهام بورج.. الرئيس الأسبق للوكالة اليهودية وللكنيست الإسرائيلى.
- أنطونيو بادينى.. سفير إيطاليا السابق فى القاهرة.
- دينا حشمت.. صحفية ومترجمة.
- حسان الزين.. صحفى لبنانى.
- سامية أبوزيد.. صحفية مصرية.
- عبد الرءوف الريدى.. رئيس المجلس المصرى للشئون الخارجية.
- عبد الوهاب المسيرى.. أستاذ الأدب الإنجليزى غير المتفرغ بجامعة عين شمس (راحل).
- فضل مصطفى النقيب.. أستاذ فى جامعة واترلو كندا.
- مصطفى اللباد.. كاتب مصرى.
- ناجى عويجان.. أستاذ اللغة الإنجليزية وآدابها بجامعة سيدة اللويز ـ لبنان.
- نايف حواتمة.. الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.
- نذير جزماتى.. كاتب سورى.

رسوم العدد للفنان

محمد حجى

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص.ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«صهيونية» المسيرى
دراسة فى المنهج

فضل مصطفى النقيب

■■ هذا المقال هو جزء من دراسة بعنوان «رحلة عبد الوهاب المسيرى»(*)، تناول فيها الكاتب تطور فكر المسيرى منذ أن كان تلميذاً فى المدرسة الثانوية يشترك فى المظاهرات الطلابية ضد الاستعمار البريطانى إلى أن أصبح مفكراً قادراً على تكريس خمس وعشرين سنة من حياته فى تأليف موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية». وترى الدراسة أن القيمة الحقيقية للموسوعة لا تتأتى من كمية المعلومات التى تضمها مجلداتها الثمانية، ولا من الحقب الزمنية التى تتعرض لها (وتمتد من الأزمنة القديمة إلى أيامنا الراهنة)، وإنما من كونها مبنية على أساس متين من النماذج المعرفية التى تستخدم منهجية تفكير جديدة مبتكرة. وتنطلق الدراسة من الاعتقاد بأن فهم تلك المنهجية لا يتم بشكل سليم بدون تحديد مكانها فى تطور الثقافة المصرية العربية فى تفاعلها مع الثقافة الإنسانية. وفى هذا المجال فإن الدراسة تبحث فى تطور منهجية التفكير المصرى فى سياق المحاولات التاريخية الثلاث لصياغة مستقبل مصر الحديثة.

المحاولة الاولى التى تمت فى مناخ مشروع محمد على، وقادها رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠٢ - ١٨٧٣) واستمرت من بعده على يدى الإمام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٤) وجمال الدين الافغانى (١٨٣٩ - ١٨٧٩) وكانت تدعو لنشر التعليم واكتساب المعارف والعلوم الأوروبية وتنظيم المجتمع وفق تعاليم الدين المتحرر من خرافات الجهل والتأخر، وبهدى الصفحات المضيئة من التاريخ العربى الإسلامى. وكانت ترى أن ذلك سيمكّن مصر من استعادة قوتها التى كانت تتمتع بها فى الماضى.

والمحاولة الثانية التى تمت فى مناخ ثورة ١٩١٩، وانطلقت من الاعتقاد بأن نقل أساليب العلم والمعرفة من أوروبا لا يقود للنهضة المرجوة بدون بناء مجتمع جديد يوفر البيئة المناسبة لازدهار العلوم والإبداع والتجديد، وقد عبر عن هذه المحاولة ثلاثة تيارات فكرية. التيار الاول هو تيار الحداثة الأوروبية الذى يدعو إلى محاكاة الحياة الأوروبية بشكل كامل، وفيه من يدعو إلى اقتباس النموذج الديمقراطى الليبرالى الأوروبى مثل طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣)، ومن يدعو إلى اقتباس النموذج الاشتراكى المادى الأوروبى مثل سلامة موسى، (١٨٨٧ - ١٩٥٨). أما التيار الثانى الذى مثله محمد رشيد رضا (١٨٦٥- ١٩٣٥) فقد عارض التيار الأول إذ رأى فى دعوته إلى اقتباس النماذج الأوروبية دعوة إلى تحطيم الأسس الأخلاقية للمجتمع وتكريس ضعفه وبقائه تحت سيطرة الاستعمار الأوروبى. ودعا ذلك التيار إلى بناء المجتمع وفق الأسس الحقيقية للدين الإسلامى التى اتبعها السلف الصالح والتى لا تختلف فى جوهرها عن المبادئ الأساسية التى قامت عليها الحضارة الأوروبية. وبين هذين التيارين، تيار الحداثة وتيار السلفية، كان هناك تيار ثالث فى الوسط يدعو إلى الانفتاح الكامل على الحضارة الأوروبية مع الالتزام التام بالانتماء العربى الإسلامى (أحمد أمين، ١٨٨٦ - ١٩٥٤ وأحمد حسن الزيات، ١٨٨٥ - ١٩٦٨).

وأخيراً المحاولة الثالثة التى تمت فى مناخ التغيرات الهائلة التى أحدثتها ثورة يوليو لسنة ١٩٥٢ فى البنية الاقتصادية والسياسية للمجتمع المصرى. ويعتقد الكاتب أن عبد الوهاب المسيرى هو واحد من أهم المعبرين عن توجهات تلك المحاولة الفكرية. فإذا كانت المحاولة الاولى قد ركزت فى البحث عن القوة عن طريق اقتباس الأساليب العلمية الأوروبية ثم جاءت المحاولة الثانية لتؤكد أنه لا يمكن اقتباس الأساليب العلمية من أوروبا وكأنها موجودة فى فراغ، وأنه يجب تبنى المنهج العقلانى القادر على خلق البيئة الثقافية التى تنمو بها العلوم وتتطور وتزدهر، جاءت المحاولة الثالثة لتوضح وتشرح وتبين أنه لا يوجد منهج عقلانى محايد، فالمنهج هو نتاج البيئة التى ينمو فيها بخلفيتها التاريخية والثقافية. وأن ما يطرحه أى منهج من مفاهيم وأطروحات ما هى فى واقع الأمر إلا «إجابات» على «أسئلة» تطرح نفسها فى مجتمع معين وفى حقبة زمنية معينة. وأن استعارة «الأجوبة» و«الأسئلة» من الخارج تقود دوماً إلى التبعية وإلى التأخر.

كانت سنوات ثورة يوليو فى الخمسينيات والستينيات هى سنوات «الحماسة» التى تم فيها طرح أسئلة حقيقية فى السياسة والاقتصاد بشجاعة. وبعد انحسار العهد الثورى وانتصار الثورة المضادة، وانتشار ممارسات استيراد «الأجوبة» من الخارج ثم صياغة «الأسئلة» التى تتناسب مع تلك «الأجوبة»، تابع بعض المنحازين للثورة طرح الأسئلة الحقيقية والبحث عن الإجابات الحقيقية وقد تميزت إسهامات عبد الوهاب المسيرى فى أن طرحه للأسئلة وبحثه عن الأجوبة كان دوماً يتم فى العمق بشكل يتجاوز مجال السياسة المباشر ويحلق فى فضاء الفكر والفلسفة. والمقال التالى يخص توجه المسيرى الفكرى فى موضوع دراسة الصهيونية.

....

يقول محمد حسنين هيكل بأن الحركة التى قام بها الضباط الأحرار فى الجيش المصرى صباح ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ لم تتحول إلى ثورة حقيقية إلا فى عام ١٩٥٥ عندما اقدمت قيادة الحركة على تحدى احتكار السلاح والإقدام على شراء السلاح من الاتحاد السوفيتى بتوقيع صفقة الأسلحة الشهيرة باسم صفقة الأسلحة التشيكية. ولاشك أن فى هذا القول مقداراً كبيراً من الصحة على أساس أنه بشكل عام تحدث «الثورة» عندما يتمكن الثوار من إحداث تغيير جوهرى فى علاقات القوة التى تتحكم فى الوضع القائم. ومن هذا المنظور نرى أن كل التغييرات التى قامت بها الحركة قبل إبرام صفقة الأسلحة من خلع الأسرة العلوية وإعلان الجمهورية إلى تطبيق قانون الإصلاح الزراعى إلى محاربة الفساد فى الحكم قد تمت جميعها دون أن يصاحبها تغيير جوهرى فى وضع القوى المتحكمة فى الوضع القائم. لقد تمت فى نطاق شرعية ذلك الوضع.

فى عام ١٩٥٥ عندما بدأت الحركة تحاول القيام بإصلاحات تنموية جذرية كبناء السد العالى وتشييد قاعدة الصناعة الوطنية أخذت إسرائيل تقوم باعتداءات متكررة على الجيش المصرى فى قطاع غزة. كان على الحركة حينئذ البحث عن السلاح لصد الاعتداءات الإسرائيلية والبحث عن مصدر دولى لتمويل مشروع بناء السد العالى. وبسرعة اتضح أن الموضوعين مرتبطان

كان أحمد أمين والزيات يمثلان تيارا ثالثا يدعو إلى الانفتاح على الحضارة الأوروبية مع الالتزام بالانتماء العربى الإسلامى

(*) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيرى جديد (ثمانية مجلدات، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٩)

الصهيونية والحضارة الغربية الحديثة (دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة ٢٠٠٣)

ببعضهما بشكل عضوى. كان الموقف الأمريكى ـ البريطانى ـ الفرنسى يتطلب من مصر الاعتراف بإسرائيل وتوقيع معاهدة صلح معها والانضمام إلى شبكة الأحلاف العسكرية التى تقيمها الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتى، وبعد ذلك يتم تزويد الجيش المصرى بأسلحة خفيفة تؤمن له القدرة على حماية النظام الحاكم من المظاهرات وأعمال الشغب، كما اتضح أن البنك الدولى (ذراع البيت الأبيض الاقتصادية) لن يقوم بتقديم أى قرض مالى لمصر يساعد فى تمويل بناء السد العالى إلا وفق الشروط الأمريكية التى تعنى توقيع الصلح مع إسرائيل وتكريس النمو الاقتصادى فى مصر على أساس الزراعة والصناعات الخفيفة بشكل يبقى فيه الاقتصاد المصرى مرتبطا بشبكة العلاقات الاقتصادية الاستعمارية.

لقد اختارت قيادة الحركة المضى فى نهج الإصلاح والتنمية المستقلة والاصطدام بإسرائيل وقوى الاستعمار وعندئذ خرجت من إطار شرعية الأمر الواقع وراحت تناضل لتأسيس الشرعية الثورية.

عندما تحولت حركة الجيش إلى مشروع تغيير ثورى حقيقى انقسم المجتمع المصرى، بحكم طبائع الأمور، إلى ثلاثة تيارات سياسية هى «التيار الثورى» و«تيار الثورة المضادة» و«تيار خصوم الثورة». وبشكل طبيعى تكونت هذه التيارات من الإرهاصات التى أحدثتها حركة يوليو فى التيارات السياسية التى كانت موجودة قبل الثورة (السلفية والحداثة الأوروبية والوسط العربى الإسلامى).

لم يعبر التيار الثورى عن إرهاصات تيار السلفية أو تيار الحداثة الأوروبية (بشقيه الليبرالى أو الاشتراكى) مع أنهما كانا يملكان أحزابا سياسية منظمة (شباب الوفد، الإخوان والشيوعيين) وكان لهما أصوات سياسية وفكرية عالية. لقد جاء تعبيرا عن التيار الوسط الذى لم يمثله حزب سياسى وليس له صوت مرتفع. وهكذا كان المناخ الفكرى للتيار الثورى هو الأطروحات الإصلاحية لتيار الوسط الذى مثله أحمد أمين وأحمد حسن الزيات وأخذ يتحول تدريجيا لتيار ثورى من جراء اصطدامه بالمشروع الصهيونى.

قادت قيادة حركة الجيش بسرعة ذلك التيار فى معركة صراع شامل يهدف إلى تحطيم نظام الاقتصاد السياسى الذى أقامه الاستعمار فى مصر وبناء نظام جديد يمثل مصالح الأغلبية الفقيرة من العمال والفلاحين مدركا فى نفس الوقت أن نجاحه فى ذلك الصراع مرتبط بشكل عضوى بقدرته على تكريس انتماء مصر للأمة العربية عن طريق التحالف مع كل حركات التحرر الوطنى العربية وخوض كل معاركها. أما تيار الثورة المضادة فكان يعمل على إعادة عقارب الساعة إلى الوراء والعودة إلى ماكان عليه الوضع قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وكان يضم أحزاب الأقلية وكبار الإقطاعيين فى حزب الوفد. ويمثل أيديولوجية أقصى اليمين فى تيار الحداثة الأوروبية. وعلى العكس من ذلك كان التيار الثالث الممثل لخصوم الثورة لا يعمل على العودة بعقارب الساعة إلى الوراء على أساس أنه كان معاديا للوضع الذى كانت عليه مصر قبل ٢٣ يوليو وإنما كان يختلف مع تيار الثورة فى فكر وأسلوب بناء المستقبل. وضم ذلك التيار شباب الوفد والجناح الاشتراكى فى تيار الحداثة الأوروبية (الشيوعيون) وغالبية التيار السلفى (الإخوان المسلمون).

كان عبد الوهاب المسيرى فى تلك الفترة، ينتمى لتيار خصوم الثورة بحكم انتمائه للحزب الشيوعى حتى عام ١٩٥٩ وتمسكه بالأطروحات الماركسية الفكرية والسياسية بعد ذلك. كان يؤيد الاتجاه السياسى للثورة فى انتهاج طريق التنمية المستقلة ومحاربة الاستعمار والصهيونية ويعارض توجهها الداخلى «غير الديمقراطى».

ابتدأت «الثورة» عند اصطدام حركة الجيش بالمشروع الصهيونى وانتهت عندما اختار أنور السادات مهادنة المشروع الصهيونى فلقد قادت تلك المهادنة إلى تحقيق كل أهداف «الثورة المضادة» فى تقويض كل مكتسبات العمال والفلاحين التى حققتها لهم الثورة ثم تقويض كل مرتكزات المشروع التنموى المستقل فى بناء الصناعة الوطنية والالتزام بأولوية التعليم. وتقويض كل إنجازات الثورة فى بناء العمل القومى العربى وفى هذه الأثناء انزلق الكثيرون فى معسكر خصوم الثورة إلى مواقع الثورة المضادة، بعضهم عن وعى وبعضهم عن غير وعى. أما عبدالوهاب فعلى العكس من ذلك تابع السير وفق النهج الثورى إذ اختار المضى فى



أدرك المسيرى أن فهم الصهيونية يحتاج إلى منهج جديد يبتعد عن الاستقطاب الأيديولوجى



الصراع ضد الصهيونية لأنه عندما هادنت مصر «الرسمية» المشروع الصهيونى، كان ذلك المشروع يطرح فى حياة عبد الوهاب أسئلة ملحة لم يكن بمقدوره تجاهلها.

عندما بدأ عبد الوهاب فى دراسة الحركة الصهيونية اصطدم على الفور بحقيقة أن معظم الأبحاث الفكرية حول موضوع اليهود واليهودية والصهيونية فى أوروبا والولايات المتحدة هى دراسات تخدم أهدافًا سياسية وأيديولوجية، إذ وجد أن مؤيدى الصهيونية من الكتاب اليمينيين والليبراليين واليساريين يتبعون منهجا مفرطا فى الخصوصية، إنهم ينطلقون من مقولة وجود الشعب اليهودى الذى له صفات مميزة حافظ عليها فى كل البلاد وعبر كل الأزمان وأن فى ذلك التاريخ مرجعيته الذاتية. أما المعادون للصهيونية من بعض اليساريين فإنهم على العكس يستخدمون منهجا مفرطا فى التعميم لا يرى فى الجماعات اليهودية أية خصوصية حضارية أو اثنية أو اقتصادية وبناء على ذلك فوضع اليهـــودى فى أى بلد هــــو كوضع أى مواطن آخر محكوم بأوضاع ذلك البلد وهو إما عامل أو رأسمالى، بورجوازى أو ثورى... إلخ.

أدرك عبد الوهاب أن فهم الصهيونية يحتاج إلى منهج جديد يبتعد عن الاستقطاب الأيديولوجى والتأرجح المعرفى بين الخصوصية المفرطة والتعميم الكامل، وأن بناء ذلك المنهج يحتاج إلى الإلمام بكل الحقائق المهمة المتعلقة بحياة الجماعات اليهودية فى البلدان المختلفة وكيف تطورت منذ التاريخ القديم وصولا إلى الأزمنة الحديثة. ومن المهم أن يتمكن ذلك الإلمام من إلقاء الضوء على كثير من الحقائق التى تم تجاهلها والأحداث التى تم تـهـمـيـشـهـا خـدمـة لأهـداف أيديولوجية صبغت معظم الدراسات الأوروبية والأمريكية. وفى نفس الوقت كان عبد الوهاب يدرك أن ذلك الجهد بحد ذاته، على أهميته، غير كاف لتقديم فهم مقنع لماهية الحركة الصهيونية وتاريخها والاحتمالات المتوقعة لها فى المستقبل. فذلك الجهد يحتاج إلى جهد آخر مكمل له يقوم بدراسة تلك الحقائق ومقارنتها بعضها ببعض فى إطار البلدان المختلفة والأزمنة المتباينة ثم تنظيمها وتنسيقها ثم التركيز على بعض الحقائق التى تحمل دلالات مهمة وترتيبها ترتيبا خاصا وفق علاقات واضحة حتى تصبح نموذجا معرفيا يفسر الأوضاع والعلاقات الموجودة فى الواقع بشكل مقنع ومفيد.

بعد جهد كبير فى دراسة أوضاع الجماعات اليهودية فى البلدان الأوروبية المختلفة والتطور التاريخى لأوضاعها المعيشية وهياكلها الأساسية وعلاقة أفرادها بالمجتمعات التى تعيش فيها خلص عبد الوهاب المسيرى إلى أن أفضل نموذج معرفى يساعد على فهم ماهية تلك الجماعات وحقائق تاريخها هو نموذج «الجماعات الوظيفية»، أى الأقليات الموجودة داخل المجتمعات أو تلك التى يتم إحضارها من الخارج للقيام بوظائف معينة لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع القيام بها لأسباب شتى.

أخذ عبد الوهاب نموذج الجماعات الوظيفية كما هو مستخدم فى العلوم الاجتماعية وفق إسهامات كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) وماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) وقام بتطويره ليصبح ملائما لدراسة الجماعات اليهودية. كان المفهوم كما هو مستعمل فى العلوم الاجتماعية فى الجامعات الغربية مقتصرا على التركيز على الموضوع الاقتصادى للجماعات الاثنية وجماعات المهاجرين فقام عبد الوهاب بتطويره حتى أصبح على درجة عالية من الشمول والمرونة والقدرة على الإلمام بكل نواحى الجماعات اليهودية الفكرية والدينية والسياسية. (انظر كتابه: الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيرى جديد، ٢٠٠٢)، وفى نطاق هذا النموذج المعرفى التحليلى تحدد دور الحركة الصهيونية على أنها حركة سياسية تعمل على تحويل الجماعات الوظيفية اليهودية إلى «الدولة الوظيفية» التى تحققت بقيام إسرائيل.

أثبت هذا النموذج المعرفى قدرته على تفسير تاريخ الحركة الصهيونية بشكل مقنع بينما تقف النماذج الأخرى التى تتأرجح بين الخصوصية المطلقة والتعميم الكامل عاجزة عن تقديم أى تفسير لا يتناقض بشكل صارخ مع الحقائق التاريخية. وفى هذا المجال يكفى أن نقارن بين القدرة التفسيرية للنموذج المعرفى «الليبرالى» الذى يتبناه أكثر المفكرين الليبراليين فى الولايات المتحدة وأوروبا والقدرة التفسيرية لنموذج عبد الوهاب.

سنأخذ من المفكر المشهور فى جامعة أكسفورد أزيا برلين (١٩٠٩-١٩٩٧) مثالا على القائلين بالنموذج الليبرالى على أساس أنه من أشهر مفكرى الليبرالية الغربية فى القرن العشرين ومن الذين أيدوا الحركة الصهيونية طوال حياتهم.

نلاحظ فى النموذج المعرفى الذى يتبناه برلين تركيزا على مفهوم «القومية» كما ظهر فى القرن التاسع عشر على أساس أنه مفهوم يعبر عن الحاجة الإنسانية إلى الانتماء إلى هوية جماعية لها خصوصية ثقافية وهو بذلك يختلف مع كثير من مفكرى الليبرالية فى القرن العشرين كفريدريك حايك (١٨٩٩-١٩٩٢) وكارل بوبر (١٩٠٢-١٩٩٤) الذين لا يرون فى القومية إلا تعبيرا حديثا عن القبلية. إنه، على العكس، يرى أن الانتماء القومى يخلق مناخا من الانسجام والتضامن الضرورى لقيام واستمرار النظام الليبرالى السياسى. وهو يرى أن الحركة الصهيونية قد نشأت فى القرن التاسع عشر، كما نشأت الحركات القومية الأخرى، كتعبير سياسى عن حاجة اليهود إلى الانتماء فى وطن قومى يحقق لهم حاجتهم الإنسانية إلى الهوية الجماعية وخصوصا أنه يعتقد أن عمليات انصهارهم فى المجتمعات الأوروبية فى العصر الحديث قد فشلت وقادت إلى الكوارث. وهو يرى أن الحركة الصهيونية قد عبرت بشكل كامل عن المناخ الفكرى للقرن التاسع عشر لأن قادتها الأوائل كانوا يؤمنون بالاشتراكية التى مثلت مع القومية قطبى الفكر السياسى لذلك القرن وفى هذا المجال يبدو شديد الإعجاب بموسيس هيس (١٨١٢-١٨٧٥)..مؤلف كتاب روما والقدس الذى كان شيوعيا وصهيونيا وهو صاحب المقولة المشهورة بأن «المهمة التاريخية لليهود هى توحيد القومية والشيوعية». ومن ناحية أخرى كان برلين يرى أن الصهيونية تمثل حالة خاصة بين الحركات السياسية التى تشكلت بتأثير الفكر «القومى» والفكر «الاشتراكى» فى القرن التاسع عشر. إذ إنه يرى أنها الحركة الوحيدة التى عبرت إلى القرن العشرين محتفظة بالاعتقاد بأن للمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية حلولا يمكن التوصل إليها عن طريق استعمال الأساليب العقلانية، وأن التوصل إلى هذه الحلول يتم عبر إحداث تغيير فى ممارسات القوى المتصارعة، بينما تحولت الحركات القومية والاشتراكية الأخرى فى القرن العشرين إلى الفاشية والنازية والستالينية التى أخذت تتصرف على أساس أنه ليست هناك حلول عقلانية للمشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأن الطريقة الوحيدة للتخلص من تلك المشاكل تكون فى إلغائها واستئصال وجودها بشكل كامل عن طريق إلغاء وجود بعض أطرافها.

دعنا الآن نقارن بين القدرة التفسيرية لهذا النموذج المعرفى، نموذج الحركة الصهيونية كحالة خاصة بين الحركات القومية والاشتراكية فى القرن التاسع عشر، والقدرة التفسيرية للنموذج المعرفى الذى صاغه عبد الوهاب المسيرى، نموذج الحركة الصهيونية كحركة انتقال بالجماعات اليهودية الوظيفية إلى الدولة الوظيفية، وبشكل محدد دعنا نرى كيف يفسر النموذجان المقولات الأربع التالية، التى تشكل كل واحدة منها محطة مهمة فى تاريخ الحركة الصهيونية.

* فى عام ١٩٣٧ أدلى السيد ونستون تشرشل بشهادته أمام لجنة بيل المنوط بها التحقيق فى الصراع الدائر على أرض فلسطين وقال: «أنا لا أرى أن للكلب الحق فى الزريبة التى يعيش فيها حتى ولو

عاش فيها مدة طويلة جدا. أنا لا أسلم له بهذا الحق. وعلى سبيل المثال فأنا لا أسلم بأن ظلما قد حصل للهنود الحمر فى أمريكا، أو السود فى أستراليا. أنا لا أومن بأن ظلما قد لحق بهؤلاء الناس من جراء حقيقة أن جنسا من صنف أرقى قد جاء وحل محلهم».

❖ فى عام ١٩٤١ قال موشى شاريت مدير الدائرة السياسية فى الوكالة اليهودية بأنه «لا يحتاج إلى الذهاب إلى العرب للحصول على اتفاقية بشأن فلسطين وذلك لأن الكلمة النهائية حول الموضوع ليست لهم ولكن للبريطانيين والأمريكان».

❖ فى عام ١٩٦٨ قالت جولدا مايرسون رئيسة وزراء إسرائيل: «ليس هناك شعب فلسطينى».

❖ فى مطلع الثمانينيات من القرن الماضى بدأ قادة إسرائيل يصفون القدس بأنها عاصمة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف سنة.

من الواضح أن نموذج «الصهيونية كحركة خاصة من الحركات القومية والاشتراكية فى القرن التاسع عشر» يعجز عن تقديم أى تفسير لأى من هذه المقولات الأربع. فليس هناك فى كل مدارس الفكر القومى والاشتراكى فى القرن التاسع عشر ما يبرر مساواة حقوق أى جنس من البشر بحقوق الحيوانات كما تؤكد المقولة الأولى: كما أن المقولة الثانية تتنافى كليا مع أوليات المفهوم القومى فى حرية تقرير المصير وعدم شرعية تحكم شعب بمصائر شعب آخر. أما حل مشكلة الشعب الفلسطينى باتباع أسلوب «إلغاء» وجوده كشعب فهى مقولة تخص فكر النازية والستالينية كما وصفها برلين وليس الفكر القومى والاشتراكى للقرن التاسع عشر. أما المقولة الأخيرة فهى متممة للتى سبقتها فبعد إلغاء وجود الشعب الفلسطينى لا بد أيضا من إلغاء تاريخه.

فى المقابل، نرى أن نموذج عبد الوهاب المسيرى المبنى على أساس الحركة الصهيونية «كحركة انتقال بالجماعات اليهودية الوظيفية إلى الدولة الوظيفية» يقدم تفسيرا مقنعا لهذه المقولات الأربع وبشكل يغنى ويعمق فهمنا لماهية وتاريخ الحركة الصهيونية.

فى نموذج الجماعات الوظيفية يوجد طرفان: الطرف الذى يوظف والطرف الذى يقوم بأداء الوظيفة. وفى مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين كان الطرف الأول هو بريطانيا العظمى التى التزمت عام ١٩١٧ بوعد بلفور فى العمل على مساعدة الطرف الثانى على الانتقال إلى مرحلة الدولة الوظيفية. ولهذا كان على تشرتشل تبرير هذا

اصطدم المسيرى بحقيقة أن معظم الأبحاث الفكرية حول اليهود واليهودية والصهيونية تخدم أهـدافًا سـيـاسـيـة وأيديولـوجيــة



الانتقال وفق المنطق الاستعمارى القائم على أساس حق الجنس الأقوى والأرقى فى السيطرة على والتصرف بمقدرات الجنس الأضعف.

أما المقولة الثانية فهى تؤكد أن الطرف الآخر سيلتزم بقواعد اللعبة بشكل كامل ولن يتعاون إلا مع الطرف الأول ودون أى اعتبار لرغبات أهل البلاد الأصليين. كما أن «إلغاء» وجود الشعب الفلسطينى فى المقولة الثالثة يفسره نموذج عبد الوهاب بشكل مقنع إذ إن دراسته التاريخية للجماعات الوظيفية أظهرت أن أعضاء الجماعة الوظيفية يصلون إلى مرحلة يختزلون فيه العالم بأسره والواقع بكل تعقيداته إلى مبدأ واحد هو الوظيفة نفسها التى يقومون بها. وعندها تصبح الجماعة هى مرجعية ذاتها فيمكنها «أن تلغى الآخر وتراه غائبا أو ترى حضوره بدون معنى». وأخيرا فمضمون المقولة الأخيرة هو نتيجة انفصال أعضاء الجماعة الوظيفية عن التاريخ الحقيقى وتعلقهم بالتاريخ المقدس الذى يخصهم وحدهم. وليس فيه مكان للآخر.

إذًا ليس صحيحا أن الحركة الصهيونية مثلت حالة خاصة تختلف عن الحركات الفاشية والنازية والستالينية فى أنها لم تتبع أسلوب حل المشاكل عن طريق «إلغاء» أحد أطراف تلك المشاكل. فالحقائق التاريخية تؤكد أن الحركة الصهيونية قد بدأت باتباع ذلك الأسلوب قبل سنوات عديدة من ولادة الحركات الفاشية والنازية والستالينية. علينا فقط أن نتذكر أن خمس محاولات للاستيطان اليهودى فى فلسطين فى الفترة الممتدة من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩١٤ قد فشلت لأنها تمت من قبل جماعات تتبنى أفكار ومفاهيم القرن التاسع عشر بينما نجحت المحاولة السادسة التى تمت بعد أن تم تحالف الأحزاب العمالية اليهودية مع الحركة الصهيونية بشكل تنكرت فيه تلك الأحزاب لمبادئ الاشتراكية الأممية التى تدعو للتضامن العمالى فى كل القوميات وتبنت مفاهيم «احتلال العمل» أو «العمل العبرى» الذى يقوم على أساس تحالف العمال اليهود مع البرجوازية اليهودية من أجل «أخذ العمل فى الاقتصاد من العمال العرب وإعطائه للعمال اليهود» أى إلغاء وجود العمال العرب.

إن النموذج المعرفى الذى صاغه المسيرى لا يترك مجالا للشك فى أن الحركة الصهيونية لم تكن حركة خاصة بين الحركات السياسية فى القرن العشرين. لقد كانت، فى واقع الأمر، حركة رائدة فى تكريس ممارسات الإلغاء والإقصاء والتهميش التى مارستها بعد ذلك الفاشية والنازية والستالينية.

والمسيرى لا يتوقف عند ذلك فنموذجه المعرفى يوضح أيضا أن الفاشية والنازية والستالينية لم تكن حالات خاصة فى مسيرة الحضارة الغربية. لقد كانت هذه الحركات تعبيرا عن تطور تلك الحضارة فى اتجاه ما يسميه بالعلمانية الشاملة أو العلمانية العدمية. فالمسيرى يفرق بين مفهومين للعلمانية الأول هو العلمانية الجزئية التى تعنى فصل الدين عن الدولة وهو لا يرى أى مشكلة فى ذلك. أما المفهوم الثانى فهو رؤية شاملة للكون تكرس فصل كل القيم الأخلاقية عن الحياة العامة وقد تم هذا الفصل من جراء التقدم الهائل الذى حققه النظام الرأسمالى الذى لا يعترف إلا بقيم الربح والخسارة والتقدم الهائل الذى حققه النظام الإمبريالى الذى لا يعترف إلا بقيم القوة العارية. هذا التقدم كرس الظاهرة التى يسميها المسيرى بظاهرة «الحوسلة» أى تحويل كل شىء، بما فى ذلك الإنسان إلى وسيلة. وقد نتج عن ذلك أن الدول الغربية أصبحت تعيش فى تناقض فاضح فهى من ناحية تعيش فى مستوى معيشة عال جدا وترعى مؤسسات علمية متقدمة جدا وتنتظم فيها شئون الحياة وفق معايير الكفاءة العلمية، وهى من ناحية أخرى تعيش فى وضع أخلاقى متأخر تمارس فيه العدوان والتمييز وازدواجية المعايير. إنها مجتمعات تملك «وسائل متقدمة وأهدافا متأخرة». وهذا التناقض يقود بشكل طبيعى إلى الحروب العدوانية وإلى المجازر وما يدور الآن فى فلسطين والعراق وأفغانستان ليس منقطع الصلة بالذى كان يدور فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى على يد الفاشية والنازية والستالينية.

إنى أعتقد أن من أهم إنجازات المسيرى الفكرية هو اكتشافه وبشكل مبكر أن الأساس الفلسفى الموجود فى نسيج الحضارة الغربية المعاصرة والذى يقود إلى حروب الإبادة والاضطهاد والتمييز والتعسف هو مقولة «نهاية التاريخ».

بدأ القارئ العادى يسمع فى وسائل الإعلام عن مقولة «نهاية التاريخ» عندما صدر للكاتب الأمريكى فرانسيس فوكوياما كتاب «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» فى عام ١٩٨٩.

تتلخص أطروحة الكتاب بأن الإنسانية قد وصلت فى نظام «الديمقراطية الليبرالية» أو «الليبرالية الجديدة» المعمول به فى الولايات المتحدة عند نهايات القرن العشرين إلى نظام ليس بالإمكان استبداله بنظام أفضل منه، ولذلك فإنه سيكون نظام الإنسانية الأخير. وهو يقول بأنه من الطبيعى أن تظهر فى ذلك النظام، بين الفترة والأخرى، بعض النواقص والعيوب الناشئة بشكل طبيعى عن صعوبة إيجاد التوازن المناسب بين متطلبات «الكفاءة» ومتطلبات «العدالة»، ولكنها ستكون مشاكل من الممكن حلها فى إطار النظام نفسه وليس عن طريق استبداله بنظام آخر.

كان فوكوياما عندما أصدر الكتاب من القادة الفكريين لتيار «المحافظين الجدد» فى الولايات المتحدة الذى كان يطالب بإحداث تغيير جوهرى فى توجه السياسة

القدرة على الدراسة المتأنية الصبورة مكنته من إنجاز موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية»



الخارجية الأمريكية، إذ أنه كان يعتقد أن سياسة أمريكا الخارجية يجب أن تتغير من كونها ملتزمة بالدفاع عن «المصالح الأمريكية» وتصبح ملتزمة بالدفاع عن «القيم الأمريكية» على أساس أن «المصالح» مفهوم ضيق لا يليق بالقوة الوحيدة في العالم القادرة على نشر قيم الديمقراطية والعدالة والسلام.

قبل صدور كتاب فوكوياما بسبعة عشر عاماً، صدر كتاب للمسيري بعنوان «نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني»، وفيه تعرض إلى التصور اليهودي للوقت الذي سينتهي فيه الصراع الإنساني عندما يؤسس الإنسان «الفردوس الأرضي» الذي سيتحقق عندما يتم «حلول الله في الأرض والشعب». وعندما يحدث ذلك ينتهي الوجود «التاريخي» للإنسان اليهودي ككائن فرد له صفاته البشرية ويحل محله الوجود المقدس الجماعي للشعب اليهودي. ووجد أن هذه الفكرة الدينية لها في الفكر الصهيوني وجود محوري حتى عند الصهاينة غير المتدينين وحتى الملحدين منهم لأن لها مرادفا فلسفيا يحتل مركزا محوريا في المناخ الفكري لكل الحركات الشمولية في القرن العشرين.

وجد عبد الوهاب أن مقولة «نهاية التاريخ» التي تعني بالنسبة لليهودي قيام مملكة صهيون موجودة في أي فلسفة ترى أن «التاريخ» يتحرك بفعل قوة واحدة من أجل تحقيق غاية واحدة، على أساس أنه من الطبيعي أن يؤدي تحقيق تلك الغاية إلى توقف عمل تلك القوة وبالتالي توقف التاريخ كما هو معروف وبداية مرحلة إنسانية جديدة يصح تسميتها «غير تاريخية»، لأنها تختلف جذريا عن كل ما سبقها في التاريخ البشري.

وجد عبد الوهاب أن أوضح وجود للمقولة هو في فلسفة «هيغل». فالتاريخ وفقا لتلك الفلسفة هو صراع بين ما يشد بالإنسان إلى أوضاع العبودية والأسر وما يدفع به إلى رحاب الانعتاق والتحرر. وهيغل يعتقد أن الدينامية التي تحرك ذلك الصراع نحو مزيد من الحرية هي قوة العقل الإنساني المسكون بروح الله، وعندما تتم سيطرة العقل على العالم، أي عندما تحل روح الله في العالم، يفوز الإنسان بالحرية الكاملة وينتهي الصراع وبالتالي ينتهي «التاريخ» كما هو معروف منذ الأزل، وتبدأ الإنسانية في العصر «غير التاريخي» بمعنى الحياة بدون صراع.

من الواضح أن مقولة «نهاية التاريخ»، أي وصول الإنسانية إلى نظام سياسي - اقتصادي - اجتماعي نهائي هي مقولة تتناقض بشكل كامل مع منطق العلم الحديث إذ أن هذا المنطق يؤكد أن العلم لن يصل إلى حقيقة نهائية وبالتالي فإن التقدم العلمي سيستمر ما دام الإنسان موجودا. وهذا يعني بالضرورة أن التقدم التكنولوجي سيستمر أيضا. ومن الطبيعي أن تنشأ عن ذلك التقدم أوضاع اقتصادية واجتماعية جديدة تتطلب بالضرورة أنظمة سياسية - اقتصادية - اجتماعية جديدة. وهذا يعني أنه لن يكون هناك نظام نهائي. ومع ذلك نجد أن أقصى اليسار وأقصى اليمين يتفقان على تبني تلك المقولة. فأقصى اليسار يرى أن التاريخ يتحرك بفعل صراع الطبقات وعندما تنتصر الطبقة العاملة وتنجح في إقامة مجتمع «لا طبقي» ينتهي «التاريخ» الذي كان متحركاً بفعل صراع الطبقات. بينما يرى أقصى اليمين أن التاريخ يتحرك بفعل صراع الأجناس البشرية وعندما تتم سيطرة الجنس الأبيض المتفوق ويفرض سيطرته المطلقة على بقية الأجناس ينتهي الصراع وبالتالي ينتهي التاريخ.

وجد عبد الوهاب المسيري أن أخطر ما في مفهوم «نهاية التاريخ» هو أن المؤمنين به يرون تلك «النهاية» على أنها الجنة الموعودة أو «الفردوس الأرضي» وهم يرون أن رسالتهم المقدسة في الحياة هي تحطيم أي عقبة وإلغاء أي مشكلة تعترض مسيرتهم من أجل تأسيس ذلك الفردوس وإنهاء عالم الصراعات والكوارث والآلام..

● ما هو الضرر في إلغاء وجود الهنود الحمر إذا كان وجودهم عقبة في طريق بناء أعظم حضارة عرفها التاريخ.

● وما هو الضرر في إلغاء وجود اليهود؟ إذا كان وجودهم عقبة في طريق إقامة نظام الرايخ الثالث لأرقى جنس بشري.

● وما هو الضرر من إلغاء الفلاحين؟ إذا كان وجودهم عقبة في طريق إقامة أول مجتمع للسوفييت غير طبقي.

● وما هو الضرر من إلغاء وجود الفلسطينيين؟ إذا كان وجودهم عقبة في طريق حلول الله في أرض إسرائيل وتشييد مملكة «الفردوس الأرضي».

درس المسيري بشكل منهجي كل التصورات المختلفة لمقولة «نهاية التاريخ» كما جاءت في الفكر الديني والفكر الفلسفي منذ عصر النهضة الأوروبية إلى ما أصبح يعرف بفكر ما بعد الحداثة. وخلص من تلك الدراسة إلى أن المقولة تشكل أساسا محوريا لكل الحركات الشمولية غير الديمقراطية. فالمقولة في جوهرها مبنية على أساس تكريس فهم واحد لحقيقة الكون والإنسان والتاريخ بينما تعتمد الديمقراطية على أنه ليس هناك مثل ذلك الفهم الواحد. وبعبارة أخرى، الديمقراطية مبنية على أساس أن «حقيقة الكون» همّ شخصي أما الفكر الشمولي فإنه مبني على أساس أن «حقيقة الكون» قضية جماعية. كما أظهر المسيري أن خطورة المقولة تكمن في أنها توهم المؤمنين بها أنهم الوحيدون الذين عندهم المعرفة الكاملة بالقوانين التي تحرك التاريخ وأنهم الوحيدون القادرون على التحكم في تلك القوانين وإعادة صياغة حياة الإنسان وفق رؤى جديدة.

إن هذا الوهم هو المسئول عن الكوارث التي حلت في القرن العشرين من عمليات الإبادة والتطهير العرقي والمجازر الجماعية.

إذا توقفنا الآن وقارنا بين القدرة التفسيرية للنموذج المعرفي في كتاب فوكوياما الصادر عام ١٩٨٩ والنموذج المعرفي لكتاب المسيري الصادر عام ١٩٧٢ يكفي أن نلاحظ أن فوكوياما اضطر قبل أشهر (آذار عام ٢٠٠٧) إلى أن يصدر كتابا جديدا باسم «أمريكا عند مفترق الطرق: الديمقراطية، القوة وتركة المحافظين الجدد» تراجع فيه عن الأطروحة التي تضمنها كتابه الأول وتخلى فيه عن تأييد مواقف تيار المحافظين الجدد وذلك بعد فشل سياستهم في العراق. كما تخلى عن تأييده لمقولة «نهاية التاريخ» بعد اقتناعه أن المفهوم مبني على أساس خاطئ وهو أن الطبيعة البشرية ثابتة لا تتغير بينما أثبتت الاختراعات التكنولوجية الجديدة وخصوصا في مجال الهندسة الوراثية إمكانية تغيير تلك الطبيعة. وفي المقابل قام عبد الوهاب المسيري عام ١٩٩٧ بإصدار كتاب بعنوان «الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ» وقد استعمل فيه كل ما توصل إليه في كتابه الأول في موضوع «نهاية التاريخ» الذي صدر عام ١٩٧٢ دون أن يكون مضطرا للتراجع عن أي رأي أو أطروحة فيه.

إني أعتقد أن سبب إخفاق فوكوياما هو أنه أخذ مقولة «نهاية التاريخ» كما هي موجودة في فلسفة هيغل ووظفها بشكل يخدم هدفه في إظهار تفوق نظام «الليبرالية الجديدة». وفي المقابل فإن سبب نجاح المسيري في فهم حقيقة المقولة وتقييم دورها الحقيقي في الحركات الشمولية هو أنه لم يأخذ بمفهوم واحد لها وإنما قام بدراسة تطورها في الفكر الديني وفي الفكر الفلسفي المثالي والفكر الفلسفي المادي حتى تمكن من فهم حقيقة الدور الذي قامت به عبر التاريخ. لقد استعمل فوكوياما مقولة «نهاية التاريخ» من أجل خدمة أيديولوجية معينة أما المسيري فقد درس مقولة «نهاية التاريخ» من أجل فهم الأيديولوجيات المختلفة.

القدرة على الدراسة المتأنية الصبورة مكنت المسيري من إنجاز موسوعة من ثمانية مجلدات عن «اليهود واليهودية والصهيونية». ففي خلال أكثر من ربع قرن كان يدرس ويؤلف ويناقش. ولو كان يعمل من أجل خدمة أيديولوجية سياسية معينة لفقدت مقالاته وكتبه قيمتها بعد سنوات، إن لم نقل بعد شهور من صدورها. ولكنه كان يكتب بدافع

البحث عن حقائق الأشياء مدركاً أن للظواهر الإنسانية وجوداً مركباً معقداً وأن تفسيرها بشكل كامل هو عملية مستحيلة. وكما يقول كان يعمل «من أجل حصر بعض العناصر التاريخية والثقافية والاقتصادية التى قد تساهم فى تفسير جوانب كثيرة مما حدث وفى إلقاء الضوء عليه دون أن نزعم أننا أتينا بالتفسير الكلى والنهائى للظاهرة». وبفضل هذا الفهم «العلمى» لمهمة البحث العلمى وحدوده وبفضل سعيه الدائم لتجنب الاغتراب و«التحيز»، تمكن المسيرى من أن يراكم فى نشاطه الفكرى من النماذج المعرفية التحليلية ما مكنه من التقدم يوما بعد الآخر على طريق بناء موسوعة كاملة.

لقد كتب عبد الوهاب «الموسوعة» كتعبير عن تجربة وليس فقط كنتيجة للبحث. ولهذا جاءت الموسوعة تتمتع بصفتين قل أن يجتمعا فى عمل ثقافى واحد. فهى من ناحية موسوعة معلومات عن كل نواحى الموضوع، وأكثرها غير معروف للقارئ العربى، ستقود الكثيرين إلى إعادة النظر فى كثير من المعتقدات والمسلمات السابقة؛ وهى من الناحية الأخرى موسوعة أفكار على اساس أن عبد الوهاب تعلم من التجربة أن «المعلومات» وحدها لا تكون «معرفة»، كما أن «الحقائق» وحدها لا تكون «الحقيقة». فالحقائق هى معطيات مادية متناثرة لا يربطها رابط، أما الحقيقة فهى نتاج جهد إنسانى عقلى، تتكون حين يقوم العقل الإنسانى بالربط بين الحقائق ثم تجريد نموذج تفسيرى منها. والموسوعة مليئة بهذه النماذج التى توظف المعلومات من أجل الوصول إلى أكبر قدر من المعرفة. فموسوعة المسيرى إذن، ليست دائرة معارف فقط، إنها أيضا منهج للتفكير.

ولقد ثبتت كفاءة هذا المنهج الفكرى فى قدرته الفائقة على تفسير المحطات الرئيسية فى تاريخ الصراع العربى ـ الإسرائيلى.

لنأخذ على سبيل المثال اثنتين من أهم تلك المحطات، وهما زيارة الرئيس أنور السادات إلى إسرائيل (نوفمبر ١٩٧٧) وتوقيع اتفاقية أوسلو للاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل (سبتمبر ١٩٩٣).

قادت زيارة السادات إلى إسرائيل الى إنهاء حالة الصراع بين البلدين وتوقيع معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية وقد تم ذلك بعد حدوث انقلاب كامل فى توجه السياسة المصرية قبلت بموجبه مصر بالهيمنة الأمريكية على المنطقة، وبالتالى قبلت بالدور الوظيفى الذى تقوم به إسرائيل فى المنطقة: هى تخدم المصالح الأمريكية، وأمريكا تدعم عملية التوسع الصهيونى. ولذلك فإننا نجد أن من أهم نتائج معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية هو تسارع التوسع الصهيونى والدليل على ذلك أنه فى فترة العشر سنوات التى امتدت من احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة إلى زيارة السادات لإسرائيل لم يتجاوز عدد المستوطنين فى الأراضى الفلسطينية ٤٠ ألف مستوطن أما فى فترة العشر سنوات التى تبعت الزيارة فقد زاد عدد المستوطنين على ربع مليون.

قادت اتفاقية أوسلو منظمة التحرير الفلسطينية إلى تغيير ميثاقها، فانقلبت من حركة تحرر وطنى إلى حركة تعمل على بناء حكم ذاتى محدود وفق الإملاءات الأمريكية وهذا يعنى، مرة أخرى، القبول بالدور الوظيفى لإسرائيل فى خدمة المصالح الأمريكية مقابل تأييد التوسع الصهيونى. وهذا ما حصل بالفعل، فلقد بلغ معدل النمو السنوى لسكان المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية بعد أوسلو ضعف ما كان عليه قبلها. فعند توقيع اتفاقية أوسلو كان عدد المستوطنين اليهود فى الضفة الغربية وقطاع غزة ٢٦٨.٧٥٦ مستوطن أما فى عام ٢٠٠٦ فقد بلغ عدد المستوطنين فى الضفة الغربية وحدها ٤٧٥.٧٦٠.

وتظهر القوة التفسيرية لنموذج «الجماعات الوظيفية» الذى صاغه المسيرى لدراسة الحركة الصهيونية عندما نتوقف عند الذى حدث قبل أسبوعين مع انعقاد مؤتمر انابوليس (٢٧ نوفمبر ٢٠٠٧). لقد تم انعقاد المؤتمر برعاية أمريكية وبحضور عربى مميز، وتوصل المؤتمر الى الاتفاق على العودة إلى العملية السلمية وعلى استئناف المفاوضات المتعطلة منذ ست سنوات بين منظمة التحرير وإسرائيل. وبعد مرور أقل من أسبوع واحد على انفضاض المؤتمر أعلنت إسرائيل عن عزمها على بناء مئات الوحدات السكنية الجديدة فى مستعمرة جبل أبو غنيم فى القدس وقد أحدث ذلك الإعلان دهشة كبيرة عند كثير من السياسيين والمعلقين لأنهم رأوا فى توسيع الاستيطان اليهودى فى الأراضى الفلسطينية ما يتناقض بشكل كامل مع المناخ الذى خلقه المؤتمر. أما الذين نظروا للموضوع من منظار نموذج المسيرى عن الدور الوظيفى لإسرائيل فإنهم لم يصابوا بالدهشة على الإطلاق، وعلى العكس، كانوا يدركون بأن أولى نتائج المؤتمر ستكون التوسع الاستيطانى اليهودى فى الضفة الغربية. ■

● للاستزادة: النص الكامل ينشر فى دورية «أوراق فلسفية».

عبدالوهاب المسيرى



موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤيةٌ نقدية

(مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام. القاهرة ١٩٧٥).

هذا العمل هو بداية الجهد الموسوعي للمسيري: إذ اكتشف ما سماه «جيتوية المصطلح الصهيوني»، وهي أن كل المصطلحات ـ بل المفردات ـ التي ترد في الكتابات الصهيونية لها معنى محدد يختلف عن معناه في النصوص الأخرى. فـ «الحزب السياسي» في الكيان الصهيوني يختلف عن «الحزب السياسي» في الدول غير الاستيطانية في بنيته ومفهومه، وكلمة «الشعب» كما ترد في المعاجم السياسية يختلف معناها عن معنى كلمة «الشعب» كما ترد في المعجم الصهيوني. وهذه الموسوعة محاولة أولية لحصر المصطلحات والمفردات والمفاهيم الصهيونية وتحديد معناها ومضمونها واسترجاع البُعد العربي/النقدي لها.

وتقوم الموسوعة بتقديم تعريف مستفيض لمعظم المصطلحات الصهيونية الشائعة حتى تاريخ صدورها، ابتداءً بـ «الصهيونية العمالية»، على سبيل المثال، وانتهاءً بـ «الكيبوتس».

وقد بدأ الدكتور المسيري في كتابة موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية عام ١٩٧٦، كمحاولة لتحديث موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية.

■



الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤيةٌ حضارية جديدة

(دار الشروق، القاهرة ١٩٩٧ ـ طبعة ثانية ١٩٩٨ ـ طبعة ثالثة ٢٠٠١ - طبعة رابعة ٢٠٠٥).

يتناول الكتاب الظاهرة النازية انطلاقاً من مستوى تحليلي حضاري معرفي يتجاوز السرد التاريخي والمستوى السياسي، كما يتجاوز منطق مراكمة المعلومات والحقائق، ويستخدم منهج دراسة الظواهر التاريخية الحضارية من خلال النماذج التفسيرية. يبدأ الكتاب بتعريف الإبادة وبعض المصطلحات الأساسية المرتبطة بها، ثم يتناول ظاهرة الإبادة في سياقها الحضاري والألماني، وبعض الإشكاليات السياسية والفلسفية التي تثيرها إبادة يهود أوربا على يد النازي، مثل إشكالية انفصال العلم عن القيمة، وتوظيف الإبادة واحتكارها وإنكارها، وإشكالية الحل النهائي، وقضية عدد ضحايا الجريمة النازية، وملاحقة مجرمي الحرب النازيين. ويثير الكتاب واحدةً من أهم القضايا الخلافية وهي قضية التعاون بين أعضاء الجماعات اليهودية (وخصوصاً الصهاينة) مع النازيين. ويتناول الكتاب كذلك المكانة التي تشغلها الإبادة النازية في الوجدان الفلسفي والأدبي الغربيين.

■



اليدُ الخفية: دراسةٌ في الحركات اليهودية الهدامة والسرية

(دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨ ـ مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠ ـ دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١).

يتناول المسيري في هذا الكتاب ما يُسمى «العقلية التآمرية» التي تنظر إلى العالم من خلال النموذج الاختزالي ذي البعد الواحد، ومن ثمّ تسقط في العنصرية، التي تبسط الواقع، وتجعل التعامل معه والتنبؤ به مسألة صعبة.. إن لم تكن مستحيلة. ويطرح المسيري مقابل هذا ما يسميه «النموذج المركب». وقد استخدم عدة حالات للدراسة، منها: البروتوكولات ـ التلمود ـ السحر ـ الماسونية ـ البهائية ـ الفرانكية ـ السبتية ـ الجاسوسية اليهودية ـ الجريمة اليهودية ـ اللوبي اليهودي والصهيوني. كما تناول الكتاب إشكالية العبقرية اليهودية واللوبي اليهودي الصهيوني. وقد ضم هذا الكتاب بعض المواد التي وردت في كتاب الجمعيات السرية في العالم (من إصدار دار الهلال ـ القاهرة ١٩٩٣) بعد إعادة صياغتها وتطويرها والإضافة إليها. وأضاف المسيري إلى الكتاب ملحقاً

المسيري والصهيونية

به دراسة تفصيلية عن النموذج الاختزالي والنموذج المركب، وعن المؤشر الاختزالي والمركّب.

■

اليهود في عقل هؤلاء

(دار المعارف، سلسلة اقرأ، القاهرة ١٩٩٨، دار العين، القاهرة ٢٠٠٨).



يضم هذا الكتاب عدة دراسات: واحدة عن اليهود في عقل الأدباء أعضاء الجماعات اليهودية الذين يرفضون الصهيونية أو لا يكترثون بها (أيزاك بابل- فرانز كافكا... إلخ)، وعقل الأدباء الذين يهتمون بالصهيونية ويرون فيها حلاً للمسألة اليهودية (جوردون وبرنر). كما يضم دراسة في فكر جمال حمدان الاستراتيجي، الذي وضع مصر (ومن ثمّ فلسطين) في المركز، وفي منهجه الذي لا يرفض العام ولكنه لا يكتفي به، إذ يصل إلى الخاص من داخله ويعبّر عنه. وأخيراً يضم الكتاب الدراسة التي كتبها المسيري بمناسبة زيارة المفكر الفرنسي روجيه جارودي القاهرة وتقديمه للمحاكمة، ويبيّن فيها الفرق بين الأسطورة بالمعنى الإيجابي والأسطورة بالمعنى السلبي، ويحاول أن يبين «منطقية» تحول جارودي للإسلام، فهو يبحث عن نظام يؤكد مقدرة الإنسان على تجاوز عالم المادة وسوق السلع، وقد وجد ضالّته في التوحيد الإسلامي (مقابل «واحدية السوق»).

■

الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذجٌ تفسيريٌ جديد

(دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١ - طبعة ثانية ٢٠٠٣).



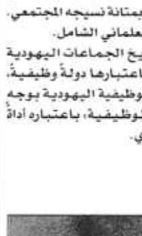
يحدّد المسيري مفهوم الجماعة الوظيفية بأنها جماعة يستوردها المجتمع من خارجه أو يجنّدها من داخله، تُعرّف في ضوء وظيفتها، لا في ضوء إنسانيتها الكاملة، ويَكِل المجتمع إليها وظائف لا يضطلع بها عادةً أعضاءُ المجتمع، إما لأنها مشينة (البغاء، الربا)، أو متميّزة وتتطلب خبرة خاصة (الطب والترجمة)، أو أمنية وعسكرية (الخصيان، المماليك)، أو لأنها تتطلب الحياد الكامل (التجارة وجمع الضرائب). ويتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بالحياد، وبأن علاقتهم بالمجتمع علاقة نفعية تعاقدية، وهم عادةً عناصرُ حركية لا ارتباط لها ولا انتماء، تعيش على هامش المجتمع في حالة اغتراب، ويقوم المجتمع بعزلها عنه ليحتفظ بمتانة نسيجه المجتمعي، وأعضاء الجماعة الوظيفية عادةً من حملة الفكر الحلولي والعلماني الشامل.

وقد استخدم الدكتور المسيري هذا النموذج في تحليل تاريخ الجماعات اليهودية ووضعها وانتماءاتها الثقافية، كما درس الدولة الصهيونية باعتبارها دولةً وظيفيةً، استيطانيةً إحلالية. ورغم أن هذا الكتاب يتناول الجماعات الوظيفية اليهودية بوجه خاصٍ من التركيز، إلا أنه، مع ذلك، يقدم مفهوم «الجماعة الوظيفية» باعتباره أداةً تحليلية أكثر تفسيريةً وتركيبيةً من مفهوم «الطبقة» التقليدي.

■

مقدمةٌ لدراسة الصراع العربي- الإسرائيلي: جذورُه ومسارُه ومستقبلُه

(دار الفكر، دمشق ٢٠٠٢).



يضم هذا الكتاب ستة فصول تحاول تقديم رؤية شاملة لجذور الصراع العربي الإسرائيلي ومساره ومستقبله. فيقدم الفصل الأول («يهود، أم جماعاتٌ يهودية؟») رؤيةً «بانورامية» للجماعات اليهودية في العالم: أعدادهم، وهجراتهم، وتنوعهم، وعدمِ تجانسهم. ويتناول الفصل الثاني («يهود، أم جماعاتٌ وظيفية يهودية؟») مفهومَ الجماعة الوظيفية، ويحاول تطبيقه على الجماعات اليهودية. أما الفصل الثالث («الصهيونية والمسألة اليهودية») فيبيّن كيف تبلور الفكر الصهيوني داخل التشكيل الحضاري الغربي والإمبريالي.

أما الفصل الرابع («موجز تاريخ الصهيونية») فيحاول أن يقدم خريطة متكاملة لتطور الفكر الصهيوني، ويتناول الفصل الخامس («الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني») الظاهرة الصهيونية، ويحاول أن يحدد سماتها العامة والخاصة، ويطرح تعريفاً لها، بدلاً من التعريفات الغربية المتحيزة ذات المقدرة التفسيرية الضعيفة. ويتناول الفصل السادس والأخير («أزمة الصهيونية») مصادر أزمة الأيديولوجية والتجمع الصهيوني، ومدى تأثيرها في مستقبل إسرائيل.

■

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذجٌ تفسيريٌ جديد

(ثمانية أجزاء، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٩).



وهي عمل المسيري الأبرز، الذي استغرق من عمره ما يقرب من ثلاثين عاماً لإنجازه. وهذه الموسوعة لا تكتفي بالتفكيك، أي نقد المصطلحات الصهيونية، وإنما تنتقل إلى التأسيس، أي محاولة طرح رؤية عربية بديلة للظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية، ووضع مصطلحات جديدة لوصف هذه الظاهرة. وتتناول الموسوعة كل جوانب تاريخ العبرانيين في العالم القديم، وتواريخ الجماعات اليهودية بامتداد بلدان العالم، وتَعدادِاتها وتوزعاتها، وسماتها الأساسية، وهياكلها التنظيمية، وعلاقات أفراد الجماعات اليهودية بالمجتمعات التي يوجدون فيها وبالدولة الصهيونية. وتغطي كذلك أشهر الأعلام من اليهود وغير اليهود ممن ارتبطت أسماؤهم بتواريخ الجماعات اليهودية، في شتى المراحل التاريخية والمواقع الجغرافية والانتماءات الحضارية. كما تتناول هذه الموسوعة كل الجوانب المتعلقة بتاريخ اليهودية، وفرقها وكتبها الدينية، وطقوسها وشعائرها، وأزمتها في العصر الحديث، وعلاقتها بالصهيونية وبمعاداة السامية («معاداة اليهود»). كما تغطي الحركة الصهيونية ونشاطاتها ومدارسها وأعلامها، وبعض الجوانب الأساسية للدولة الصهيونية.

وتهدف الموسوعة إلى توفير وتمحيص الحقائق التاريخية والمعاصرة عن الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية، وإلى تقديم رؤية جديدة للموضوعات التي تغطيها. وهي تحاول إنجاز ذلك من خلال عدة طرق:

- تقديم تاريخ عام للعقيدة والجماعات اليهودية وللحركة الصهيونية.
- التعريف الدقيق للمفاهيم والمصطلحات السائدة، والتأريخ لها من منظور جديد، وإبراز جوانبها الإشكالية.
- إسقاط المفاهيم والمصطلحات المتحيزة، وإحلال مفاهيم ومصطلحات أكثر حياداً وتفسيريةً محلَّها.

وقد حصلت الموسوعة على جائزة أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٩٩.

■

البروتوكولات واليهودية والصهيونية

(دار الشروق، القاهرة يناير ٢٠٠٣ - طبعة ثانية أبريل ٢٠٠٣ - طبعة ثالثة مايو ٢٠٠٣ - طبعة رابعة يناير ٢٠٠٥).



يرى المسيري أن البروتوكولات وثيقة مزيّفة، وذلك استناداً إلى بعض الحقائق التي نُشرت عن أصولها ومن خلال تحليل النص من الداخل، وهو يبيّن في هذه الدراسة أن «الفكر البروتوكولي» التآمري فكر اختزالي، ليست له مقدرة تفسيرية ولا حتى تعبوية: لأن كُره اليهود، الذي ينطلق منه هذا الخطاب، يصب في واقع الأمر في الخندق الصهيوني، فمَنْ يكره اليهود يقوم باضطهادهم والتحريض ضدهم، مما يضطرهم إلى «الخروج» من بلدهم ليتحولوا إلى مستوطنين في بلادنا! كما أننا، بتصورنا أن اليهود هم «السبب» فيما يلحق بنا من مصائب، نتجاهل الدعم الأمريكي الشامل والمستمر للجيب الصهيوني، وهو الدعم الذي يضمن له الاستمرار والبقاء. «والصهيونية، كما يقول المسيري، هي دعوة لتخليص أوربا من اليهود وتصديرهم إلى مكان خارجها ليوظّفوا لصالحها». وتبيّن الدراسة أن الجذور الحقيقية للصهيونية هي الاستعمار الغربي ومعاداة السامية. وتخلُص الدراسة إلى أن ترويج البروتوكولات يبث روح الهزيمة ويقوّض روح الجهاد، وأن الإصرار على أن اليهودية عبارة عن مجموعة من الصفات الثابتة التي يتوارثها اليهود جيلاً بعد جيل يتنافى وتعاليمَ الإسلام التي تذهب إلى أن الرذيلة، مثل الاستقامة، مسألةُ اختيار وليست مسألةَ ميراث، وتختتم

الدراسة بفصل عن إبداعات انتفاضة ١٩٨٧ وانتفاضة الأقصى، وكيف أن مثل هذا الإبداع لم يكن ممكناً إلا بعد أن نَفض المنتفضون عن أنفسهم غُبار الخوف والهزيمة.

■

الصهيونية والحضارة الغربية الحديثة

(دار الهلال، كتاب الهلال، القاهرة ٢٠٠٣)



شاع في الخطاب التحليلي العربي أن الصهيونية تضرب بجذورها في التوراة والتلمود والتقاليد الدينية والإثنية اليهودية. ويذهب المسيري إلى أن ثمة خللاً تصنيفياً أساسياً هنا. فالصهيونية، كما تحاول أن تبين هذه الدراسة، ذات جذور غربية ثم أضيفت لها ديباجات يهودية. فالبعد اليهودي في معظم الأحيان بعد زخرفي تبريري، أضيف من أجل مقدرته التعبوية. وقد أدى هذا الخلل التصنيفي إلى خطأ الافتراضات التي تبدأ بها كثير من البحوث في العالم العربي، وهذا يحدد بطبيعة الحال المجال الذي ترصده هذه البحوث وطريقة تصنيف المعلومات والنتائج التي يصل إليها الباحث، فهي في معظم الأحيان ليس لها قيمة تفسيرية أو تنبؤية عالية. و تتناول هذه الدراسة هذه الإشكالية، فهي تحاول أن توضح العناصر الغربية الأساسية (المادية والمعنوية) التي دخلت في تكوين الرؤية الصهيونية للواقع، وأن تبين أن الصهيونية ليست مجرد انحراف عن الحضارة الغربية الحديثة، كما يحلو للبعض القول، وإنما هي إفراز عضوي لهذه الحضارة ولما نسميه بالحداثة الداروينية، أي الحداثة التي ترمي إلى تحويل العالم إلى مادة استعمالية توظف لصالح الأقوى (في مقابل الحداثة الإنسانية التي ترمي إلى تحقيق التوازن بين الذات والطبيعة والتي تطالب بتكاتف كل أبناء الجنس البشري لإعمار الأرض لصالح البشرية جمعاء بما في ذلك الأجيال القادمة).

■

الإدراك الصهيوني للعرب والحوار المسلح

(دار الحمراء، بيروت ٢٠٠٣)



من أعقد القضايا التي يواجهها المحللون السياسيون قضية علاقة إدراك الإنسان للواقع المحيط به وبسلوكه ومدى تأثير الإدراك (والوعي والأفكار والرموز) في السلوك الإنساني، وكيف تكون استجابة الإنسان الذي يتم تحدي خريطته الإدراكية، كما يحدث في فلسطين المحتلة حين يتحدى المنتفضون خريطة الصهاينة الادراكية التى تستند إلى مجموعة من الاساطير و الديباجات التوراتية من خلال المقاومة أو ما نسميه الحوار المسلح. وهذه القضية لا تختلف كثيراً عن مشكلة الذاتية والموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية بل والطبيعية. وهذا الكتاب يحاول أن يلقي بعض الضوء على هذه القضية. هذا هو هدفه، وهذا ما يرمي إلى تحقيقه. وعلى الرغم من أن كل فصول الكتاب تدور حول الصراع العربي الإسرائيلي (وموضوعات أخرى على علاقة به)، فإن هذه مجرد دراسات لحالات، إذ يظل الموضوع الأساسي هو قضية الخريطة الإدراكية وكيف تحدد الرؤية و كيف يمكن تحديها حتى يتم تعديلها أو تقويضها تماماً، وما الحالات التي أتينا بها سوى محاولات مختلفة لتوضيح بعض أبعاد هذه القضية الكلية والمجردة من خلال أمثلة معينة.

■

التجانس اليهودي والشخصية اليهودية

(دار الهلال، كتاب الهلال، ٢٠٠٤).



يضم هذا الكتاب عدة مقالات نُشرت في عدة جرائد عربية على مدى الأعوام الماضية، والمقال الأسبوعي عادةً ما يدور حول حدث ما، حدث «ساخن»، كما يقولون في عالم الإعلام، وهم عادةً ما يعنون بذلك حدثاً وقع لتوه. هذا المطلب يمثل جزءاً من توقعات القارئ من جريدته اليومية. ولكن مؤلف هذا الكتاب لا يؤمن بجدوى ما يسميه «الموضوعية المادية المتلقية»، التي تتلقى تفاصيل الواقع ثم تسجلها دون تصنيف أو ترتيب بهدف مراكمة المعلومات، ولذا فقد حاول قدر استطاعته أن يضع الحدث داخل نمط متكرر متجاوز للحدث نفسه وأكثر عمومية منه، كما كان يضعه في سياقه التاريخي والاجتماعي والثقافي حتى يمكن فهمه في أبعاده المركبة. وبهذا تم تطبيق بعض المفاهيم التحليلية الأساسية التي وردت في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية على الأحداث الآنية. وقد قام المؤلف بجمع هذه المقالات في كتاب، بعد أن قام بإعادة تصنيفها حسب الموضوع الأساسي الكامن وداخل النمط المتكرر، وبذلك يمكن للقارئ أن يرى الحدث «الساخن» في إطار النمط «الدافئ» والسياق الحي الذي يعطي الحدث معناه وأبعاده الحقيقية. فهناك مجموعة من المقالات عما يسمى «القومية اليهودية»، وأخر عما يسمى «الشخصية اليهودية»، وثالث عن الهيكل ومحاولات إعادة بنائه.

■

الصهيونية وخيوط العنكبوت

(دار الفكر، دمشق ٢٠٠٦)



يضم هذا الكتاب عدة مقالات تتناول طائفة متنوعة من الأحداث والظواهر المتعلقة باليهودية والصهيونية، وبمسار الصراع العربي الصهيوني. ويمكن القول إن هذه الدراسة هى محاولة لاستخدام النماذج التى طورها المؤلف فى موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيرى جديد لتفسير الأحداث والوقائع التى يتعرض لها الكتاب بالتحليل والمعلومات التي ترد فيه. ويحاول الكاتب قدر استطاعته أن يضع الحدث والمعلومات داخل نمط متكرر متجاوز للحدث نفسه والمعلومة نفسها وأكثر عمومية منهما، بالإضافة إلى وضعهما في سياقهما التاريخي والثقافي حتى يمكن فهمهما في أبعادهما المركبة.

ويتناول الجزء الأول من الكتاب الموضوعات التي تدور حول بعض جوانب الاستعمار الصهيونى، مثل الديموجرافيا اليهودية، وجذور الاستعمار الاستيطانى الصهيوني، وقضية المصطلح الصهيوني وكيف أنه يعبر عن مفاهيم صهيونية وضرورة الحذر منه. ويتناول الجزء الثانى من الكتاب مفهوم الوحدة اليهودية كما يتبدى فيما يسميه المؤلف خرافة القومية اليهودية، وخرافة الهوية اليهودية، وخرافة الشخصية اليهودية. ويحاول هذا الجزء أن يبين، من خلال الأمثلة المحددة والشواهد المتعددة، أنه لا يوجد أي تجانس بين أعضاء الجماعات اليهودية، وأن الحديث عن الوحدة اليهودية هو خرافة ابتدعها الصهاينة والمعادون لليهود واليهودية على حد سواء لإسباغ الشرعية على المشروع الصهيوني.

ثم ينتقل الكتاب بعد ذلك إلى عالم الإدراك، فيحاول أن يبين كيف يدرك الإسرائيليون واقعهم وواقع الفلسطينيين، فهذا الإدراك، وليس الواقع المادى المباشر، هو الذى يحدد كثيراً من جوانب استجابتهم لما يقع لهم من أحداث. أما بقية الكتاب فيتناول موضوعات شتى مثل: بروتوكولات حكماء صهيون والفكر التآمري بشكل عام. ويتناول الفصل الأخير من الكتاب موضوع نهاية إسرائيل وهو موضوع يحجم الإعلام العربي الرسمي عن تناوله، بينما لا يتردد الإعلام الصهيوني في ذلك، فهاجس نهاية إسرائيل يطارد الإسرائيليين دائما.

وعنوان الكتاب له دلالة، فقد كان موشيه يعلون، الذي كان يشغل منصب رئيس هيئة الأركان في الجيش الإسرائيلي، دائماً يمتدح قدرة الشعب الإسرائيلي على الصمود في الصراع الدائر مع الفلسطينيين، واعتاد الظهور في أوساط إسرائيلية مختلفة ليدحض نظرية «خيوط العنكبوت» المنسوبة للسيد حسن نصر الله، أمين عام «حزب الله»، ومؤداها أن إسرائيل تبدو من الخارج دولة عظمى من الناحية العسكرية، ولكن من يلمسها يدرك أنها تتفكك مثل خيوط العنكبوت.

ولكن مع تصاعد معدلات القلق داخل التجمع الصهيوني، اضطُر يعلون، في تصريحات نقلتها صحيفة «يديعوت أحرونوت» في موقعها على الإنترنت (١١ فبراير/ شباط ٢٠٠٣)، إلى الاعتراف بأن قدرة المجتمع الإسرائيلي على الصمود محدودة للغاية، بل وأقر بصواب نظرية «خيوط العنكبوت». وقد عبر يعلون عن رأيه هذا في اجتماع مغلق أمام شخصيات من العاملين في مجال التربية والتعليم في القدس. ووصفت الصحيفة هذه التصريحات بأنها «شاذة»، وبأنها وقعت على مسامع الحاضرين «وقع الصاعقة»، وهو الأمر الذي دفع يعلون فيما بعد إلى نفي تصريحاته مدعياً أنها أسيء فهمها، ومن ثم حُذفت تماماً من موقع الصحيفة.

ومما يستلفت النظر أن معظم الصحف العربية تجاهلت الخبر تماماً، بينما نشرته بعض الصحف الأخرى على استحياء في زاوية مهملة، وكأنه خبر عابر لا أهمية له، وكأنه ليس تقييماً حقيقياً لمعنويات الكتلة البشرية الاستيطانية التي احتلت أرض فلسطين، صادرا عن أحد أعمدة المؤسسة العسكرية الصهيونية، وكأنه ليس مؤشراً قوياً على عمق الأثر الذي تحدثه الانتفاضة الفلسطينية على التجمع الصهيوني.

عبد الوهـــاب المســـيرى



على قائمة كتابها الدائمين، اعتزت «وجهات نظر» دائماً باسم «عبدالوهاب المسيرى» الذى اختارها منبراً لدراساته ومقالاته الفكرية فى الحداثة وما بعدها وفى مفاهيم الحضارة الغربية، كما فى المسألة اليهودية والصهيونية. وهنا آخر ما كتبه المسيرى لـ «وجهات نظر»

«بيزنس» الهولوكوست

■■ محاولة النظر لإشكالية الإبادة من الداخل والخارج، والمزج بين الخاص والعام، تغير الرؤية وتضع قضية الإبادة على مستوى تحليلى جديد تماما. يولد أسئلة مختلفة عن تلك التى يطرحها الصهاينة، والتى تحدد الأجندة البحثية والأجوبة التى ستتوصل إليها. فقضية ستة الملايين، وهل هو رقم صحيح أو لا، تصبح قضية ثانوية، إذ إن ثمة نمطا إباديا غربيا عاما موجها ضد الآخر. نحن نتحدث عن عشرات الملايين الذين أبيدوا مما يبين وحشية التشكيل الحضارى الألمانى النازى الذى هو جزء من التشكيل الحضارى الغربى الحديث.

مركزية الهولوكوست

تحاول الحضارة الغربية أيقنة الهولوكوست لإحاطتها بالأسرار حتى لا يخضعها أحد للتساؤل أو للنقد. ورغم ان إبادة الآخر آلية أساسية استخدمها التشكيل الحضارى الإمبريالى الغربى فى تحقيق رؤيته ومثالياته الداروينية، إلا أن الإبادة النازية ليهود أوروبا لها مركزية خاصة. وأعتقد أن هذه المركزية، تعود إلى الأسباب التالية:

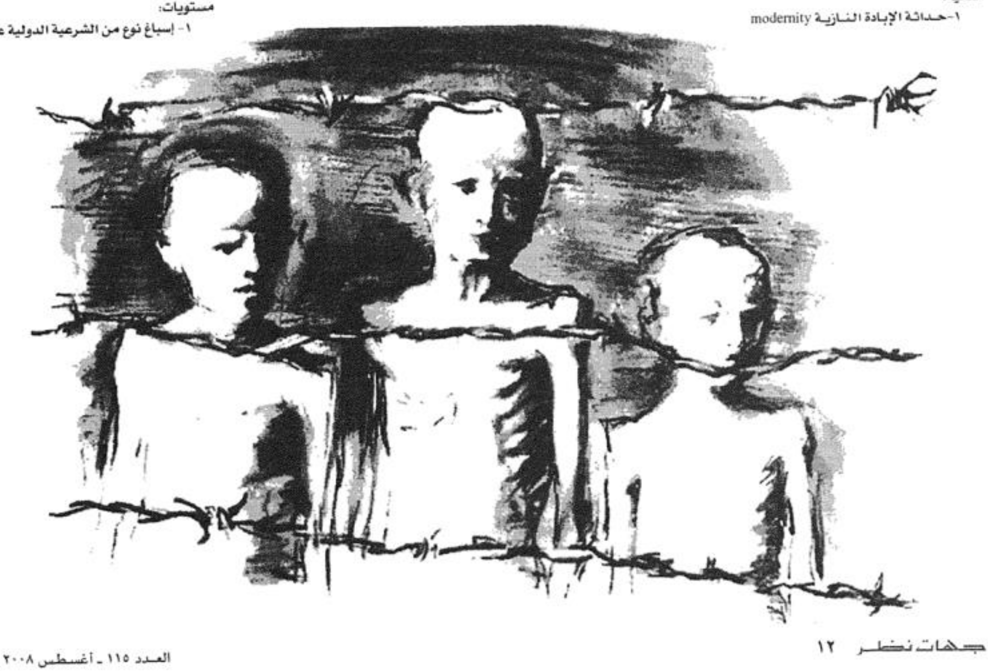
١-حداثة الإبادة النازية modernity ومنهجيتها، الأمر الذى جعلها تقض مضجع الإنسان الغربى، فمشروعه الحضارى يستند إلى العلم المتجرد من القيمة وعبقرية حضارته تكمن فى الترشيد المتزايد.

٢- كانت الإبادة الاستعمارية للآخر تتم دائماً «هناك» بعيداً عن أوروبا حيث كانت أوروبا تُلقى بفائضها البشرى، فى آسيا وأفريقيا. أما الإبادة النازية فتمت «هنا» على أرض الحضارة الغربية، وعلى بُعد أمتار من منازل المواطنين العاديين. كما أن العناصر التى أُبيدت لم تكن داكنة اللون أو صفراء، وإنما «مثلنا تماماً».

٣- يشغل اليهود مكانة خاصة فى الوجدان الغربى الدينى والحضارى، فاليهودى يقف دائماً على الهامش، موضع تقديس وكره عميقين، وحينما صرعته الإبادة النازية تنبه الإنسان الغربى إلى الإمكانية الكامنة، التى تقف فاغرة فاها، فى قلب حضارته الحديثة.

ويتحدث الغرب عن الألمان النازيين فقط، وعن مذابحهم ضد اليهود وحدهم وإهمال كل ما قامت به الحضارة الغربية من مذابح وفظائع بداية الغرب يفعل ذلك ليتسنى له أن يوظف الهولوكوست على عدة مستويات:

١- إسباغ نوع من الشرعية الدولية على



وقعت الهولوكوست فى أوروبا على يد الإنسان الأبيض ضد أقلية بيضاء، فظهرت الفضيحة واضحة جلية متبلورة وكان لابد من تخبئتها. إن الغرب باتهامه الألمان، والألمان وحدهم، ينجح فى الهروب من مواجهة نفسه وحضارته الحديثة الابادية

الدولة الصهيونية، فرغم أن المشروع الصهيونى -كما أسلفنا- لا علاقة له بالهولوكوست، إلا أن الكيان الصهيونى كيان عنصرى محتل للأرض، يرفض كل الأعراف الدولية والإنسانية والأخلاقية، ولا يلتزم بها على الإطلاق، كيان مدجج بالسلاح، عنده أكثر من مائتى رأس نووى (وذلك حسب إحصائيات الثمانينيات)، لكن من خلال الحديث عن اليهود كضحية وعن إسرائيل باعتبارها دولة يهودية يحاولون تبرير كل هذه الأمور والتغطية عليها. لقد ظهر مصطلح جديد فى السياسة الدولية يسمونه victomology أى أن دور الضحية يكسب صاحبه كثيرا من التعاطف، بل والشرعية أيضا، ولذلك ينكرون هذا الدور على الفلسطينيين رغم أن الفلسطينيين يوميا يعذبون على مرأى من العالم.

٢- تبرير المعونات السخية التى تصب فى خزانة الدولة الصهيونية، وخاصة أن الشعوب الغربية، سواء فى الولايات المتحدة أو فى أوروبا، حينما يرون آلاف الملايين من الدولارات التى دفعتها ألمانيا وسويسرا والولايات المتحدة تصب فى خزانة إسرائيل، فى الوقت الذى تقوم فيه بعض هذه الحكومات بتخفيض الاعتمادات الخاصة بالخدمات الاجتماعية، والرعاية الصحية، هذه الشعوب الغربية قد تبدأ فى التململ والاحتجاج، ولذا تستخدم الهولوكوست لإطلاق سحابة من الدخان الأخلاقى والإنسانى لتبرر الاحتلال الصهيونى.

٣- وقعت الهولوكوست فى أوروبا على يد الإنسان الأبيض ضد أقلية بيضاء، فظهرت الفضيحة واضحة جلية متبلورة وكان لابد من تخبئتها. إن الغرب باتهامه الألمان، والألمان وحدهم، ينجح فى الهروب من مواجهة نفسه وحضارته الحديثة الإبادية. لقد تم التلاعب بالمستوى التعميمى والتخصيصى، فبدلا من إدراك الجرم باعتباره جرما عاماً تماماً ضد الآخر، تم تخصيصه بحيث أصبح جرما ألمانيا نازيا وحسب، العالم الغربى برىء منه، وبدلا من رؤية الضحية باعتباره الآخر بشكل عام، أصبحت الضحية هى اليهود، واليهود وحدهم، وأصبحت الهولوكوست حدثاً فريداً لا نظير له، ولا يمكن فهمه إلا من الداخل ومن ثم تتحول الإبادة من قضية اجتماعية تاريخية إنسانية إلى إشكالية غير إنسانية تستعصى على الفهم الإنسانى، وإلى سر من الأسرار يتحدى العقل. كل هذا ليس ناتجا عن ضغط يهودى أو صهيونى، وإنما هو جزء من منظومة حضارية كاملة.

٤- نزعت الحداثة الداروينية القداسة عن العالم وتركت الإنسان الغربى عاريا تماما أمام عالم المادة بلا مقدسات أو ميتافيزيقا، وهذا أمر مستحيل بالنسبة لمعظم البشر. فالإنسان كائن ميتافيزيقى دائم البحث عن شىء مقدس، فبدأ البحث عنه ولكن داخل إطار مادى مقدس يمكنه أن يدركه بحواسه الخمس (المصدر الوحيد للمعرفة بالنسبة له)، ولذا فهو يحاول أن يصل إلى قداسة مادية وميتافيزيقا مادية إن صح التعبير، وهى مادية لأنها لا تحقق أى تجاوز لسطح المادة، مثل الإيمان بوجود الأطباق الطائرة أو بالأبراج الفلكية التى تحدد مصير الإنسان. وتتميز هذه الميتافيزيقا اللذيذة بأنها لا تحمل أى أعباء أخلاقية، فالإيمان بها لا يضطر المرء إلى تبنى معايير أخلاقية معينة يضبط بها سلوكه. وقد وجد الإنسان الغربى ضالته فى الهولوكوست، فحولها إلى أيقونة، يتعبد فيها ويقدسها، ويعتذر عن المذبحة دون أن يكلفه هذا شيئا.

ولا يمكن بطبيعة حال إنكار أهمية البُعد الصهيونى للاستجابة الغربية الهستيرية. فمما لا شك فيه أنه يوجد قدر كبير من الضغط الذى تمارسه المؤسسات اليهودية والصهيونية للإبقاء على الوضع المعرفى والمعلوماتى القائم، الذى يُحقق لها فوائد جمّة. كما أن هناك الآلاف من أعضاء الجماعات اليهودية ممن تقاضوا التعويضات الألمانية عما لحق بهم من أذى وممن لا يزالون يطالبون بها، وهؤلاء أيضاً أصبحوا جزءاً من «جماعة مصالح»، تحولت إلى جماعة ضغط. وليس من صالح هؤلاء كشف حقيقة ما حدث. وبالتدريج أصبح الخطاب الصهيونى يستند بشكل شبه كامل إلى الإبادة النازية، وأصبحت الشرعية الصهيونية ذاتها تستند إلى حادث الإبادة. والشرعية عادةً لا تستند إلا إلى مطلقات، لا يمكن إخضاعها للتساؤل.

ستة ملايين

صدر فى أواخر عام ٢٠٠٥ قرار من الأمم المتحدة بتحويل ذكرى الهولوكوست، بأن يكون يوم ٢٧ يناير ذكرى للهولوكوست تحتفل به كل الدول والشعوب، وبذلك أصبحت قانونا واجب التنفيذ الآن على مستوى العالم. وهذا فى تصورى مسألة كوميدية. فحينما سألنى صحفى أمريكى عن رأيى فى هذا القرار، وهل سيحيى العرب ذكرى هذا اليوم، أجبته بأنه من الواجب أن نفعل ذلك. فالضحايا اليهود بشر وهذا الهجوم على الإنسان وتدميره لأسباب عنصرية ومادية أمر لا يقبله الإسلام. ولهذا السبب يجب أن نحيى ذكرى كل الضحايا بأن نضع الهولوكوست فى إطارها الإنسانى العام، بمعنى يجب أن نحيى أيضا وفى نفس اليوم ذكرى إبادة الهنود الحمر والسود وشعب الكونغو واستشهاد المليون شهيد فى الجزائر، وفى فيتنام ثم فى الشيشان وفى كوسوفو وفلسطين.

ويلاحظ أن الحضارة الغربية حولت رقم الستة ملايين هو الآخر إلى أيقونة لا يجب التشكيك فيها. سألنى صحفى فرنسى مرة عن مسألة الستة ملايين هذه، وهل أوافق على صحة الرقم؟ فأجبته بالنفى. فسألنى بحزم بالغ: «لم»؟ فأجبته: «لأننى أعتقد أنهم ثمانية ملايين»! فصدم، فقلت له لابد من الإحصاء الدقيق، فهل حسبنا عدد اليهود الذين قضوا بسبب الأوبئة والمجاعات وضحايا الغارات إبان الحرب العالمية الثانية، لعلنا لو أحصينا هؤلاء لبلغ العدد ثمانية ملايين أو ربما لتراجع الرقم. ولكن الغرب يحجم عن مثل هذا لأن رقم ستة ملايين قد أصبح رقما أسطوريا. أعتقد أنه يجب أن نميز بين عدد الذين قضوا فى أفران الغاز وعدد الذين اختفوا لأسباب لا علاقة لها بأفران الغاز. فيمكن أن نشير إلى من اختفوا بسبب الزواج المختلط والتنصر اللذين وصلت نسبتهما فى برلين قبل الحرب العالمية الثانية نحو ٦٠٪. كما أن الإحجام عن الزواج والإنجاب (الذى تتزايد نسبته أثناء الحروب) ساهم هو الآخر فى تناقص عدد اليهود. والمعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا أساسا سكان مدن، وسكان المدن يتناقص عددهم عبر التاريخ. وقد تركز يهود ألمانيا فى برلين بالدرجة الأولى، وفى بعض المدن الأخرى. وقد حدث أن كثيرا من اليهود حصلوا على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية ليتمكنوا من الفرار إلى أمريكا اللاتينية وغيرها من الدول. وقد شاء كثيرون منهم ألا يعلنوا عن هويتهم اليهودية بعد الحرب. عدد اليهود إذن كان يتناقص بسبب الإبادة وبسبب العوامل الأخرى التى أوردناها. وبالتالى فإن عدد الذين اختفوا قد يكون ٦ ملايين وربما أكثر، المهم أن نقوم بعملية إحصائية دقيقة. وما كنت أفعله هنا أننى أطلب أن نفتح باب الاجتهاد مرة أخرى، ولا نقبل الأرقام الشائعة وكأنها حقائق مطلقة ونهائية. علينا أن ننظر فى طريقة الإحصاء نفسها، حتى نقرر بطريقة علمية ما إذا كان رقم ستة ملايين يضم هؤلاء الذين قضوا أو اختفوا لأسباب طبيعية أو غير طبيعية أخرى غير أفران الغاز.

ومن المعروف أن بعض المؤرخين والعلماء اليهود والإسرائيليين لا يؤيدون مسألة الستة ملايين، ولكن الإعلام لا ينشر أخبار مثل هؤلاء. فى مقال كتبه بيتر ستاينفلس بعنوان «مراجعة أوشفتس: حالة عالم إسرائيلى» نشر فى ١٢ نوفمبر ١٩٨٩ فى جريدة النيويورك تايمز، يشير الكاتب إلى نقش حجرى فى أوشفتس جاء فيه أن «أربعة ملايين شخص ماتوا فى معسكرات النازى»، وهى عبارة تكرر ذكرها حتى تحولت إلى مايشبه «حقيقة إحصائية» صلبة فى وجدان الكثيرين. ولكن يهودا باور، أحد أشهر مؤرخى الهولوكوست ومدير قسم دراسات الهولوكوست بمعهد اليهودية المعاصرة بالجامعة العبرية فى القدس، يقول إن عدد الضحايا أقل من نصف هذا الرقم. فرقم الأربعة ملايين، مضافا إليه عدد الضحايا فى أماكن أخرى، ينتج فى مجموعه النهائى عددا أكبر بكثير من الملايين الستة. فمن المعروف أن أكبر الأرقام التى تم نشرها تقدر العدد بـ ٢.٥ مليون يهودى، و ١.٥ مليون ضحية أخرى، يفترض أن معظمهم من البولنديين. وقد نشر يهودا باور مقالا بجريدة جيروساليم بوست فى نهاية شهر سبتمبر ١٩٨٩ وصف فيه هذه الأرقام بأنها زائفة بشكل واضح. ويتفق يزرائيل جوتمان، العالم الإسرائيلى، مع يهودا باور فى هجومه على الإحصائيات المتداولة. وللعلم جوتمان، زميل باور فى الجامعة العبرية، قاد حركة المقاومة السرية فى معسكر أوشفتش، وصاحب موسوعة من أربعة أجزاء عن الهولوكوست. وقد بين باور أن المؤرخ اليهودى الفرنسى جورج ويلرز قدر عدد الذين لقوا حتفهم خنقا بالغاز أو بطرق أخرى أو تم تعذيبهم حتى الموت أو كانوا ضحايا لمجاعات أو أمراض بمعسكر أوشفيتز بـ ١.٦ مليون. وحسب هذه التقديرات، فإن ١.٣٥ مليون منهم كانوا من اليهود. ٨٣٠٠٠ بولندى، و٢٠٠٠٠ من الغجر، و١٢٠٠٠ سجين حرب سوفيتى. بالإضافة إلى ١٥٠٠٠٠ بولندى تم حبسهم فى معسكر أوشفيتس، ثم تم نقلهم إلى أماكن أخرى، حيث لقى كثير منهم - وليس معظمهم - حتفهم.

يوجد قدر كبير من الضغط الذى تمارسه المؤسسات اليهودية والصهيونية للإبقاء على الوضع المعرفى والمعلوماتى القائم، الذى يُحقق لها فوائد جمّة

أصبح الخطاب الصهيونى يستند إلى الإبادة النازية، وأصبحت الشرعية الصهيونية تستند إلى حادث الإبادة

بيزنس الهولوكوست

ويرى ايلان ستاينبرج، المدير التنفيذى للمؤتمر اليهودى العالمى، أن الإحصائيات المبالغ فيها تم تكرارها، مما أدى إلى تقبل كثير من اليهود لها على الرغم من أن كبار العلماء لا يوافقون عليها. كما يؤكد يهودا باور أن مؤرخى الهولوكوست قد نبذوا الأرقام المتضخمة منذ سنوات طويلة، إلا أن ذلك لم يعلن للجماهير، وأنه آن الأوان للإعلان عن ذلك.

مصطلحات الهولوكوست

وقد ظهر مؤخراً مصطلح «صناعة الهولوكوست»، وهو ليس جديداً تماماً. فهناك أسرة من المصطلحات تشبهه فى كثير من النواحى فهناك مصطلح هولوكيتش Holokitch، والكيتش هو العمل الفنى الردىء الرخيص السوقى، ومصطلح هولوكوست بيزنيس holocaust business، أى «تجارة الهولوكوست»، وهناك أيضا هولوكاش holocash، أى الهولوكوست باعتبارها مصدرا للربح. أما مصطلح «صناعة الهولوكوست» فقد ظهر حين كتب نورمان فنكلشتاين كتابا بعنوان صناعة الهولوكست: تأملات فى استغلال المعاناة اليهودية بمثابة احتجاج موثق بالأدلة والبراهين على توظيف موضوع الهولوكوست وتحويله إلى صناعة ترمى إلى خدمة المصالح السياسية للنخبة من اليهود الأمريكيين، والتى تتوافق مع مصالح السياسة الخارجية للحكومة الأمريكية.

ويلاحظ فنكلشتاين أنه مع نمو صناعة الهولوكوست، أخذ المنتفعون من هذه الصناعة يتلاعبون فى أرقام الناجين، وذلك بغرض المطالبة بمزيد من التعويضات، وبدأ الكثيرون يتقمصون دور الضحية. ويعلق على ذلك ساخراً «لا أبالغ إذا قلت أن واحداً من كل ثلاثة يهود ممن تراهم فى شوارع نيويورك سيدعى بأنه من الناجين من المحرقة. فمنذ عام ١٩٩٣، ادعى القائمون على هذه «الصناعة» أن ١٠ آلاف ممن نجوا من الهولوكوست يموتون كل شهر، وهو أمر مستحيل كما يبدو، لأنه يعنى أن هناك ثمانية ملايين شخص نجوا من الهولوكوست فى عام ١٩٤٥ وظلوا على قيد الحياة، بينما تؤكد الوثائق أن كل اليهود الذين كانوا يعيشون على الأراضى الأوروبية التى احتلها النازيون عند نشوب الحرب لا يزيد على سبعة ملايين فقط». ولكن وفقاً للحسابات الرياضية البسيطة، كما يقول فنكلشتاين، يتبين أن هذا التلاعب يؤدى فى واقع الأمر إلى تقليل عدد الضحايا الذين يقال إنهم أبيدوا: وهكذا ينتهى الأمر برقم الستة ملايين إلى أن يصبح من الصعب التمسك به أو الدفاع عنه. ويعلق فنكلشتاين على هذا الأمر ساخراً فيقول: «إن القائمين على صناعة الهولوكوست يتحولون تدريجياً إلى منكرين للإبادة».

ولا يقف الأمر عند حدود التلاعب بالأرقام بل يتجاوز ذلك إلى التلاعب بالحقائق نفسها. فيلاحظ فنكلشتاين أن «متحف إحياء ذكرى الإبادة النازية، فى واشنطن، على سبيل المثال، «يتغاضى عن أثر السياسة التمييزية التى اتبعتها الولايات المتحدة بتحديد أعداد المهاجرين اليهود إليها قبل الحرب، بينما يبالغ فى دور الولايات المتحدة فى تحرير معسكرات الاعتقال النازية، ولا ينبس ببنت شفة عن إقدام الولايات المتحدة على تجنيد أعداد كبيرة من مجرمى الحرب النازيين فى نهاية الحرب». كما يشير فنكلشتاين إلى أن المتحف يمر مرور الكرام على موضوع المذابح الجماعية التى ارتكبها النظام النازى فى حق الغجر والسلافيين والمعاقين فضلاً عن المعارضين السياسيين. ويخصص الكاتب جزءاً كبيراً من كتابه لمسألة الأموال المجمدة من الحقبة النازية فى المصارف السويسرية، ويتساءل عن الأموال المماثلة فى المصارف الأمريكية، والتى لا يشير إليها أحد من قريب أو بعيد. وقد يتساءل المرء، على ضوء الشواهد المتوفرة، عما إذا كانت الولايات المتحدة تستخدم المنظمات اليهودية، من خلال مسألة الأموال المجمدة فى المصارف الأوروبية، من أجل زيادة الضغوط على البلدان الأوروبية لإجبارها على الوقوف إلى جانب الدولة الصهيونية.

إنكار الهولوكوست

ولننتقل الآن إلى قضية إنكار الهولوكوست، فليس لدينا الأدوات البحثية لإثباتها أو إنكارها، ولذا أرى أهمية الدعوة لإقامة مؤتمر علمى عالمى لبحث القضية، مع التحفظ التالى أننا ندرس واقعة تاريخية، جزء من التاريخ الأوروبى، ولا علاقة لها بالصراع العربى الإسرائيلى. مع الأسف بعض العرب يتصور أن ذبح اليهود على يد النازيين فى مصلحة العرب، وهذا غباء ما بعده غباء. يجب أن يعرف العرب أن المواطن اليهودى الذى يضطهد فى بلاده ويضطر للفرار منها، يتحول إلى مستوطن فى بلادنا يحمل السلاح ضدنا. كما لا يدرك البعض أن من يدعو لإبادة اليهود لأنهم يهود يتبنى رؤية مادية نفعية ويتخلى عن المرجعية النهائية الإسلامية، وهى فى نهاية الأمر دعوة للفتنة الطائفية فمن يقتل يهوديا لأنه يهودى سيقتل غدا مسيحيا لأنه مسيحى، ومسلماً لأنه شيعى أو سنى والآخر لأنه آخر لا يشبهه ومختلف عنه. إن من واجب العرب أن يدافعوا عن حقوق أعضاء الجماعات اليهودية الدينية والسياسية والمدنية فى بلادهم، وهذا بطبيعة الحال ما لا ترغب فيه الصهيونية، أو الدول الغربية التى تريد أن تزود إسرائيل بالمادة الاستيطانية القتالية!

أما بالنسبة للإعلام الغربى فأنا عادة ما أؤكد أنه كى يصدق العالم قضية الهولوكوست فلابد من إثباتها علميا، بدلا من استصدار قوانين غامضة تجرم كل من ينكر الهولوكوست كليا أو جزئيا. ماذا تعنى هذه العبارة؟ «كليا» قد تعنى رقم ستة ملايين، ولكن «جزئيا» كلمة فى غاية الغموض. كان من المفروض أن يجرم القرار كل من ينكر الهولوكوست إن لم يأت بسند علمى تاريخى، وبالتالى تتحول القضية من صراع إعلامى يوظف بطريقة سياسية رخيصة إلى حوار علمى رصين. كما يجب الإشارة إلى أنه بدلا من إنكار الهولوكوست أو التمسك بالرقم ستة ملايين لابد من دراسة وثائق وزارة الخارجية الألمانية إبان حكم النازى ومحاكمات نورمبرج وكلها تؤكد أن الهولوكوست قد حدثت بالفعل، كما أنها كشفت عن حقائق يحرص الإعلام الغربى على إخفائها، فهذه الوثائق تبين مدى تعاون الصهاينة مع النازيين ومدى عدم اكتراث يهود الولايات المتحدة بما كان يحدث فى ألمانيا النازية. لقد فتح تحقيق فى هذه القضية تحت إشراف سفير الولايات المتحدة فى هيئة الأمم فى السبعينيات آرثر جولد برج، وهو أمريكى يهودى، ثم أغلق فجأة لأن نتائجه كما قالوا كانت ستسبب كثيرا من الألم. لمن؟ ولم؟ هل كانت ستبين حقيقة موقف الجماعة اليهودية مما كان يحدث فى ألمانيا النازية، وأن قوات الحلفاء رفضت مد يد العون لضحايا الإبادة، فأيزنهاور، قائد القوات الأمريكية، رفض أن تقوم الطائرات الأمريكية بضرب قضبان السكك الحديدية التى كانت تجرى عليها القطارات التى تنقل ضحايا اليهود إلى أوشفتز لأنه وجد أن فى ذلك تبديدا للمجهود الحربى، وأن الولايات المتحدة رفضت فتح أبوابها أمام المهاجرين اليهود من ألمانيا، وأن الصهاينة قد وقفوا ضد التهجير إلى أى مكان خارج فلسطين، كما حدث فى مؤتمر ايفيان. وما أفعله هنا أننى أقبل الأطروحة الغربية ولكنى أوسع من نطاقها وأضيف عناصر يحرصون على استبعادها، وهم يفعلون ذلك حتى تصبح الصورة إما أبيض أو أسود، ومن ثم يسهل توظيفها.

التعاون بين النازيين والصهاينة

الغرب الذى أفرز النازية هو ذاته الذى أفرز الصهيونية. كلتاهما حركة عنصرية إبادية، تضرب بجذورها فى الفكر العنصرى الإمبريالى، الذى وُلد فى القرن التاسع عشر ونما وترعرع فى أوائل القرن العشرين. ويجب أن نتذكر أن الآباء الأُول للصهيونية، مثل هرتزل، كانوا ألماناً ذوى توجه ألمانى قوى يكنون كثيرا من الإعجاب للعسكرية الألمانية، بل إن فى المراحل الأولى كان التصور أن الجيب الصهيونى سيكون محمية ألمانية، «فألمانيا العظيمة ستأخذ اليهود تحت أجنحتها»، على حد قول هرتزل. أما زميله ماكس نوردو على سبيل المثال فقد غير اسمه من سيمون ماكسيميليان سودفيلد إلى نوردو إعجاباً منه بالجنس النوردى! لا غرو إذاً أننا نجد أمثلة كثيرة على التلاقى شبه الكامل بين النازية والصهيونية.

فعلى سبيل المثال لا الحصر أسس أحد أتباع جابوتنسكى ما يسمى «عصبة الأشداء» (أى الأقوياء) (بالعبرية: بريت هابريونيم)، وهى جماعة ذات طابع نازى واضح. وكان من بين هتافات أعضاء العصبة «ألمانيا لهتلر، وإيطاليا لموسولينى، وفلسطين لجابوتنسكى». وقد يقال إن هذا شكل من أشكال التطرف الذى لا يعبر عن التيار الأساسى داخل الحركة الصهيونية، فماذا عن التيار الأساسى فى الحركة الصهيونية؟ لدينا من الوثائق ما يدل على أن التيار الأساسى فى الحركة الصهيونية آنذاك كان هو الآخر نازى الهوى. ففى ٢١ يونيو/ حزيران ١٩٣٣، أى بعد وصول النازيين إلى السلطة، أصدرت المنظمة الصهيونية فى ألمانيا «إعلان الاتحاد الصهيونى بشأن وضع اليهود فى دولة ألمانيا الجديدة» Ausserung der Zionistischen Vereinigung fur Deutschland zur Stellung der Juden im Neuen Deutschen Staat. والذى حدد طبيعة علاقة الصهاينة بالنظام النازى بشكل واضح لا إبهام فيه. وقد اتخذ الإعلان شكل مذكرة أُرسلت مباشرةً إلى الحزب النازى وهتلر وتم من خلالها تحديد المقولات المشتركة بين النازيين والصهاينة. فقد بدأت المذكرة/الإعلان بتأكيد إمكانية التوصل إلى حل يتفق مع المبادئ الأساسية للدولة الألمانية الجديدة، دولة البعث القومى، ثم طرحت أمام اليهود طريقة جديدة لتنظيم وجودهم. وانتقلت المذكرة بعد ذلك لعرض إطارها السوسيولوجى، فقامت بانتقاد الشخصية اليهودية التى تتسم بالكسل، وبيّنت أن صعوبة وضع اليهود تنبع من شذوذ النمط الوظيفى الذى يتبعونه، ومن الخلل الكامن فى كونهم جماعة تتخذ مواقف فكرية أخلاقية غير متجذرة فى تقاليدهم الحضارية الخاصة (أى أنهم قومية عضوية توجد خارج أرضها). وبعد أن تبنت المذكرة هذا النقد النازى

قال أحد المعلقين إنه إذا كان هرتزل هو ماركس الدولة اليهودية، فإن هتلر هو لينين بالنسبة لها

بيزنس الهولوكوست

لليهود انتقلت لإيضاح نقط الالتقاء الفلسفية والنظرية بين الصهيونية والنازية، فأكدت أن الصهيونية مثل النازية تمزج الدين بالقومية، فالأصل والدين ووحدة المصير والوعى الجمعى يجب أن تكون كلها ذات دلالة حاسمة فى صياغة حياة اليهود. وتؤكد المذكرة أن المنظمة تقبل مبدأ العرق، أحد ثوابت الرؤية النازية، كأساس لتصنيف الأفراد والجماعات المختلفة ولإنشاء علاقة واضحة مع الشعب الألمانى وحقائقه القومية والعرقية. كما تقوم المذكرة بتعريف اليهود تعريفاً عرقياً، مبينة أن هدف الصهيونية هو التصدى للزيجات المختلطة والحفاظ على نقاء الجماعة اليهودية.

هذا هو الإطار الفلسفى الذى اقترحته المنظمة الصهيونية لتحديد العلاقة بين الصهاينة والنظام النازى، مؤكدةً على إمكان تحويله إلى ممارسة وإجراءات. وقد طرحت المنظمة الصهيونية نفسها باعتبارها الحركة الوحيدة القادرة على أن تأتى بحل للمسألة اليهودية يحوز رضا الدولة النازية الجديدة ويتفق مع خططها، حل يهدف إلى بعث اليهود من الناحية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية فى إطار فكرة الشعب العضوى ويتبع النموذج النازى. ثم يمضى البيان موضحاً الهدف الصهيونى بجلاء فيقول: «على تربة الدولة الجديدة، ألمانيا النازية، نريد أن نعيد صياغة بنية جماعتنا بأكملها بطريقة تفيد ألمانيا واليهود فى المجال المخصص لهم، فهدف الصهيونية هو تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين».

وكانت استجابة النظام النازى إيجابية، فقام بتشجيع النشاط الصهيونى ودعم المؤسسات الصهيونية والسماح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها من تعليم وتدريب على الاستيطان فضلاً عن نشر مجلاتها، بينما مُنع الداعون إلى اندماج اليهود فى مجتمعاتهم وكذلك اليهود الأرثوذكس من إلقاء الخطب أو الإدلاء بتصريحات أو جمع التبرعات أو مزاولة أى نشاط آخر.

ولم يقف الأمر عند حدود التسامح مع نشاط المنظمات الصهيونية، بل تجاوز ذلك إلى التنسيق والتعاون فى عمليات إفراغ ألمانيا من اليهود. ولعل اتفاقية الهعفراه بين المنظمة الصهيونية والنظام النازى، والتى تم بموجبها نقل آلاف اليهود إلى فلسطين، هى خير دليل عملى على مدى التعاون بين الصهاينة والنازيين ومدى التطابق بين أهداف الطرفين.

هعفراه ونوسيج وكاستنر

«هعفراه» كلمة عبرية تعنى «النقل» أو «الترانسفير»، وهو اسم معاهدة وقعها المستوطنون الصهاينة مع النازيين. وقد كان الصهاينة الاستيطانيون فى الثلاثينيات يبحثون عن وسائل لدعم المستوطن الصهيونى وحماية مصالحهم بأية طريقة، ومن ذلك التعاون مع النظام النازى، بينما كان صهاينة الخارج التوطينيون وقادة الجماعات اليهودية مشغولين بعمليات إنقاذ يهود ألمانيا، وضمنها تنظيم مقاطعة اقتصادية ضد هذا النظام. وفى إطار التعاون بين النازيين والصهاينة تم توقيع اتفاقية الهعفراة عام ١٩٣٣ التى كانت تقضى بأن تسمح السلطات الألمانية لليهود الذين يقررون الهجرة من ألمانيا إلى فلسطين بـ «نقل» جزء من أموالهم إلى هناك رغم القيود التى فرضتها ألمانيا على تداول العملة الصعبة. وكان ذلك يتم بتمكين أولئك اليهود من إيداع المبلغ المسموح بتحويله (ألف جنيه إسترلينى) فى حساب مغلق يفتح فى بنك واسرمان فى برلين وبنك ووربورج فى هامبورج ثم يسمح باستعمال هذا المبلغ لشراء تجهيزات وآلات زراعية مختلفة من ألمانيا، يتم تصديرها إلى فلسطين. وهناك تقوم الشركة ببيع هذه البضائع وتسدد بأثمانها المبالغ المستحقة لمودعيها بعد وصولهم كمهاجرين إلى فلسطين، وتحتفظ بالفرق كعمولة أو ربح لها. وقد تم تعديل الاتفاقية بحيث أصبح فى مقدور اليهود الألمان الذين لا ينوون الهجرة مباشرةً، ويريدون مع هذا تأسيس بيت فى فلسطين والمساهمة فى تطويرها، أن يستعملوا الحساب المغلق وأن يودعوا أموالهم فيه شرط ألا يزيد المبلغ الإجمالى على ثلاثة ملايين مارك تستعمل لشراء بضائع ألمانية أياً كان نوعها.

وقد حققت اتفاقية الهعفراه نجاحاً باهراً من وجهة نظر النازيين والصهاينة، فقد نجح النازيون فى تصديع أسس المقاطعة اليهودية لألمانيا دون أن يضطروا إلى إجراء أى تعديل فى سياستهم تجاه اليهود. وأما بالنسبة إلى المستوطنين، فإن فترة الهعفراه تُعد أهم فترة فى تاريخ المُستوطن إذ تم تزويده بعدد كبير من أعضاء المادة البشرية المطلوبة وبرأس المال اللازم للبنية التحتية. وقد ذكر ناحوم جولدمان فى مذكراته أنه حينما قابل رئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٥، اتهم الرئيس الصهاينة برفضهم الاشتراك فى المحاولات الرامية إلى مقاطعة هتلر، بل تخريبها بإبرامهم اتفاقية الهعفراه. وكان تعليق جولدمان الوحيد على ذلك أنه شعر حينذاك بالبؤس والخجل إلى درجة لم يشعر بها من قبل، وأن رئيس الوزراء كان على حق فيما يقول. وكما قال أحد المعلقين إنه إذا كان هرتزل هو ماركس الدولة اليهودية، فإن هتلر هو لنين بالنسبة لها، أى أنه هو الذى حول النظرية الصهيونية إلى واقع مادى. ومما يجدر ذكره أن اتفاقية الهعفراه ظلت سارية المفعول حتى عام ١٩٣٩ مع نشوب الحرب العالمية الثانية، ثم توقف العمل بموجبها ولكن دون أن تُلغى رسمياً.

وهناك بعض الحالات الفريدة، ولكنها ممثلة، مثل حالة الفريد نوسيج الفنان الصهيونى وعالم الديموجرافيا، وهو من الآباء الصهاينة الأوائل. حضر نوسيج المؤتمر الصهيونى الأول وساهم فى تنظيمه. وقد حاول نوسيج شأنه شأن كثير من الصهاينة حل المشكلة اليهودية بنقل اليهود خارج أوروبا. فأسس عام ١٩٠٨ منظمة استيطانية تُسمى إيكو AIKO للتعجيل بنقل اليهود. ولكنه أخفق على ما يبدو فى محاولة نقل اليهود على الطريقة البلفورية، فقرر نقلهم على الطريقة النازية (أى الإبادة)، فاتجه إلى التعاون مع النازيين، فعمل كمخبر للسلطات النازية إبان الحرب العالمية الثانية، وعينه تشيرنياكوف، رئيس مجلس اليهود فى وارسو إبان حكم النازى، عضواً فى المجلس ورئيساً لقسم الفنون. ونظراً لمعرفته الوثيقة بأعداد اليهود وتوزعهم ومراحلهم العمرية المختلفة (بسبب دراساته التى سبقت الإشارة إليها)، ونظراً لرغبته العميقة فى إفراغ أوروبا من يهودها، وضع نوسيج خطة متكاملة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء (غير النافعين) وتهجير الباقين أو إبادتهم. وقد اكتشف أعضاء المقاومة اليهودية فى جيتو وارسو تعاونه مع النازى وأنه عضو فى الجستابو، فحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونُفذ الحكم فى ٢٢ فبراير/شباط ١٩٤٣. وقد اختفى نوسيج تماماً من الأدبيات الصهيونية والغربية، لأنه يُعد نموذجاً جلياً يفضح المشروع الصهيونى باعتباره مشروعاً ينبع من كُره عميق لليهود ورغبةً فى التخلص منهم.

ثم هناك رودولف كاستنر، أحد زعماء الحركة الصهيونية فى المجر، والذى ترأس عدداً من المنظمات الشبابية الصهيونية، وراس تحرير مجلة «اوج كيليت» Uj Kelet (أى «الشرق الجديد»)، وكان نائب رئيس المنظمة الصهيونية فى المجر، ثم أصبح مسئولاً عن «إنقاذ» المهاجرين اليهود من بولندا وتشيكوسلوفاكيا، إذ كان يشغل منصب رئيس لجنة الإغاثة فى بودابست التابعة للوكالة اليهودية. ولكنه بدلاً من «إنقاذ» اليهود تعاون مع المخابرات المجرية والنازية (التى كان لها عملاء يعملون داخل المجر، حتى قبل احتلال القوات الألمانية لها)، ثم استمر فى التعاون مع النازيين بعد احتلالهم للمجر. وتشير بعض الدراسات إلى أن أيخمان حضر إلى المجر ومعه ١٥٠ موظفاً وحسب، وكان يتبعه عدة آلاف من الجنود المجريين، هذا بينما كان عدد يهود المجر يزيد على ٨٠٠ ألف، وهو ما يعنى استحالة ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) إن قرروا المقاومة. ومع هذا نجح أيخمان فى مهمته بفضل تعاون كاستنر معه، إذ يبدو أن كاستنر أقنع أعضاء الجماعة اليهودية فى المجر بأن النازيين سيقومون بنقلهم إلى أماكن جديدة يستقرون فيها أو إلى معسكرات تدريب مهنى لإعادة تأهيلهم وليس إلى معسكرات الاعتقال، فلم يظهروا أية مقاومة لعملية النقل هذه وتعاونت الضحية مع القاتل. وقد وافق كاستنر على أن يتولى تهدئة اليهود فى مقابل أن تسمح السلطات النازية بإرسال بعض الشباب اليهود إلى فلسطين بدلاً من إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال والإبادة («يهود من أفضل المواد البيولوجية»، على حد قول أيخمان).

واستقر كاستنر فى فلسطين بعد الحرب عام ١٩٤٦، وانضم إلى قيادة الماباى ورُشح للكنيست الأول. وانتقلت معه مجلة أوج كيليت، وأصبح رئيساً لتحريرها، بل كان يعد مسئولاً عن شئون يهود المجر (أو من تبقى منهم) فى الحزب الحاكم.

ولكن فى عام ١٩٥٢ أرسل المواطن الإسرائيلى مايكل جرينوولد كتيباً لبعض القيادات الصهيونية اتهم فيه كاستنر بالتعاون مع النازيين، وبالدفاع عن أحد ضباط القوات النازية الخاصة (الإس. إس.) أثناء محاكمات نورمبرج مما أدى إلى تبرئته وإطلاق سراحه. وقد بذل الحزب الحاكم فى إسرائيل جهوداً مضنية لإنقاذ كاستنر ونفى التهم عنه.

إلا أن المحكمة الإسرائيلية قضت بأن معظم ما جاء فى كتيب جرينوولد يتطابق مع الواقع. وبعد إشكالات قضائية كثيرة، حسمت المسألة (لحسن حظ الحزب الحاكم) حينما أطلق «أحدهم» الرصاص على كاستنر وهو يسير فى الشارع، وذلك رغم ورود تحذيرات لسلطات الأمن الإسرائيلية عن وجود مؤامرة لاغتيال كاستنر، بل كانت السلطات تعرف موعد تنفيذ المؤامرة. وقد سجل موشيه شاريت، رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك، هذه الكلمات فى مذكراته: «كاستنر. كابوس مرعب. حزب الماباى يختنق. بوجروم». ويشير أحد الصهاينة المتورطين فى التعاون مع النازيين إلى أن «رجال السياسة الذين يتسمون بالحذر، كانوا لا يعرفون ماذا سيفعلون مع هذا الرجل بعد محاكمته.. وكانوا يفكرون فى «إسكاته».

والله أعلم. ■

مــن نحــن؟؟

Israeli extremists take revenge on Palestinians



By Nasser Shiyoukhi, AP

Hatred in the market: Samar Abdul-Shafti, 36, a Palestinian mother of two, was kicked by an Israeli boy as an Israeli girl tried to rip off her Islamic headscarf last month in the divided West Bank city of Hebron.

Vigilantes take up arms, vow to expel 'Muslim filth'

... والحب والكراهية

أفراهام بورج

كان كل شيء في حياته يؤهله لأن يكون أنموذجا للسياسي الإسرائيلي الأمثل، كان نجمه ساطعا ، ومستقبله السياسي واعدا ، والطريق ناعما معبدا . لولا ما ألم به من علة مفاجئة. لعل من أهم أعراضها صحوة العقل واستيقاظ الضمير. فترك الساحة وقفل عائدا ضد التيار. فعلى الرغم من «الكيباء» التي يعتمرها، واقتباساته المتكررة من التوراة والتلمود، يبدو أفراهام بورج وكأنه «يغرد» خارج السرب الإسرائيلي. وفي كتابه الجديد«هزيمة هتلر»الذي سبب صدمة في إسرائيل لدى صدوره في أغسطس ٢٠٠٧، يشن الرئيس الأسبق للكنيست الإسرائيلي هجوما على الصهيونية، ويشبه الهياكل الحالية للدولة العبرية بتلك التي سادت في ألمانيا قبل النازية ، ويأسف لاستمراء الذهنية الإسرائيلية لوضعية الضحية، التي تسوّغ لنفسها التوغل الاستيطاني، والتغوّل العسكري، والتوجه العنصري.. الكتاب الجديد يوصّف حالة من البارانويا المجتمعية الصارخة، التي أدت الى استشراء العنف، والتي يلخصها أفراهام بورج بقوله : «إن أكوام جثث القتلى الفلسطينيين صارت أعلى من الجدار العازل الذي ابتيناه ليحجبهم عنا..»[1] و بمناسبة صدور الترجمة الفرنسية للكتاب في ٥ مارس٢٠٠٨ عن دار نشر فايار، سافر رئيس تحرير مجلة «لير » الفرنسية إلى تل أبيب[2]، ليقابل الكاتب الذي راح يصف وطنا يقف على أعتاب الصهيو نازية.. بالتصريح تارة وبتلميح استدعته حساسية المقاربة تارات.

«وجهات نظر» لم تكتف «بالنص المنشور في المجلة الفرنسية، بل عادت «إلى ناشرالكتاب «الطبعة الفرنسية» لتستأذنه في نشر «نص» فقرات كاملة من كلام «الرئيس الأسبق للكنيست الإسرائيلي.

المترجمة

«للتمكن من وضع إسرائيل رهن المقارنة مع الدول الأخرى، يجدر أولا إبرازُ بعضٍ من خصائصها. فما من بلد آخر في العالم كله يسعه الافتخار بأنه يتمتع بهذا القدر من حرية التعبير المطلقة التي نتمتع نحن بها. ولنُذكّر، على سبيل المثال، بأن بريطانيا كانت قد فرضت،في عقد الثمانينيات، رقابة مشددة إبان حربها الحمقاء في جزر فوكلاند، وبأن اليوم، في أمريكا بوش، تمتنع الصحافة عن نشر اية إعلانات وفيات أو صور لأي من آلاف الجنود الذين قضوا نحبهم في حرب العراق. أما في اسرائيلنا نحن، فما من حدود تقف عندها فيوض التعبير. ما من حدود جغرافية، وما من حدود على مستوى الانضباط الداخلي أو النظام العام. هنا، نكفل لأنفسنا الحق في قول كل شيء واي شيء، كأن نحرض على قتل رئيس الوزراء، من دون أن يستتبع ذلك أي رد فعل رسمي؛ أو أن تغطي حوائط كاملة بكتابات عنصرية من قبيل «الموت للعرب»، و«نهاية العرب نهاية للإرهاب»، من دون أن تُقدِمَ سلطة بلدية، أو الشرطة، أو اية جهة منوطة بحماية المرافق العامة، على محو ذلك العار الذي ينتشر امام أعيننا... في الأحياء اليهودية الأرثوذكسية بالقدس - كما أسلفت- هناك من الصلبان المعقوفة ما يفوق عدداً كل ما قد تجده منها في جميع مقابر اليهود المنتهكة في العالم. هنا، تخطت حرية التعبير كل الحدود والسدود، وتحولت إلى فوضى لفظية، تقترب بشكل خطير من التحول الى اجتراح عتيف الفعال. البلد بأسره قد صار رهينة تحتجزها مجموعة من المستوطنين الملوّحين بشبح الحرب الأهلية، وبخطر المقاومة السلبية، مما يؤدي إلى إعادة النظر في شرعية الدولة وفي إرادة الأغلبية. كل ذلك تحت مسمى حرية التعبير والمشاركة.

فإن كان ذلك هو الحال، فما هو الرابط الذي يشد أواصر مختلف مكونات المجتمع الإسرائيلي؟ والإجابة هي ببساطة: الحرب. فكم من المرات التي أسعدنا فيها الحظ بوجود العرب في مواجهتنا، فمن دون العرب لكنا قد تقاتلنا فيما بيننا منذ زمن طويل. ولو كان في أعدائنا شيء من الذكاء لكانوا ألقوا أسلحتهم، و«صنعوا من سيوفهم محاريث ومن رماحهم مناجل للحصاد»(كما جاء في سفر أشعيا)، وراحوا يتجملون بالصبر ويركنون الى الانتظار.. حتى ننتهي نحن من إنجاز المهام القذرة بأيدينا. ها نحن ندين الحرب باستخدام عبارات مستوحاة من يعقوب بينما نشهر بأيدينا سيف أخيه«عيسو»[3] ذا الحدين الحديدين، لنتوحد معا داخل شرنقة العداء والضغينة المحيطة بنا.

حين كنتُ في السنة النهائية بالمدرسة الثانوية، كان أستاذي في اللغة العبرية رجلا من نوع خاص بعض الشيء، وكان أن تغيب مرتين. فعلمنا فيما بعد أنه كان قد قبض عليه في المرة الأولى لمحاولته إضرام النار في كنيسة واقعة على جبل الزيتون، أما في المرة الثانية، فكان احتجازه بسبب ما قام به من تهديد رجل - غير يهودي بالطبع- باستخدام بلطة في المدينة القديمة بالقدس. ولقد تمت ملاحقته لانتمائه الى تنظيمات مهووسة وعابرة، أصبحت فيما بعد فخر اليمين الوطني.

في مراهقتي، أحببته كثيرا. إذ لم أكن قد أدركت بعد كنه معتقداته الفعلية ولا كنت قد أحسنت فهم أبعاد أفكاره. لكن مناقشاتنا معا قد أتاحت لي شحذ قيمي المغايرة. فمن محاوراتنا انبثقت الحقائق الإنسانية واليهودية الأهم التي ما زلت أؤمن بها الى اليوم. وقتها، كنت أجهل إلى أي مدى يعد هذا الرجل خطيرا، لكنني كنت أعلم انه معارض ممتاز لأرائي. كان رجلا من نوع خاص، يتميز بذكاء فوق العادة.. مازلت أذكر ابتسامته يوم راح يملي علينا سؤال اختبار التجربة: «اكتب في الموضوع التالي: «إنما هي الحروب والمآسي التي تعمل على بلورة الشعوب». وفيما هو يمر بين صفوف فصلنا المكتظة، إذا به يهمس في أذني قائلا: «هذا موضوع مصمم خصيصا من أجلك أنت».

مع مرور الوقت، تكاثر هو وأمثاله، وراح الهامش يحتل المركز، بينما راحت صفوفنا نحن تتشتت لتتم تنحيتنا جانبا قصيا. وها هو خطابهم المجنون يتهدد إسرائيل بالانفجار. ففي الاجتماعات الحكومية، نراهم اليوم يتفوهون بكلمات مثل «سنطرد»، و«سنقتل»، و«وسنجوع»، و«سنضطهد»، ولا راد ولا رادع لكلماتهم. تتعالى صرخاتهم وتتجاوب حتى على منابر الكنيست. و أصداؤها ماثلة في غزة، وفي يهودا والسامرة[4]، وفي جنوب لبنان، لتسود دوما العقلية ذاتها، والمصطلحات ذاتها، والمنطق الحتمي الشرس ذاته. وكل ما يغذي صورة إسرائيل ويهودية منفلتتي الزمام، معتديتين بقوة الذراع. لقد أصابنا الصمم من فرط ما دهمنا اللغط المعنوي الذي يروج لفكرة «دولة الضحايا» التي تعتقد بأن كل شيء مسوغ لها، بما في ذلك التضحية بالآخر. ذلك أن وضعية الضحية تعني التحلل والتحرر من كل شيء. وبما أننا مازلنا نشعر بالألم وبالأسى اللذين تجرعناهما حين كنا ضحية الأمس، ارى أنه علي ان أقرّ وأن أعترف لنفسي بأمر مخيف: ففي أثناء تحرير هذا الكتاب، أصابني الفزع إذ اكتشفت أن الهياكل الحكومية والاجتماعية والقومية الأقرب شبها لهياكلنا هي تلك التي سادت في ألمانيا الموحدة بدءا من صعود الرايخ الثاني وحتى حلول

ترجمة: د. داليا توفيق سعودي

Vaincre Hitler
Pour un judaïsme plus humaniste et universaliste
Avraham Burg
Paris, Fayard, mars 2008, 365 pp, 3 euros.
Librairie Arthème Fayard 2008 pour la traduction française

(هزيمة هتلر. من أجل يهودية أكثر إنسانية وكونية)
أفراهام بورج
باريس، فايار، مارس ٢٠٠٨ ، ٣٦٥ صفحة، ٣ يورو.
ترجمه من العبرية الى الفرنسية أوريت روزن و ريتا سابا.



زمن الفوضى والاضطراب الذي أفرز النازية. ولكي أكون أكثر دقة: حتى زمن وصول النازية الى الحكم وليس بعد ذلك. و هذا ما يقلقني الى أبعد درجة، ويشعرني بالحرج ويصيبني بالأرق.

كان أوتو إدوارد فون بيسمارك مؤسس الرايخ الثاني. ومع مطلع عام ١٨٧٠، تمكن من تحقيق الحلم الذي طالما عمل من أجله منذ ما يربو على عقدين. ففي غضون بضعة أشهر، تمكن من سحق قوات نابليون الثالث. وأسس في فرساي الامبراطورية الجرمانية الثانية، ليضع ألمانيا وشعبها على قدم المساواة مع القوى الأوروبية الأخرى: بريطانيا العظمى، وفرنسا، وروسيا، والامبراطورية النمساوية الهنجارية. و لقد رأى الكثيرون في ألمانيا، لاسيما الكثير من اليهود هناك، أن ما حققته ألمانيا من نصر واتحاد إنما يمثل خلاصا تاريخيا، أو على الأقل خلاصا دينيا ومسيحانيا. و في المقابل، ذهب الفيلسوف والمستريب الأكبر نيتشه إلى أن مثيل ذلك النصر المدوي من شأنه أن يفضي إلى دمار وإفناء أشد وطأة مما قد تجره الهزيمة العسكرية، لاسيما حين ينظر الألمان الى ذلك النصر على أنه الدليل الدامغ على تفوقهم الإنساني والثقافي على الفرنسيين المنهزمين.

ولقد تأتى للأشخاص القلائل الذين شاطروا آراء نيتشه أن يفهموا مبكراً مغزى أن يتوحد بلدهم بسلطان السيف، إذ أدركوا أن نشوة تمجيد القوة ستغطي حتما على أية محاولة جادة لإعادة إحياء قومي حقيقي أو لإصلاح مجتمع ونظام قد أصابهما الفساد والتعفن. في كتابه الرائج اللاهث وراء سرد قصة المائتي عام السابقة لوصول هتلر إلى الحكم، ذكر أموس أيلون بما ساور جوهان يعقوبي من مخاوف بشأن طبيعة الرايخ الجديد الناتج عن التحالف غير المقدس بين «العرش والكنيسة والمال». كما ذكر أيلون بنبوءة الناشر الألماني اليهودي، ليوبولد سونمان، التي تحققت فيما بعد والتي قال فيها بأن «إعادة اتحاد الأمة الألمانية سيتم على حساب الحرية». كان جوهان يعقوبي وليوبولد سونمان وغيرهما على وعي بأن دعائم الاتحاد الجديد ترتكز على تنامي سلطة الجيش الألماني. ففي معرض المقارنة بين الدولة العسكرية والدولة المدنية، يلاحظ أن الأولى تجنح الى إضفاء القدسية على قيم مشبوهة مثل الشوفينية، واللجوء الغريزي إلى القوة، وهاجس «الأمن القومي» المقدس. لا تملك الدولة ذات الطابع العسكري سبيلا آخر غير سبيل الصرامة والجمود السياسي والاجتماعي، مرتكزة في ذلك على استعداد الشعب لتقبل الأحكام المسبقة وممارسات التمييز العنصري الموجهة ضد «الآخر» أو ضد خصوم الأمة التي أعيد توحيدها. (..)

ولقد أعقب انتصار بيسمارك وعودة منطقة الألزاس لورين، إلى كنف الرايخ الثاني ألوان من الخطاب والممارسات الجائرة التي ألفناها نحن اليوم مع الأسف. ففي القرن السادس عشر، كانت تلك المنطقة خاضعة للحماية الألمانية. ولكن، مع نهاية القرن التاسع عشر، كانت الغالبية الساحقة للسكان هناك من الفرنسيين الأنقياء. وأمام البرلمان الألماني، صاح ليوبولد سونمان مستنكرا: «إنكم لن تجبروهم على أن يكونوا ألمانا بالقوة». فأجابته أقلام الصحافة الوطنية بقولها: «إن إعادة تهذيب الألزاسيين ستبدأ بواسطة السوط. إذ ينبغي أن يستشعر هؤلاء الأطفال المارقين قوة قبضتنا. وقد تأتي المحبة في أعقاب الترويض والاستئناس..» و هي عبارات تعيد في الذاكرة نغمات لحن شهير يتردد في إسرائيل، مفاده أن «العرب لا يفهمون إلا لغة القوة»...

في إسرائيل، بقيت الخدمة العسكرية- مثلما كانت دوما- المرحلة الأهم على الطريق الموصل إلى الحياة المدنية وإلى سن الرشد. وبرغم حالة من التآكل الخفي، يبقى الجيش الركيزة الأساسية لحياة المواطن الإسرائيلي ولهويته. مايزال ضباط سلاح الطيران يحظون بنفس الإعجاب، كما تعد بعض وحدات الاستخبارات والتقنية العسكرية بمثابة طريق معبد للحصول على أعلى المراكز في مجال صناعة التكنولوجيا المتطورة سواء على المستويين الوطني والعالمي. كما أن الكثير من الوظائف الكبرى في مجال الإدارة العامة وفي رئاسة البلديات يشغلها كبار قدامى الضباط بالجيش. كما أن أكثر من ربع عدد نواب حزب العمال كانوا في الأصل ما بين جنرال وكولونيل بالجيش. أما الشباب فيفضلون الخدمة في وحدات «مفيدة» لمستقبلهم المهني. وفي جميع دوائر النقاش، سواء العامة منها أو الخاصة، حين يتم طرح مبدأ الإعراض عن الخدمة العسكرية استجابة لإملاءات الضمير واحتراما لحياة الإنسان، ثمة صوت يرتفع دوما ليحذر من مغبة هذا التوجه، أو من عواقبه الوخيمة على مستقبل أصحابه المهني. فما تزال الخدمة العسكرية تفتح الكثير من الأبواب. و من شأن بعض وحدات الصفوة أن توصل مباشرة إلى رتبة رئيس أركان حرب، ومنها إلى وظيفة الوزير، فإلى منصب رئيس الوزراء. فكثير من الجنرالات ورؤساء أركان الحرب يصلون بصورة شبه آلية لأعلى المناصب في الدولة. فكل من موشى ديان واسحق رابين وايهود باراك وشاؤول موفاز- وجميعهم من قدامى القادة العسكريين- قد ارتقوا سلم المناصب السياسية بصورة طبيعية وتقلدوا وزارة الداخلية أو الدفاع أو رئاسة الوزارة. هكذا يتبدى الجيش الإسرائيلي كأرض خصبة لاستنبات رجال الدولة. ولكننا لم نكن أول من ابتدع المجتمع ذا الطابع العسكري. فلقد سبقنا إلى ذلك آخرون، في مقدمتهم الدولة الألمانية تحت قبضة المستشار الحديدي بسمارك.

ولقد قام أموس أيلون، في كتابه «قداس ألماني لراحة الموتى»، باستقصاء تطلعات الشباب الألمان في تلك الحقبة، والمكانة التي كان الجيش يتبوأها في حياتهم، فكتب:

«كان توجه هؤلاء الشباب الأذكياء في كفاحهم للانضمام إلى سلك الضباط (..)، في ذلك السياق التاريخي، بمثابة ظاهرة حقيقية. فلقد كانت ألمانيا مجتمعا ذا طابع شبه عسكري. فكانت أخيلة الحياة العسكرية تسيطر على المخيلة الوطنية. (..) كان ضباط الاحتياط يحظون بوضع خاص. و كان المدرسون والأطباء والمحامون وأساتذة الجامعات ورجال الأعمال يحرصون على ذكر رتباتهم العسكرية السابقة على كروتهم الشخصية.. كان وضع ضابط الاحتياط شرطا لا عوض عنه لمن طلب تقلد الوظائف الحكومية الكبرى..»

بالطبع، لم تكن هذه الظاهرة لتشمل جميع الألمان. فكثير من اليهود ممن كانوا مستوفين لشروط اللياقة، وللأهلية الاقتصادية والثقافية، وممن خدموا في الجيش الألماني منذ العام ١٨٨٠، لم يتمكنوا أبدا من بلوغ رتبة ضابط. و كذلك في إسرائيل، فإن العرب- أو على وجه التحديد المواطنين غير اليهود (ومنهم الدروز والجراكسة)- لن يتمكنوا أبدا من بلوغ منصب رئيس أركان حرب أو رئيس وزراء. كما أنه لن يسمح لأي عربي (أو مواطن غير يهودي) بالمشاركة في أي من اللجان البرلمانية المكلفة ببحث الملفات الخاصة بالموساد أو بالشين بيت، أو بالسلاح النووي أو بغير ذلك من المجالات الشائكة الأخرى، لما لها من «حساسية بالغة على الصعيد الأمني». وبهذا الصدد، يمكن القول بأن عرب إسرائيل اليوم هم يهود ألمانيا بالأمس. ونظرا لما يثيره هذا الموضوع من حساسية قصوى، علي أن أؤكد عدم سعيي لعقد أية مقارنة بين وضع عرب إسرائيل ووضع اليهود أثناء المحرقة، ولا حتى أثناء الحكم النازي، وإنما فقط أثناء فترات الكمون الطويلة التي سبقت وصول هتلر إلى سدة الحكم.

بقي أن نطرح سؤالا أساسيا: كيف يمكن حمل شعب بأكمله، ومجتمع بأسره- أي ملايين من البشر- علي أن يغلقوا أعينهم ويصموا آذانهم؟ كثير من الألمان يقسمون اليوم بأنهم لم تساورهم أية شكوك، لكننا نشك في مصداقيتهم.

ما أكثر ما كُتب عن «مغسلة الكلام» الألمانية، وعن الوسائل المباشرة وغير المباشرة لغسل دماغ الشعب



ورشة النازيين؟

فقد كان من المستحيل أن يختفي من حولهم أناس يوما بعد يوم، من دون أن يدركوا حقيقة الأمر، (..) والأرجح هو أنه عند مواجهة المواقف العصيبة، تتولد بدواخلنا آليات دفاع وكبت طبيعية، تحملنا على التعامي عن الحقيقة المفزعة، وهكذا رحنا نستحسن وضع أصابعنا في آذاننا كلما تعالت في الجوار نداءات امرأة تطلب الغوث وهي تتعرض للضرب، أو ترددت من وراء أبوابنا صرخات طفل مستجير ينادي غير مسمع. فإذا كنا نفضل غض الطرف عن المآسي التي تدور في محيطنا القريب، فكيف لنا أن نصغي لأحزان الأغيار الغرباء؟

وفي مجال بعيد كل البعد، هو مجال الوقاية على الطريق، أثبتت الدراسات أن المبالغة في بيان الفظائع قد يؤتي نتيجة عكسية في معرض التوعية بمخاطر الطريق، إذ تعمل صور الجثث الممزقة، والسيارات المهشمة، واليتامى الصغار والأهالي المنكوبين على إنزال ستار حديدي على العقول، وتدفع الناس إلى الاحتماء خلف آليات دفاعية. يسري ذلك على الأفراد بمثل ما يسري على المجتمعات فمن اليسير جداً التلاعب بالجماعات وبالرأي العام فقط امنحني غابة ظلماء، واجعلها آهلة بالأشباح وبالأرواح الشريرة، ولا تنسَ إضافة نفر من الجن ومن سائر الأعداء، سواء الحقيقي منهم أو ممن اصطنعهم لك الخيال، وسأتكفل أنا بالبقية.

فعندما يدّعي عدد هائل من الناس أنهم ما رأوا وما سمعوا، فذلك يعني أنهم حقاً ما رأوا وما سمعوا، لأن الحقيقة كانت تفوق حدود الاحتمال وتتخطى عتبات الإدراك.

في كتابها الشهير «أيخمان في القدس»، تصف الفيلسوفة حنا أرنت آليات الكذب حين يتفشى على مستوى شعب بأكمله، فتقول:

«أصبح الكذب جزءً لا يتجزأ من الشخصية القومية الألمانية. أثناء الحرب، كانت الأكذوبة الأكثر تأثيراً على عامة الألمان هي شعار «حانت معركة القدر بالنسبة للشعب الألماني»؛ ذلك الشعار الذي أطلقه هتلر أو جوبلز، والذي يوحي، أول ما يوحي، بأن تلك الحرب لم تكن حربا، وثانيا، أن القدر- وليس ألمانيا- هو الذي أشعلها، وثالثا، أنها كانت مسألة حياة أو موت بالنسبة للألمان الذين كانوا مطالبين بإبادة أعدائهم وإلا تعرضوا هم أنفسهم للإبادة».

لقد سقط اسرائيلنا الحبيب هو الآخر في فخ القدر: فها نحن قد أصبحنا «الطيبين»، أما «هم»، فهم الأعداء الألداء، المتربصين بنا كأشباح الغابات الظلماء المحدقة بنا من جميع الجهات. عندنا، الأمر غاية في البساطة، فكل الأعداء أعداء مطلقون وكل الحروب حروب شاملة. وكلما تراءى الخصم ممعنا في الشر كلما بدونا نحن طيبين، على الأقل في أعيننا. بالنسبة لنا، ليس ثمة مستويات في العداء. ولا يسعنا تصور العدو على أنه مجرد «خصم» يناضل من أجل حقوقه المشروعة. فهم مثلما ورد في نصوصنا، «قد قاموا علينا بغية إبادتنا». ونحن إنما نجتهد في الدفاع عن أنفسنا حتى جيشنا، وهو واحد من أكثر جيوش العالم هجومية واعتداء، مازال يحمل رسميا اسم جيش «الدفاع» عن إسرائيل.

ونحن بعدُ مازلنا «مهددين بالإبادة». وهو ما يوحي به ذلك البيان الصحفي الذي تضمن أجزاءً من الخطاب الذي ألقاه بنيامين نتانياهو أمام مجلس الشيوخ الأمريكي، بعد أيام من وقوع الاعتداء على البرجين التوأمين وعلى البنتاجون، وجاء في البيان:

استقبل رئيس الوزراء الأسبق بنيامين نتانياهو صباح اليوم في مجلس الشيوخ الأمريكي، وأمام أربعين سيناتور من كلا الحزبين السياسيين، ألقى خطابا عن الإرهاب وعن وسائل استئصاله، كان مما جاء فيه: «إن يوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ليمثل منعطفا تاريخيا. فالآن تبدأ أمامنا حرب حياة أو موت، تشنونها أنتم، يا حراس الهيكل، تحت زعامة الرئيس جورج دبليو بوش....

كان بنيامين نتانياهو ولا ريب أفضل محام تولى الدفاع عن إسرائيل (وهو بالنسبة للبعض أفضل من مروج دعائي لسياسة بلاده) طوال العقود الأخيرة. وهو لم يتخل عن هدفه الحقيقي قط: ألا وهو كسب السلطة في إسرائيل، لا في واشنطن، وإرضاء ناشطي حزبه، لا إرضاء الولايات المتحدة. هذا ويتابع البيان الصحفي، الذي أرسله الخطيب إلى بلاده، نقل أقواله إلى جانب تمجيد مآثره البطولية، مع الحرص على تقديم الخليط كله دفعة واحدة في الحقيبة نفسها. وبعد أن قام نتانياهو بعرض صور فوتوغرافية لجثث ممزقة وسط قطع البيتزا المتناثرة في مطعم سبارو بالقدس إثر تعرضه لاعتداء، صرح قائلاً: «قبل خمسين عاما، هزمنا النازيين لأننا كنا متفقين على ضرورة إدانة النازية...»

وإثر انتخاب حماس على رأس الحكومة الفلسطينية، سارع بنيامين نتانياهو إلى التنديد بـ«مضطهدي إسرائيل الجدد». فبالنسبة له ولزمرة معجبيه، يظل كل أعدائنا-أعداء إسرائيل الأبديين- أعداء متجاوزين مطلقين، ويبقى هو وجورج دبليو بوش بطلي معركة العالم الحر، المنخرط في صراعه ضد مخلوقات الغابة المخيفة.

إن تلك العبارات والرسائل المصطبغة بالمشاعر التاريخية الثقيلة قد جرى ترسيخها في أنفسنا يوما بعد يوم، حتى تحولت على أثرها حججنا الشفهية إلى هستيريا مستمرة. صار كل شيء عندنا مسألة حياة أو موت... نكون أو لا نكون، إما الضياع والفناء أو الخلاص والأمل. من نفس المنطلق، كانت حرب الاستقلال مسألة حياة أو موت، وكذلك حرب سيناء. وما القول في العلاقة التي ربطت بين شعورنا بالانغلاق على أنفسنا قبيل حرب الأيام الستة وبين الانحباس داخل الجيتوات والمعسكرات؟ وللتذكرة، أثناء حرب «كيبور» (أكتوبر ٧٣)، كان مصير الوطن بأسره على المحك. وعندما حاز المصريون بعض المواقع على قناة السويس، ألم يصف الاستراتيجي القدير موشي ديان الوضع بأنه «تدمير للهيكل الثالث»؟

إن عالم بنيامين نتانياهو حافل بالأشباح المطلقة وبالعداوات الكاملة، أما عقله فقد تم غسله بفعل الدعاية المستمرة لما سمي بالقدر اليهودي: الحرب من أجل البقاء.. دائما وأبدا.. في مواجهة الجميع.

كان أسلاف بنيامين نتانياهو قد مهدوا له الطريق بنفس القدر من البراعة والتمكن من خطاب استدرار العاطفة. ففي عام ١٩٨٢، أثناء تلك الحرب العقيمة التي غُرر بنا فيها ضد لبنان، دفع بنا رئيس الوزراء آنذاك، الراحل مناحم بيجن، للقضاء على «الحيوان ذي القدمين» (وهي الكناية التي كان يشير بها الى عرفات والى هتلر من قبله بثلاثين سنة). فهل يعقل أن يكون عرفات وريث هتلر وابنه الرمزي؟! ولنذكّر أيضا بأن مناحم بيجن كان يسعد بتشبيه ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية بكتاب «كفاحي» لهتلر، وكان الكل من حولنا يقول بأنه «عبر التاريخ الإنساني كله، لم توجد منظمة مسلحة أكثر انحطاطا وترديا من منظمة التحرير الفلسطينية، باستثناء المنظمات النازية». ومما يذكره لنا المؤرخ توم سيجيف، أنه في أعقاب تدمير مراكز القيادة التابعة لعرفات ببيروت، أسرّ مناحم بيجن لرونالد ريجان بأنه كان يشعر أثناء العمليات وكأنه يهاجم هتلر في مخبئه في برلين. ففي عشية غزو لبنان، راح بيجن يلوح بذكرى المحرقة لكي يستحث وزراءه على شن الحرب، وهو ما أشار إليه أرييح ناور، سكرتير الحكومة آنذاك، وهو يستعيد، في مقال نشره بصحيفة يديعوت احرونوت، كلمات رئيس الوزراء حين قال: «إنكم تعلمون ما قمت به وما قمنا كلنا به لدرء الحرب وتحاشي الخسائر البشرية، لكن هذا هو قدرنا في إسرائيل، كُتب علينا القتال في صمت وتفانٍ. صدقوني فالبديل الوحيد للقتال هو تربلينكا. ونحن قد سبق وعقدنا العزم على أن تربلينكا لن تعود أبدا».

إن مغسلة الكلمات الإسرائيلية لواحدة من أكثر مغاسل الكلام تطورا في العالم. فواقعنا يُلزمنا في كل مرة بإعادة اختراع مصطلحات جديدة



(أريبيح ناور، «حكومة في حرب»، يديعوت احرونوت، ١٩٨٦).

وبعد خمسة عشر يوما من اندلاع الحرب الأقل نفعا في تاريخ إسرائيل، توجه الكاتب اموس أوز بخطاب مباشر إلى رئيس الوزراء، بأن نشر مقالا عنيفا في صحيفة يدعوت احرونوت، كان عنوانه «هتلر مات يا سيادة رئيس الوزراء»، كتب فيه:

«السيد بيجن..مرة أخرى ومثلما كان دوما دأبك، ها أنت تكشف لعامة الناس عن نزعة عجيبة فيك، نزعة تجنح الى إعادة إحياء هتلر لتتمكن من قتله كل يوم من خلال الإرهابيين(..). إن تلك النزعة التي تهدف الى بعث هتلر وتصفيته مرارا وتكرارا، هي نتاج قلق نفسي قد يعبر عنه الشعراء، ولكن تلك النزعة إذا ما راودت رجال الدولة فهي خطر مدمر يسوق البلاد على طريق الهلاك...». (أموس أوز، يدعوت احرونوت، ٢١ يونيو ١٩٨٢).

لم يكن السجال بين أموس أوز، نبي اليسار آنذاك، ومناحم بيجن، أيقونة اليمين، محض سجال حول نوعية البلاغة الخطابية التي استخدمها الأخير فحسب، وإنما كان أيضا سجالاً حول طريقته في إيقاظ مخاوف الراي العام. تعلق الجدال وقتها بأحد أهم موصلات الإنكار: ألا وهي الكلمات، أو بتعبير أدق الكلمات «المغسولة». فمن أجل مواجهة واقع صعب ومن ثم تخطيه، يلزم استخدام كلمات صعبة .لكن غسل الكلمات يهيئ لنا الاعتقاد بأن الواقع «القذر» يمكن أن يصير «نظيفاً». هكذا يصبح الشر أبيضا ناصعا، ويصبح الأسود الحالك الخير بعينه.لم نكن نحن من استحدث تلك الوسيلة، لكننا قد طورناها واتقناها خير إتقان، وكأننا لم نتعلم شيئا من أولئك الذين كانوا أسوأ من عمد إلى غسل الكلمات، وكانوا أصل عذاباتنا وسببها.

كان نهج النازيين نهجا بارعا. فلقد تمكن جوبلز- أبو الدعاية الحديثة- وكل فرقته من تحويل كل ما هو منحرف وفاسد إلى التجسيد الأمثل للسلامة العقلية والنفسية.و ابتلع الألمان كل ما قيل لهم. (..)

ما اكثر ما كُتب عن «مغسلة الكلام» الألمانية، وعن الوسائل المباشرة وغير المباشرة لغسل دماغ الشعب.ففي ملفات الأرشيف الألمانية، لا تكاد تقابلنا أبدا كلمات مثل «إبادة»، أو «تصفية»، أو «اغتيال»، أو «مجزرة»، ولكننا سنجد كلمات مثل «إخلاء»، و«معاملة خاصة»، و«إعادة إقرار»، «العمل في الشرق»، و«تغيير محل الإقامة»، و«الحل النهائي»، كانت مفردات التعمية تلك تهدف إلى تشجيع اليهود على الالتحاق بمحض إرادتهم بمعسكرات الموت اعتقادا منهم بأنهم ذاهبون للعمل شرقاً. (..)

إن الإنسان ليرغب في تصديق مفردات التعمية تلك حتى النهاية، وإنه ليولي الكلام اهمية قصوى . وهو ما قال به فرانز فانون في كتابه «بشرة سوداء وأقنعة بيضاء» الذي صدر عام ١٩٥٢وكتب فيه: «إن فعل التكلم بلغة ما يقتضي التمكن من علم قواعدها، وكذا من علم الصرف والاشتقاق، ولكنه يقتضي بالأساس استيعاب ثقافة، وتحمل تبعات حضارة». (دار سوي، ص١٣).

إننا نعيش في حضارة صنعتها كلماتُ «مغسولة»، ومفرداتٌ كاذبة، كان نتاجها ثقافةٌ كاذبة، ومجتمعٌ بارد ومغلق، وأسوأ من ذلك كله، مصطلحات مبهمة صكتها الدولة بهدف السماح لمواطنيها ولشركائها بالتنصل من مسئولية الأفعال التي اقترفتها باسمهم. «لم أكن أعلم»، «لم أفهم»، «لم يخبرني أحد»، «الصحف لم تنشر شيئا عن ذلك». خطأ! الصحف كتبت ونشرت، ولكنها استخدمت عبارات تسمح بتجاهل المعنى الحقيقي للكلمات. نعم، الصحف كتبت، ولكن بالقدر الذي جعل الناس يجهلون ما يفضلون الجهل به. (..)

كان (فانون)أول من ألمح إلى أن اللغة هي أداة القهر الكبرى التي يمتلكها الرجل الأبيض بين يديه. فلقد كانت فكرة «الرجل الأسود الوضيع الشرير في مقابل الرجل الأبيض الطيب الذكي» فكرة راسخة في عمق اللغة التي استعملها الرجل الأبيض. وما كتبه فانون بشأن الرجل الأسود قد ينطبق على اليهودي في حقب تاريخية معينة.(..) لهذا السبب كان من الصعب علينا أن نشير إلى حقيقة الواقع الإسرائيلي، لكننا لا نملك الحق في التعامي عن دور اللغة العبرية الحديثة في «غسل الكلمات»، بصورة تضمر موقفا متعجرفا وعنيفا بل وعنصريا إزاء العدو العربي.

في عام ١٩٨٧، عشية العيد الأربعين لقيام إسرائيل، وبمناسبة الذكرى العشرين لما أسميه بـ«التحرير الغاصب»، أصدرت مجلة «كوترت راشيت» السياسية الأسبوعية عددا خاصا عن الكاتب ديفيد جروسمان.و كان هذا الأديب الرائع، المعروف برهافة الحس ورجحان العقل، والذي يتقن الحديث باللغة العربية، قد ذهب إلى الأراضي المحتلة وزار مخيمات اللاجئين، والمحاكم العسكرية، والمستوطنات الإسرائيلية، والمدن والقرى الفلسطينية. وبعد سبعة أسابيع من التقصي، كتب تحقيقا مطولا نشرته المجلة، ثم ما لبث أن اضاف إليه فصولا جديدة كونت في مجملها روايته الشهيرة «الريح الصفراء»، ذلك الكتاب الحزين والموجع والكاشف لحجم الفساد الذي كنا قد وصلنا إليه في نهاية عقد الثمانينيات. ولقد قرأنا الكتاب وقتها وشعرنا بالأسى، ظناً منا -على غير حق- أننا قد بلغنا القاع، وأنه قد آن الأوان للعودة الى السطح. ولكن، مقارنةً بالوضع الحالي، تكاد تلك الفترة تبدو اليوم وكأنها مثاليةً في نزعتها الإنسانية. ولقد خصص جروسمان أحد فصول كتابه للحديث عن «غسل الكلمات» فقال:

«عندما يقع بلد من البلدان في مأزق محرج، فإنه يعمد إلى اختراع مفردات جديدة. ولم تكن إسرائيل أول من ابتدع ذلك النهج (..) ولكن (..) من المثير للحنق أن نشهد انحطاطها البطيء أمام أعيننا. فبغير وعي، تنامت لدينا تشكيلة جديدة من الألفاظ المصطنعة الخائنة، والكلمات التي فقدت مدلولاتها الأصلية، والتعبيرات التي، بدلا من أن تصف الحقيقة، تجتهد في إخفائها كل الاجتهاد».

إن مغسلة الكلمات الإسرائيلية لواحدة من أكثر مغاسل الكلام تطورا في العالم.فواقعنا آخذ في الجموح بسرعة قصوى، بالغا في احتدامه من القمم ما يُلزمنا في كل مرة بإعادة اختراع مصطلحات جديدة. بدأ ذلك مع «الرفقاء الطيبين» من رجالات البلماح(*). فهم أبدا ما سرقوا ولا اقترفوا أية انتهاكات للممتلكات، إنما كانوا «يلقطون أرزاقهم في قن الدجاج» فحسب. وفي الجيش، لم نعرف قط السرقات ولا المصادرات التعسفية، كنا فقط «نسد احتياجاتنا من المعدات الناقصة». كما لم يحدث قط أن تحرشنا بجندية لأننا كنا

أفراهـام بـورج

ولد أفراهام بورج في القدس في ١٩ يناير عام ١٩٥٥، و هو ابن وزير الدولة السابق يوسف بورج المنتمي إلى الحزب الوطني الديني.درس أفراهام في إسرائيل وتطوع في وحدة المظلات بالجيش الإسرائيلي، ثم اتجه للعمل السياسي، وسرعان ما أصبح واحدا من الأسماء الواعدة في حزب العمل، حيث عمل مستشارا لرئيس الوزراء شيمون بيريز لشئون يهود الشتات، ثم ترأس الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية (١٩٩٥)، حيث أولى اهتماما بالغا لجمع التعويضات من الدول الأوروبية لصالح ضحايا المحرقة النازية. ومن ثم، عمل بورج نائبا لرئيس المجلس اليهودي العالمي فرئيسا للكنيست الإسرائيلي ما بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٣ . و في عام ٢٠٠٤، انسحب بورج من الحياة العامة على أثر الانتقادات التي وجهها للسياسة الإسرائيلية، منها ما جاء في مقال نشره في صحيفة «الجارديان» تحت عنوان «نهاية الصهيونية»، دعا فيه إلى الجلاء عن الأراضي الفلسطينية المحتلة ، وإلى تفكيك السلاح النووي الإسرائيلي.الكتاب الأول لبورج هو «عودة الرب»، قد تمت ترجمته إلى العديد من اللغات، ويتناول فيه تسيد المسألة الدينية على الساحة السياسية العالمية.أما كتابه الثاني «هزيمة هتلر» فلقد أثار ضجة في إسرائيل حتى أن رئيس الوزراء إيهود أولمرت قد صرح لكاتبه في اتصال هاتفي بأنه كتاب «من الصعب جدا جدا تقبله، لكون كثير مما جاء فيه صحيحا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لكون الرأي العام الإسرائيلي غير مستعد لتقبل مثيله تلك الآراء في الوقت الحالي»، بحسب ما أدلى به الكاتب لمجلة لير الفرنسية.

نسألها دائما أولا «عندما تقولين، لا «فما معنى ذلك؟»[6] فأنت بالطبع لا تعنين «لا» حين تقولين «لا»، أليس كذلك؟ هذا وقد تربينا جميعا على فكرة «نقاء الأسلحة»[7]، وهو طباق طريف ومريح، يعمل على تنظيف الضمير بالتزامن مع تنظيف فوهة البندقية. فالقتل بواسطة سلاح «نقي» يكون حتما أكثر ملائمة مما لو كان السلاح غير نقي.

و مع الوقت، أحرزنا تقدما ملحوظا ووصلنا عن جدارة إلى ذروة العمى والضلال. فنحن لم نصح أبدا على رؤوس الأشهاد بأننا «سنقتلهم بلا حساب». كما نعتز كثيرا بأمثالنا التلمودية المأثورة، من قبيل: «من جاء ليقتلك، فقم إليه واقتله»، وقد ترسخ لدينا اعتقاد بأن الأخلاق اليهودية تهب إلى جانبنا في كل يوم لتدعمنا ما إن يحين نداء الصباح. وعندما يقوم جيشنا، الذي يخدم فيه أبناؤنا، باقتراف سلسلة من التصفيات، برغم غياب أي تهديد وشيك، نسارع نحن الى إطباق أعيننا والى سد آذاننا، لأن الأمر برمته مجرد «ضربة موجهة». ولكن أنى للضربة أن تكون «موجهة» بينما يمكن إحصاء عشرات بل مئات الحالات المماثلة؟ وبينما تقع من حول الهدف الذي «وجهت» إليه الضربة أعداد كبيرة ما بين قتيل وجريح من المدنيين الأبرياء، الذين يسقطون بسبب خطإ بشري، أو إفراط في معايرة المادة المتفجرة، أو ببساطة بسبب اللامبالاة؟ ذلك أن عبارة «ضربة موجهة» أخف وطأة على الأذن من «قتل» أو «اغتيال»، وهي إلى ذلك مهدئة لضمائرنا ومسكنة لخواطرنا.

هل بدأنا نشبههم؟ هل أدى العداء بين الإسرائيليين والفلسطينيين إلى طمس الحدود بين الخير والشر. وإن كنت أنا أشبههم وكان الفلسطينيون ورثة النازيين، فما أكون أنا؟ ماذا نكون نحن؟ لا نملك الإجابة، لأننا نفتقر إلى الكلمات اللازمة لصياغتها. (ملحوظة النص الأصلي به هذا الفراغ قبل وبعد هذه الفقرة)

هل فكرنا يوما ملياً في عبارة «إخلاء أرض» («خيسوف») التي يستخدمها جنود الجيش الإسرائيلي؟ في الواقع، لا يتعلق الأمر بإخلاء أو تعرية أي شيء، بل يتعلق على العكس بالإخفاء والتكتم. فعندما ينطق مذيع النشرة الإخبارية بلفظة «إخلاء»، نفهم أن ثمة شخص ما، في مكان ما، يبكي الآن أشجاره المقتلعة ومزارعه العتيقة التي ورثها أبا عن جد. هذا الرجل الباكي الحزين لن يجني زيتونه بعد اليوم، وأشجاره لن تثمر مرة أخرى بعد اليوم. فلقد قامت جرافات جيش «الدفاع» الإسرائيلي بـ«إخلاء» أرضه وحف كل أشجاره، لفتح الطريق أمام العمليات العسكرية وأبراج الرصد والمراقبة. فالأراضي المحيطة مثلاً بممتلكات وزير الدفاع السابق شاوول موفاز في بلدة «كوخاف يائير» قد تم تنظيفها و«إخلاؤها». ذلك أن المزارع التي كانت هناك قبل بناء تلك البلدة المتغطرسة، صارت عقيمة جدباء. والأهم هو أن السيد الوزير ما عاد يخشى كمائن الأشرار والإرهابيين. فلقد رحل الأشرار بعيداً، لينام السيد الوزير وعائلته في دعة ملء الجفون، ولتنبت، على جنبات الطريق، بذور جديدة للكراهية.

أما كلمة «تاج» (كِتِر) في اللغة العبرية، فهي لا تعني فقط زينة رأس الأمير، أو علاجا تجميليا لسن عطِب، أو اسم دار نشر إسرائيلية، أو زخارف الفضة الثقيلة على حافظة التوراة. فكلمة «التاج» أو «الطوق» هي أيضا في لغتنا العبرية، حصار عسكري خانق، وهي الجوع، والعطش، واليأس الحاضرين في ركابه. «التاج» أو «الطوق» هي ما يتم نيابة عني، حينما «يطوق» أولادي المدن المعادية بمن فيها من أولاد يماثلونهم في العمر. ■

هوامش أضافتها المترجمة

١- حوار أجراه معه آري شافيت في صحيفة «هآرتز»، بتاريخ ٨ أغسطس ٢٠٠٧.

٢- أجرى الحوار في تل أبيب، فيليب دولاروش، رئيس التحرير التنفيذي لمجلة «لير»، عدد مارس ٢٠٠٨.

٣- «عيسو» شخصية توراتية، هو الابن الأكبر لإسحق بن إبراهيم، والشقيق الأكبر ليعقوب (Dictionnaire Hachette encyclopédique illustré)

٤- يطلق الصهاينة الآن مصطلح «يهودا والسامرة» على الضفة الغربية لتبرير احتلالها. (د. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الموجزة، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥، الجزء الأول، ص٣٩٧.

٥- «البلماح أو البلماخ هو اختصار للعبارة العبرية بلوغوت ماحتس» (أي القوة الضاربة)، وهي القوة المتحركة الضاربة التابعة للهاجاناه، وقد بدأ البلماح نشاطاته العسكرية المخربة في ١٩ مايو ١٩٤١ و من أشهر رجاله موشي دايان واسحق سادي واسحق رابين. (الموسوعة الحرة)

٦- هذه الجملة عنوان لأغنية إسرائيلية شهيرة.

٧- «نقاء السلاح» أسطورة صهيونية تدعي مبدأ استخدام الجندي الإسرائيلي لسلاحه في حدود مهمته فقط، مع الحرص على عدم استخدامه ضد المدنيين أو الأسرى.

كتاب الزاوية

كتاب النصيحة

قابوس نامه

كتاب النصيحة هو ترجمة الكتاب الفارسي نصيحتنامه المعروف باسم قابوس نامه. والكتاب في إيران وخارجها يتمتع بشهرة واسعة في الأوساط العلمية عامة، وبين المستشرقين خاصة.

وهناك تناقض بين مؤرخي الأدب والمؤرخين حول تاريخ تأليف الكتاب، إذ هناك من يقول إنه مؤلف حوالي ١٠٨٢م، وهناك من يقول إنه مؤلف قبل ذلك بكثير.

ومؤلف الكتاب هو الأمير عنصر المعالي كيكاوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمكير. وهو أمير شيخ دبر الإمارة وساس الرعية واحدًا وعشرين عامًا. وقد ألفه في آخر عمر طويل قضاه في الاستزادة من الحكمة وطلب المعرفة. وحكم من ١٠٤٩ حتى ١٠٦٩ ميلادية. والكتاب يتوجه بالنصيحة إلى ابن الأمير وهو أول كتاب من نوعه في الأدب الفارسي الإسلامي. وقد قام بتعريبه محمد صادق نشأت وأمين عبدالمجيد ونشرته «دار الشروق» ٢٠٠٧ (الطبعة الأولى). واختارت «وجهات نظر» مقتطفات منه.



ميدان محمد علي

عودة إلى

الإسكندرية «الكوزموبوليتانية»

دينا حشمت

قبل ثلاث سنوات نشرت «وجهات نظر» نقلا عن الدورية الرصينة New York Review of Books وباتفاق خاص معها مقالا أثار جدلا كتبه Amos Elon عن رباعية لورانس داريل الشهيرة The Alexandria Quartet

واليوم نعود إلى العمل الأدبي الأشهر عن عروس المتوسط بمقال كتبته لوجهات نظر دينا حشمت بعد أن ناقشت في السوربون أطروحتها للدكتوراة عن «المدينة في الرواية العربية».

■■ لا زالت «رباعية الإسكندرية»، التى كتبها لورانس داريل منذ أكثر من خمسين عاما، تمارس سطوة وانبهارا خاصا لدى قرائها. بالرغم مما قيل عن عدم دقة العديد من المعلومات الواردة فى هذه الرواية - سواء تلك التى تصف المدينة نفسها، أو تلك التى تسرد وقائع تاريخية مزعومة. فإنها ما زالت تقدم على أنها تمثل روحا كوزموبوليتانية كانت تعبق بها الإسكندرية فى الماضى. وهكذا قُدِمت أثناء الاحتفالية التى نظمها المركز الثقافى البريطانى بالاشتراك مع «مركز أبحاث الإسكندرية والبحر المتوسط» فى مكتبة الإسكندرية بمناسبة مرور خمسين عاما على إصدار أول جزء من الرباعية، «جوستين»، فى شهر نوفمبر الماضى.

وهكذا قُدمت لى أيضا قبل أن أقرأها، فكان يُطرح علىّ نفس السؤال المكرر: لماذا لم أقرأ هذه الرواية الجميلة، ذات الأسلوب النادر التى لا بدّ على أى مصرى، خصوصا إذا ما كان مهتما بالأدب، أن يقرأها؟ ومن يطرح هذا السؤال يتطرق أيضا إلى روح «المدينة الكوزموبوليتانية»، التى تم تصويرها فى



شاطئ الإسكندرية
ثلاثينيات القرن العشرين



«الرباعية». عندما قرأتها أخيرا، وجدت التجربة صعبة بل محبطة إلى حد ما.

إنها رواية طويلة جدا، من حوالى ألف صفحة، أسلوبها القوى يجبرك على الانغماس عميقا فى عالمها المنظّم حول فضاءات اجتماعية ضيّقة، وهو بالضبط ما يجعله عالما خانقا ومُحبطا. تتناول «الرباعية» دوائر اجتماعية تتحرّك فيها شخصيات معزولة، نادرا ما تتجاوز علاقاتها (سواء كانت علاقات صداقة، أو جنس، أو زواج). هذه الحلقات الضيقة. يصطدم القارئ من حين إلى آخر بجمل عنصرية قصيرة، يستخدمها الراوى لوصف مشاعره (أو مشاعر شخصياته) تجاه المدينة وتجاه سكّانها. تتدرج هذه الجمل من ملاحظات تقدّم على أنها حقيقة بديهية عن العرب والمسلمين، على سبيل المثال «أنت تعرف كيف يكون العرب فى مثل تلك المسائل»[1]، أو «بدأت تئن فجأة، تهتز مثل عربية تتوسل إليه»[2]. كما يصف الراوى مشاهد يفترض أنها «ترمز إلى عادات مصر».

«إلا أنه كانت هناك مشاهد أخرى ربما أقل قبولا واستساغة، لكنها، مع ذلك، تمثل «العادات» المصرية. شهد فى الصباح الباكر لأحد الأيام حادثة قصيرة وقعت فى باحة المنزل تحت نافذته. فقد وقف هناك، مضطربا شاب أسمر أمام ناروز آخر مختلف عن ذاك الذى يعرفه، عابس الوجه شرسا وإن كانت شجاعته قد زايلته وهو ينظر فى هاتين العينين الزرقاوين. وسمع ماونت أوليف وهو راقد يقرأ، «سيدى، لم تكن تلك كذبة»، قيلت مرتين فى صوت خفيض واضح. فنهض وسار إلى النافذة حيث رأى ناروز يكرر، فى ذات الوقت، فى صوت خفيض عنيد كلمات كان يضغطها بين أسنانه فى صوت كالفحيح «لقد كذبت ثانية». كان يأتى فعلا اقشعر منه بدنه لقسوته. رأى مضيفه يتناول سكينا من حزامه، ويقطع بها قطعة من شحمة أذن الصبى، فى بطء وعلى مهل، كما يقطع المرء عنقود عنب من شجرة بسكين الفواكه»[3].

عندما يسرد الراوى حوارا بين مملك، وزير الداخلية وحلاقه رافائيل، يستخدم الكلمات التالية ليصف تصرّف رافائيل تجاه مملك: (وهذه الجملة من اقتباس محمود منزلاوى): «كان يتقدّم فى بطء، إذ إن تسجيل فكرة فى عقل مسلم أشبه بمحاولة دهان حائط: على المرء أن ينتظر حتى يجف الوجه الأول من الطلاء (الفكرة الأولى) قبل تقديم الثانية»[4].

أما عن تمثيل مدينة الإسكندرية فى «الرباعية»، فهى منقسمة بشكل واضح بين ما يطلق عليه الراوى «المدينة الأوروبية»[5] the European city، وما يطلق عليه «الحى العربى» the Arab town، إلى درجة أن لا تلاقى ممكنا بين هذين العالمين المنفصلين. لا جسور بينهما، وإن وجدت، فمن الصعب تصنيفها تحت بند التواصل الإنسانى: إنها فقط «المدينة الأوروبية» فى مواجهة «البندر العربى».

هناك أولا «المدينة الأوروبية»، التى يعيش فيها الراوى وأغلب شخصيات «الرباعية». إنها مدينة الكورنيش التى تطل فتارينها المشعّة بالأنوار على البحر، بمقاهيها وشواطئها، وبشوارعها التى لديها أسماء مثل «شارع فؤاد»، «شارع النبى دانيال»، «شارع دى سور»، والأحياء أيضا لها تسميات واضحة فى «المدينة الأوروبية»، على غرار حى «الأزاريطا»، أو أماكن لقاء المثقفين، مثل أتيلى فنون جميلة.

يتناقض وصف هذا الجزء من المدينة بحدّة مع ما يسميه الراوى «الحى العربى»، الذى يستخدم عدة مصطلحات لوصفه: «الحى المصرى»[6]، «الحى العربى»[7]، «الحى المحلى»[8] أوّل شىء يمكن ملاحظته هو أنّ هذا الجزء من المدينة لا يستحق صفة «المدينية»، عكس «المدينة الأوروبية». فالجزء العربى من الإسكندرية -حسب تقسيمات الراوى- لن يتجاوز أبدا كونه «حيا»، أى مكانا له طابع «محلى»، لا يسكن فيه سوى السكّان «المحليين»، ولا يسمو إلى المميزات المرتبطة «بالمدينية». ومن خلال توصيفه هذا، يُخرج الراوى هذا «الحى العربى» من الهوية الإسكندرانية.

يتميّز هذا «الحى العربى» عن باقى المدينة بطبيعة الأماكن التى يصفها الراوى فيه، وبطبيعة زياراته إليها؛ كما يظهر لنا هذا التمييز جليا عبر تحليل حسّى لهذا الفضاء.

هناك فضاءان داخل «الحى العربى» يصفهما الراوى عدّة مرات: بيت الدعارة للأطفال (ثلاثة مشاهد طويلة)، والمولد. يوصف هذان الفضاءان من خلال عين خارجية، عين زائر سائح، ومن ثم فالفضاء يوصف مع التركيز على التفاصيل الأكثر غرائبية. كما أن الزيارات فى هذا الجزء من المدينة تفجّر انطباعات سلبية فى مجملها، فهى تجعل مشاعر المرء تفيض «فى طوفان من التقزز والهلع»[9].

إن تحليلا حسيا أعمق لأجزاء المدينة هذه قد يكون ضروريا للتعبير عن هذه المشاعر السلبية. فمعظم المشاعر التى يتركها لدينا وصف هذه الأحياء، سواء على مستوى الشم، أو النظر، أو السمع، أو الطعم، أو اللمس، هى غاية فى السلبية.

إن الشم، كما يقول خالد فهمى فى مقالته «روح الإسكندرية ورائحتها»، إحدى الحواس المثلى «لنقد الخطاب الكوزموبوليتانى». يبرز فهمى فى مقالته كيف أن «الفضاءات العربية» فى الإسكندرية كانت مرتبطة بشكل مستمر، فى أعمال أغلب الكتّاب الأوروبيين، برائحة نتنة، رائحة القمامة فى الشوارع، وبالنسبة إلى عدد من الكتاب «برائحة العرب المقززة»[10]. بالرغم من أن خالد فهمى لا يدمج «رباعية الإسكندرية» فى الأعمال التى يحلل فيها وصف الشم، وبالرغم من أنه يعلن أن «هذا الثلاثى الشهير» (كافافيس، فوستر، داريل) قد سما بأفكاره عن العنصرية»[11]، فإن «البندر العربى» فى الرباعية له رائحته الخاصة المرتبطة فى أغلب الأحيان بمشاعر سلبية. لم أقم بتحليل حسّى كامل لرباعية «داريل»، ولا حتى فى حالة الاعتماد على حاسة الشم فقط، ولكن فيما يلى بعض الأمثلة التى تعطى فكرة عامة عن طريقة الوصف الحسية «للحى العربى». الروائح فى هذا الجزء من المدينة مختلفة: إنها روائح «أخرى»: «وتتغير رائحة اللحم البشرى عندما يجوس المرء خلال الحى المصرى - إذ تفوح رائحة الراتنج، خشب الصندل، ملح البارود، التوابل والأسماك»[12]. يصف الراوى أغلب الروائح التى يشمها على أنها روائح غير ظريفة: «كان الجو يفوح برائحة الرماد المبتل ورائحة اللحم الأسود وهو يعرق. إنها تختلف كثيرا عن الأجساد البيضاء. إنها رائحة كثيفة كريهة نتنة، مثل قفص الأسود فى حديقة الحيوان. كان الظلام نفسه يتصبّب عرقا»[13].

كما توصف الأصوات فى «الحى العربى» على أنها غير لطيفة: إنها أقرب إلى الضوضاء («الضوضاء البشعة»، كليا، ص١٨٣). يصف الراوى الموسيقى على أنها «تقاسيم محشرجة» -يقصد التون العالى للموندولين. فى أحد أجزائه، يصف الكتاب الصوت فى هذا «الحى العربى» كما يلى: «بينما يعلو فوق أنين وصرخات الماشية، شذرات خنفاء من أغنية حب دمشقية قادمة من زقاق مختبئ إلى جوار السلخانة، تقاسيم محشرجة كصوت العظام وهى تطحن إلى دقيق»[14]. والعرب لا يتحدّثون ويصرخون، بل يصدرون أصواتا أشبه بالعواء: «بين العرب الذين كانوا يتبادلون الحديث، يصفون الحادث، كل للآخر، فى نبرات كالعواء»[15].

أما بالنسبة للنظر، فيظهر «الحى العربى» أمامنا كعالم الظلام، عالم السواد والحوارى الضيقة: «أخذت الشوارع تظلّم تدريجيا، تشحب ألوانها إلى الظلمة البنفسجية. غدت أكثر ضيقا، ملتوية منحنية»[16].

طرحت على نفسى العديد من الأسئلة عند قراءة هذه الرواية. كان رد فعلى الأول والتلقائى التساؤل حول ما إذا كانت الصور الموجودة فى الرواية مرتبطة بحقيقة واقع المدينة الذى من المفترض أن تصفه. وهو هذا الواقع الخاص الذى ميّز الإسكندرية عن غيرها من المدن المصرية، ألا وهو كثافة الجاليات غير المصرية، الذى وصل إلى أوجه سنة ١٨٨٢، عندما كانت نسبة غير المصريين من سكّان المدينة تمثل ٢١,٥٪ من إجمالى السكّان[17]، من ضمنهم إنجليز، وفرنسيون وإيطاليون ومالطيون ويونانيون، حظى هؤلاء السكّان، فى وقت أو آخر، بامتيازات عدّة ضمنها لهم محمد على، وهى الامتيازات التى قد تبدو لنا، عن حق، مبالغًا فيها، كما تقول مرسيدس فوليت فى دراستها عن الجالية الإيطالية[18]، لكن هل كان يعنى ذلك تقسيم المدينة بين فضاء أوروبى وآخر عربى لا يختلط فيهما الجنسيات والهويات، على النحو الذى يصفه داريل؟ يكفى قراءة بعض الأعمال السوسيولوجية عن إسكندرية بداية القرن، ليعلم المرء أن هذا ليس صحيحا: فتداخل الحياة اليومية ما بين المصريين وغير المصريين فى كل أجزاء المدينة كان يتجاوز كل ما كان داريل نفسه قد اختبر أبدا.

ولكن رد الفعل الأول هذا، رد فعل «هذه ليست إسكندرية الحقيقية»، قد لا يكون ذا فائدة لتناول هذه الرواية: إذ إن الأعمال الأدبية ليس من المفترض أن تعطى صورة

هناك أولا «المدينة الأوروبية»، التى يعيش فيها الراوى وأغلب شخصيات «الرباعية». إنها مدينة الكورنيش التى تطل فتارينها المشعّة بالأنوار على البحر، بمقاهيها وشواطئها

دقيقة للواقع. (وإن أخذ العديد من النقّاد على داريل كلمته الافتتاحية الشهيرة لرواية «جوستين»: شخصيات هذه القصة، وهى الأولى من مجموعة أكبر - شخصيات مخترعة، كما هو حال شخصية الراوى، ولا يوجد أى تشابه بينهم وبين أناس حقيقيين. (وحدها المدينة هى الحقيقية). فطرحت على نفسى سؤالا آخر: إذا كانت الرباعية تقدّم على أنها تمثيل جيد للمدينة الكوزموبوليتانية، فما هو المقصود إذاً بالكوزموبوليتانية فى هذا الإطار؟

تأتى كلمة كوزموبوليتانية من بوليتس (مواطن) وكوزموس (العالم)، أى مواطن العالم. إنها تدلّ إذاً على شخص أو مجموعة من الأشخاص يرون فى العالم وطنهم، وليس لديهم تفضيل للارتباط ببلد عن آخر. كما يدلّ هذا المصطلح على مدن ارتبطت هويتها بوجود «أجانب» أو مهاجرين فيها، وقد تكون فقدت هكذا جزءاً من هويتها الأولى، القومية. هناك عدد من المدن حول العالم تعتبر «كوزموبوليتانية»، ولكن هذا المفهوم مرتبط ارتباطا وثيقا بالبحر المتوسط، حيث تبقى الإسكندرية، كما سبق وأشرنا، المدينة الكوزموبوليتانية par excellence

فى هذه الرؤية قد تظهر الإسكندرية كمدينة خارج الزمن، أو كمدينة لا يمكن أن تطالها التغييرات. فى مقدّمته لإعادة نشر كتاب فورستر «إسكندرية تاريخ ودليل»، كتب داريل أنّه، عندما وصل المدينة سنة ١٩٤١، «٢٣ سنة بعد كتابة هذا العمل، و٨ سنوات بعد موت صديق فورستر الكبير، كوستانتان كفافيس، لم يتغيّر شىء مهم، وكأنه سحر»[١٩]. المدينة إذاً لا تتطور بل تبقى مرتبطة بنوع من «الكوزموبوليتانية الخارجة عن الإطار الزمنى»، دون أى جذور، إنها منفصلة عن واقع المدينة الاجتماعى؛ ترمز إلى الكوزموبوليتانية فى المدينة الكورنيش، وواجهتها البحرية، «المفتوحة على العالم»، بمقاهيها، وفنادقها، بمطاعمها، بفندق السيسيل ومقهى باستروديس، بكل هذه العلامات الثقافية التى تتميز جميعا بأنها غير مصرية وغير عربية. يقول عنها راوى «الرباعية»: إنها مدينة بنيت «كالسد ليمنع طوفان الظلمة الأفريقية»[٢٠]. إسكندرية هى «عاصمة الذاكرة»[٢١] -هكذا يكتب داريل بعد عدّة صفحات، ولكن إذا كانت هناك ذاكرة تكون الإسكندرية عاصمتها، فهى الذاكرة الرومانية واليونانية والأوروبية. «الإسكندرية لا تزال أوروبية -عاصمة أوروبا الآسيوية»، يقول داريل[٢٢] الإسكندرية لا تكون إلا ضمن هذا العالم وهذه المعالم. وهذا ما يفسّر ما يقوله داريل فى المقدمة نفسها، من أن «الإسكندرية قد نُسيت»، لأن العديد من رموز فترة المدينة «الكوزموبوليتانية» كانت قد اختفت فى بداية الثمانينيات.

بعد اختفائها أصبحت هذه الأماكن ترمز جيدا إلى نوع من الكوزموبوليتانية كان فى مركز ما يطلق عليه سنجرمان وأمر فى مقدمتهما لكتاب «القاهرة كوزموبوليتانية»، «الرؤية الحنينية للكوزموبوليتانية(...)»، حيث يحتفل مضاربون وأصحاب



جنديان من البحرية البريطانية أمام عامود السوارى «الإسكندرية ١٩٣٦»



مشاريع تنموية مدينية فاخرة وليبراليون ذوو نوايا حسنة، بفترات من تراث المدن متعدد الثقافات، تمتد إلى القرنين التاسع عشر والعشرين»[23].

لكن ألا يمكن أن «يستخدم مصطلح الكوزموبوليتانية استخداما تقدميا؟»[24] ألا يمكن أن يكون لهذه الكلمة استخدام «لا يتجاهل أو يتجنب سياقها الكولونيالي؟»[25] هناك العديد من الكتّاب، وخاصة في حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية، يتساءلون حول مفهوم الكوزموبوليتانية ويربطونه بالتاريخ الكولونيالي. ينظر الكاتب الأرجنتيني مينولو إلى الكوزموبوليتانية كأحد المفاهيم، مثل «حقوق الإنسان» أو «الديمقراطية»، المرتبطة بالنموذج الكولونيالي فيحتاج من ثم إلى إعادة تدوير راديكالية «radical reconceptualization». يرى أن «الكوزموبوليتانية والديمقراطية لا يمكن طرحهما من وجهة نظر واحدة، فيقترح «كوزموبوليتانية نقدية وديالوجية، نابعة من فضاءات مكانية وتاريخية متعددة من حقل الاختلاف الكولونيالي»[26].

ومن خلال التساؤل حول المعاني البديلة لمصطلح الكوزموبوليتانية، والأسباب التي جعلت من «الرباعية» كأنها الرواية الملخصة لروح الكوزموبوليتانية الأبدي، طرحت على نفسي سؤالا ثالثا، وهو كيف كتب الكتّاب المصريون، الإسكندريون «المحليون» عن مدينتهم، وبمعنى أخص، كيف كتبوا عن هويتها «الكوزموبوليتانية»؟ ورأيت أنه قد يكون من المهم إعادة قراءة أعمال عدد من الكتّاب الإسكندريين، ومنهم الكاتبان إدوار الخراط وإبراهيم عبد المجيد. فكرت خاصة في نصي الخراط «ترابها زعفران» و«بنات الإسكندرية»، وروايتي عبد المجيد «لا أحد ينام في الإسكندرية» و«طيور العنبر».

لم أتقدّم بعد في تحليل هذه الأعمال الأدبية بما يكفي لتقديم تحليل حسي مفيد لها. ولكنني أود أن أقدّم بعض الملاحظات الأولية حول رواية «طيور العنبر» التي، عكس «رباعية الإسكندرية»، لا «تتجاهل أو تتجنّب السياق الكولونيالي». تدور أحداث الرواية على خلفية مغادرة مواطنين غير مصريين الإسكندرية في فترة ما قبل وبعد تأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦. تقع «طيور العنبر» في أغلبها فيما كان داريل قد سماه «الحي العربي»، ولكن إبراهيم عبد المجيد لا يطلق على هذا الجزء من المدينة مثل هذا الاسم الشمولي. تحمل هذه الأحياء أسماءها، وأهمها حي كرموز. تعيش أغلب الشخصيات في هذا الحي، وعدد كبير منهم عمّال في سكة الحديد. توصف الفضاءات الأخرى في المدينة عبر عيون ثلاث شخصيات على علاقة بشخصيات تعيش خارج كرموز: العربي الذي يحب كاتينا المرأة اليونانية الأكبر منه بعشرين سنة، مع أنها لا تبادله نفس المشاعر لأنها لا زالت تحب زوجها الميت، الشيوعي اليوناني؛ سليمان المرتبط ببنت إنجليزية، چين التي تترك البلاد بعد ١٩٥٦؛ وأخيرا ممرضة شابة تقابل مجموعة من المناضلين الشيوعيين.

دائما ما نرى الفضاءات الواقعة خارج أماكن حياة هذه الشخصيات اليومية من خلال نظرتهم لها. بالرغم من أنّ النص ليس مبنيا حول تناقض فضائي قوي ما بين كرموز وفضاءات أخرى في الإسكندرية، مثل وسط المدينة، ولكنه موجود، وإن على نطاق أضيق. يظهر مثلا في وصف الراوي لرد فعل سليمان عند زيارته الأولى لوسط المدينة مع چين. في المحلات الكبيرة التي يدخلانها، حيث اللغات الأجنبية «في كل ركن» (ص١٠٨) – «لاميزون دي كادو، لاميزون فرانسيه، جراند مجازين» يشعر سليمان بأنه «مسحور» (ص١٠٨)، «مأخوذ ومطيع» (ص١٠٩)، «كأنما ندهته النداهة»، في إشارة واضحة لقصة يوسف إدريس المبنية حول انجذاب فتحية الفلاحة الوسواسي وغير المنطقي نحو المدينة الحديثة، وهو الانجذاب الذي أدّى بها إلى التخلي عن أسرتها. لا نجد مثل هذه الحبكة الدرامية في «طيور العنبر». النقطة الحزينة في هذه الرواية هي أنه من المستحيل بناء جسور حقيقية ومستديمة بين الشخصيات المصرية وغير المصرية. يحاولون، ولكنهم لا ينجحون في تجاوز الحدود الطبقية والوطنية.

أدّت بي هذه العناصر للتساؤل حول ما إذا كانت هناك أي جسور بين صور داريل والخراط وعبد المجيد عن الإسكندرية. كتب إدوار الخراط يقول إن لورانس داريل لم يعرف «من الإسكندرية إلا قشرتها السطحية»، فحولها في عمله إلى «وهم غرائبي»[27]. هل قام في عمله، وهل قام إبراهيم عبد المجيد بالرد بالكتابة، writing-back، في رواياتهما عن هذه المدينة «الكوزموبوليتانية»؟ أم أنهما بنيا رؤيتهما الروائية بعيدا تماما عن «الوهم الغرائبي»؟ ■

يظهر الحي العربي أمامنا كعالم الظلام، عالم السواد والحواري الضيقة والشوارع التي تشحب أولوانها إلى الظلمة البنفسجية

هوامش:

١ ـ لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «بلتازار»، ترجمة فخري لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ١٨٠

٢ ـ لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «ماونت أوليف»، ترجمة فخري لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٣٥٥

٣ ـ نفس المرجع، ص ٣٥

٤ ـ «He proceeded slowly, for to register an idea in a Moslem mind is like trying to paint on a wall: one must wait for the first coat to dry (the first idea) before applying a second».

Quoted by Mahmoud Manzaloui, in "Curate's Egg: An Alexandrian Opinion of Durrell's Quartet", in "Critical Essays on Lawrence Durrell, Alan Warren Friedman, G.K.Hall&Co, 1987

عند رجوعي لترجمة فخري لبيب لهذه الجملة، اكتشفت أنه استبدل «مسلم» بـ «مملك»: «كان يتقدم في بطء، إذ إن تسجيل فكرة في عقل مملك أشبه بمحاولة دهان حائط: على المرء أن ينتظر حتى يجف الوجه الأول من الطلاء (الفكرة الأولى) قبل تقديم الثانية».

فتأكدت من صحة اقتباس المنزلاوي في الأصل الإنجليزي:

Lawrence Durrell, The Alexandria Quartet, Faber and Faber, p.614

هل وقع هذا الخطأ سهوا، أم أن المترجم أراد التخفيف من وقع الجملة العنصرية؟

٥ ـ «الحي الأوروبي من المدينة» في ترجمة فخري لبيب

لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «بلتازار»، ترجمة فخري لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٢٢٧

٦ ـ لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «جوستين»، ترجمة فخري لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٧١

٧ ـ نفس المرجع، ص ١٠٥

٨ ـ فخري لبيب ترجم «الحي المحلي» the native quarter بـ «الحي الوطني» فيما قد تكون سهوة مترجم تعبّر أفصح تعبير عن اختلاف وجهات النظر لنفس المدينة.

لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «جوستين»، ترجمة فخري لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٢٠٦

٩ ـ نفس المرجع، ص ٢٤

١٠ ـ خالد فهمي، «روح الإسكندرية ورائحتها»، مجلة أمكنة، العدد السابع، ص٩٧

١١ ـ نفس المرجع، ص٦٤

١٢ ـ لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «جوستين»، ترجمة فخري لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٧١

١٣ ـ لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «كليا»، ترجمة فخري لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ١٨٤

١٤ ـ لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «جوستين»، ترجمة فخري لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ١٨

١٥ ـ لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «كليا»، ترجمة فخري لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٢٦٧

١٦ ـ نفس المرجع، ص ١٨٣

١٧ ـ M. Volait, La communauté italienne et ses édiles, in "Alexandrie, entre deux mondes" Revue de l'occident musulman et de la Méditerranée, 4ème trimestre 198, n*46, p ١٣٨.

١٨ ـ نفس المرجع، ص١٣٨.

١٩ ـ Préface, inédite en français, par Lawrence Durrell à une réédition de Alexandria: a History and a Guide, de E.M Forster, éd. Michael Haag, Londres, 1982, 86, p ١٤.

٢٠ ـ لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «جوستين»، ترجمة فخري لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٧٠

٢١ ـ «الإسكندرية، عاصمة الذكرى» في ترجمة فخري لبيب

لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «جوستين»، ترجمة فخري لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ٢٠٩

٢٢ ـ لورانس داريل، «رباعية الإسكندرية»، «ماونت أوليف»، ترجمة فخري لبيب، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢، ص ١٨١

٢٣ ـ Diane Singerman and Paul Amar, "Constesting Myths, Critiquing Cosmopolitanism, and Creating the New Cairo School of Urban Studies", Introduction for "Cairo Cosmopolitan, Politics, Culture, and Urban Space in the New Globalized Middle East", Edited by Diane Singerman and Paul Ammar, AUC Press, 2006, p ٢٩.

٢٤ ـ نفس المرجع، ص٢٩

٢٥ ـ نفس المرجع، ص٢٩

٢٦ ـ Walter D.Mignolo, "The many faces of cosmo-polis: Border thinking and Critical Cosmopolitanism.", in Cosmopolitanism, ed. by Carol A. Breckenridge, Sheldon Pollock, Homi K. Bhabha and Dipesh Chakrabarty, Duke University Press, ٢٠٠٢.

٢٧ ـ إدوار الخراط، إسكندريتي، دار ومطابع المستقبل، ١٩٩٤



كورنيش الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية حيث عاش لورانس داريل

■ الصور المنشورة من كتاب Vintage Egypt Cruising The Nile, Flammarion, 2003

"أنغام إيرانية"

مصطفى اللباد

تخاطب السياسة المصالح الضيقة لشريحة أو فئة اجتماعية محددة، وفى أحسن الأحوال المصالح الوطنية لبلد ما، أما الموسيقى فهى تخاطب الوجدان والمشاعر العليا للبشر بغض النظر عن خلفياتهم الاجتماعية وانحيازاتهم الأيديولوجية. وبتطبيق هذه المقولة على الحالة العربية-الإيرانية نجد أن الموسيقى ربطت بين الحضارتين العربية والفارسية برباط لم تفلح السنون فى فصم عراه، إذ مازالت مقامات «راست» و«نهاوند» و«سيكا» شاهدة على عمق علاقات العرب مع إيران تاريخيًا وموسيقيًا يمكنك اليوم أن تلاحظ أهمية الموسيقى فى الحياة الثقافية والوجدانية للإيرانيين الذين يعشقون الموسيقى الكلاسيكية، والمترادفات التالية: موسيقى سنتى إيرانى، أو موسيقى أصيل إيرانى، أو خنياى باستانى إيرانى، تشير كلها إلى معنى واحد: الموسيقى الكلاسيكية الإيرانية. عشق الإيرانيين لتراثهم الموسيقى الكلاسيكى ظاهر وواضح بحيث يمكنك أن تكتشفه بسهولة ومن زيارتك الأولى لإيران، وحتى المثل الفارسى البليغ يقول: «شيئان لا يمكنك إخفاؤهما: العشق والسعال».

ترجع معرفة إيران بالموسيقى إلى زمان مملكة عيلام التى قامت فى إيران قبل أكثر من ٣٠٠٠ سنة، ومن وقتها يعتبر علم الموسيقى أحد فروع علم الرياضيات، وهو ما جعل للموسيقى مكانة مرموقة فى المجتمع الإيرانى من وقتها وحتى الآن. وهكذا استمر هذا التقليد متبعاً فى مملكة الإخمينيين؛ حيث كتب المؤرخ الإغريقى الشهير هيرودوت أن الموسيقى كانت منتشرة فى ذلك الزمان، كما تفيد بعض المراجع التاريخية الإيرانية أن المطربين المتجولين كانوا محبوبين فى فترة مملكة البارثيين.

وشهد عصر مملكة الساسانيين ذروة التطور الموسيقى الإيرانى، حيث بلغت الموسيقى الإيرانية وقتذاك حداً فاصلاً من التطور، بحيث إن أسماء أهم موسيقييها مازالت خالدة فى وجدان الإيرانيين حتى اليوم مثل: باريد وسركاش وبامشاد ورامتين.

كان باريد الموسيقى الإيرانى الأشهر فى مملكة الساسانيين، والذى ابتكر أول نظام موسيقى فى العالم وأسماه «سرود خسروانى»، أى «خسرو الملكى» نسبة إلى الملك الفارسى خسرو الثانى، أو ما يعنى بالعربية الطرق الملوكية. وبموجب هذا النظام ابتكر باريد ٣٦٠ نغمة على أساس نغمة واحدة لكل يوم من أيام السنة، مع ملاحظة أن التقويم الفارسى يعرف السنة على أنها مجموع اثني عشر شهراً، بحيث يكون لكل شهر ثلاثون يوما فيكون المجموع ٣٦٠ يوماً. ولم تحتسب الأيام الخمس الأخيرة من السنة حسب التقاليد الفارسية القديمة؛ بل يتم الاحتفال فيها، وهكذا كان اختراع باريد كافياً للسنة كلها بشكل أو بآخر. وطبقا للأسطورة الفارسية المتوارثة فقد خاطر باريد بحياته عندما اضطر إلى إخبار الملك خسرو برويز بموت حصانه الأثير «شبديز»، ولكن ليس بطريقة اعتيادية هى مجرد إخباره بالحقيقة، بل عن طريق أغنية ألفها خصيصاً لهذه المناسبة الحزينة على قلب الملك.

الموسيقى الآخر الشهير من هذه الحقبة التاريخية كان بامشاد؛ الذى دأب على عزف الموسيقى عند غروب الشمس لإدخال البهجة فى قلوب الإيرانيين. وبسبب هذا الدأب فقد أطلق الإيرانيون عليه هذا الاسم الجميل والمركب من اسمين هما (بام) أى الغروب، والسعادة (شاد). أما سركش فكان أول الموسيقيين الأربعة فى عصر الملك خسرو برويز وسبق باريد فى منزلته عند الملك، حيث ساعدته أصوله الأرمينية مثله فى ذلك مثل شيرين، زوجة وحبيبة الملك خسرو، على احتلال هذه المكانة. وبالرغم من الروابط العائلية التى تميز بها سركش وقرابته لشيرين فضلاً عن عذوبة موسيقاه، فإن باريد تميز عن كل أقرانه وخلد اسمه فى تاريخ الموسيقى الإيرانية والشرقية بسبب اكتشافه للمقام الموسيقى واختراعه لإيقاع الدستكاه. وتتكون كلمة دستكاه من كلمتين هما (كاه) أى موقع و(دست) أى اليد فيكون المعنى النهائى للكلمة موقع اليد. والدستكاه يشبه كثيراً المقام الموسيقى العربى، ولكنه يتكون من اثنى عشر نوعاً أساسياً هم: بيات ترك، بيات أصفهان، بيات كرد، سكاه، جهار كاه، راست بنج كاه، شور، ماهور، همايون، داشتى، نوه، أفشارى.

برع الموسيقيون الإيرانيون وزاد تأثيرهم فى موسيقى المنطقة، بعد تحول دولة الخلافة الإسلامية من دمشق عاصمة الأمويين إلى بغداد عاصمة العباسيين. ويعتبر أبو الحسن على بن نافع الشهير بلقب زرياب، أهم موسيقى فى هذه المرحلة التاريخية. كان زرياب عبقرياً وموسيقياً وشاعراً ومصمماً للأزياء فى آنٍ معاً، وتعنى كلمة زرياب بالعربية «الطائر الأسود»، أما بالفارسية فتعنى ذات الكلمة «مكتشف الذهب». اعتبر زرياب تلميذا نجيباً للموسيقى الشهير إسحاق الموصلى، ولكن بعد ذيوع شهرته التى فاقت شهرة أستاذه، فقد سافر من البلاط العباسى بعد وفاة الخليفة العباسى الأمين إلى بلاد الشام، ومنها إلى تونس ليعمل فترة قصيرة فى بلاط زيادة الله (٨١٦-٨٣٧)، ومن هناك سافر زرياب أخيراً إلى بلاط عبد الرحمن الثانى فى الأندلس حيث طور آلة العود فأدخل وتراً خامساً عليها، كما أدخل آلة اللوت الفارسية التى أصبحت الجيتار الإسبانى لاحقاً. ولم يكن زرياب موسيقياً صاحب ذائقة استثنائية فى الموسيقى والطرب فقط، بل أيضاً فى تذوق الطعام وفى تقاليد وآداب المائدة.

أدخل هذا الفنان النابغة تعديلا على المائدة الأندلسية فأصبحت تتكون من ثلاثة أطباق متتالية هى: أولاً الحساء، وثانياً الطبق الرئيسى، ثم آخيراً طبق الحلويات، وهو تقليد مازال مستمراً فى إسبانيا الحالية وحتى اليوم. وبعد زرياب استمر صعود نجم الموسيقيين الإيرانيين فى الحضارة الإسلامية بشكل عام، ويعرف التاريخ أسماء علماء موسيقيين كبار أمثال أبو نصر الفارابى، وابن سينا، وقطب الدين الشيرازى، وعبد القادر المراغى. واستمر التواصل الموسيقى بين أجيال إيران وحقبها الزمنية قائماً، حيث كان الأستاذ ينقل لتلاميذه الأنغام التى توارثها عن الأجيال التى سبقته، فعاشت الأنغام الإيرانية لقرون طويلة. ويعتبر محمد رضا شجريان المطرب الإيرانى الأشهر حالياً، وهو تتلمذ على يد الموسيقار قمر الملوك وزيرى والمطرب الشهير إقبال سلطان أذار، وكلاهما تتلمذ على يد موسيقيين إيرانيين أقدم وهكذا.

المهم وعودة إلى الموضوع، فقد لعبت الصدفة دوراً تاريخياً هاماً واستثنائياً حيث اكتشف الموسيقى والعالم الإسلامى الإيرانى الفارابى، بعد خمسة قرون من موت باريد، التراث الموسيقى الكبير الذى خلفه ذاك العبقرى والمكون من ٢٠٠٠ نغمة، مازالت تعيش كلها حتى يومنا هذا حية فى الموسيقى الإيرانية. استمرت المكانة السامقة للموسيقى فى المجتمع الإيرانى، وفى عصر القاجاريين الذى برع كل من: أحمد قزوينى، ومظفر قمى، ومحمد مؤمن وهاشم قزوينى فى النغم والطرب، وما زالت أعمالهم حاضرة أيضاً فى الموسيقى الإيرانية التقليدية الراهنة. ولا يزال المقام الموسيقى الإيرانى حياً إلى اليوم بنفس الشكل الذى طوره وكتبه الموسيقى الإيرانى ميرزا عبد الله فرهانى (١٨٤٣-١٩١٨) فى عهد القاجاريين أيضاً.

حجرة الطرب

تقع أصفهان المدينة فى وسط إيران حيث تبعد عن العاصمة طهران بحوالى ٤٣٠ كيلومترا، ويطلق الإيرانيون على المدينة «نصف جهان» أى نصف العالم. تستكين أصفهان على سهل نهر نايانزارود (النهر الخالد) وفى أحضان جبال زاجروس الشاهقة. إلى الغرب والجنوب من المدينة تنتصب جبال بختيارى، أما الشرق والشمال فيفضيان إلى الصحراء التى تحيط بأصفهان وتحتل وسط الجغرافيا الإيرانية وتشكل غالبية المساحة الجغرافية لإيران. بعد الفتح الإسلامى اكتسبت أصفهان أهميتها السامقة فى تاريخ وثقافة إيران، إذ فى الفترة الواقعة ما بين القرن السابع والقرن العاشر الميلادى اشتهرت أصفهان بالحرير والقطن، بسبب وجودها على طريق الحرير الشهير. ثم سقطت المدينة الجميلة ضحية للغازى تيمور لانك فى العام ١٣٨٨، ففقدت أهميتها إلى حين. وعادت لأصفهان أهميتها وأكثر مع استيلاء الصفويين الذين حكموا إيران طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فاكتسبت أصفهان من وقتها معانى تتعدى الحدود السياسية لإيران. وقتذاك قام الشاه عباس الأول، أو عباس الكبير كما تطلق عليه المراجع التاريخية، باستقدام الصناع المهرة وبعشرات الألوف إلى المدينة. التى أعلنها عاصمة لملكته. جعل الصفويون إيران عاصمة لهم فى نهاية القرن السادس عشر، وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر تم بناء أغلب المساجد الأصفهانية، تلك التى تميز المدينة بطرازها الإيرانى الفريد وقبابها الفارسية ذات اللون الأزرق المميز. وفى عام ١٧٢٢ سقطت أصفهان بيد الأفغان،

الموسيقى ربطت بين الحضارتين العربية والفارسية برباط لم تفلح السنون فى فصم عراه.
إذ مازالت مقامات «راست» و«نهاوند» و«سيكا» شاهدة على عمق علاقات
العرب مع إيران تاريخياً وموسيقيا



الذين قضوا على الدولة الصفوية، تلك التى صاغت وجدان إيران كما لم تفعل أى دولة من قبلها أو بعدها. وعلى أنقاض الدولة الصفوية ظهرت الدولة الزندية والدولة الأفشارية، ففقدت أصفهان مكانتها كعاصمة لإيران لمصلحة مشهد وشيراز ومن بعدهما طهران.

وبالرغم من انتهاء عصر الصفويين ودولتهم، فقد تركوا أثرهم العميق على أصفهان ووجدانها، ولذلك تعد مدينة أصفهان المقر الروحى لوجدان الموسيقى الإيرانية. فى أصفهان تستقر حجرة الطرب الرائعة فى قصر «عالى قابو» (المدخل العالى)، وهى المشغولة بحرفية تأخذ الألباب وبحيث يتعرج الهواء فى سقف الغرفة، فيرتد إلى المستمع بشكل فريد. وبالإضافة إلى ذلك توجد جدارية الموسيقى، التى تمثل فرقة موسيقية إيرانية كاملة، فى قصر «جهل ستون» (الأربعون عموداً). وكلا المعلمين يوضح بشدة المكانة المركزية للموسيقى فى الوجدان الإيرانى عموماً، وفى الحقبة الصفوية خصوصاً. والطريف أن عدد أعمدة القصر هى عشرون فقط، ولكن الأعمدة تنتصب فى مقابل بركة مياه تعكس صورتهم مرتين، فيخال الناظر إلى الأعمدة على صفحة المياه فى البركة أن عددها أربعون. تصل أخيراً إلى ميدان نقش جهان الذى يوجد فيه قصر «عالى قابو»، فينعقد لسانك من فرط الدهشة. يبلغ طول الميدان ٥٠٠ متر وعرضه ١٥٠ متراً، وهو تحفة فنية فريدة على مساحة ضخمة، إذ تصطف المبانى التاريخية على الجوانب الأربعة للميدان. يحتل مسجد الشيخ لطف الله موقع الشرق من الميدان، وعندما تقف فى مدخل المسجد تستطيع ملاحظة أن القبة ترجع صدى الصوت سبع مرات عند وصوله إليها. ويقع قصر «عالى قابو» إلى الغرب من الميدان، ويحتوى القصر على غرفة الموسيقى الفريدة من نوعها فى العالم. أما جامع عباسى بعمارته الفريدة وقبته التى استغرق بناؤها ستة عشر عاماً فيحتل جنوب الميدان، وبالتالى فالميدان فريد من نوعه فى العالم حيث يحتوى على معالم فنية رائعة وذات قيمة تاريخية فائقة متجاورة إلى جانب بعضها البعض، ولذلك فقد أعلنت اليونسكو الميدان كله جزءا من التراث العالمى. تترك أصفهان متوجهاً إلى طهران وقد استقرت فى ذاكرتك صورة العازفات الإيرانيات، بملابسهن ذات

كتاب الزاوية

فضائل الصمت

كتاب النصيحة

اعلم يا بنى أن المرء بغير نفع ما دام بغير فضل، كشجرة المغيلان (لعلها العوسج) التى لها جذع وليس لها ظل، لا تنفع نفسها ولا غيرها. وذوو النسب والأصل ولو كانوا عديمى الفضل لا يجزمون احترام الناس. وأسوأ ما يكون المرء ألا يكون له أصل ولا فصل. ولكن ينبغى الاجتهاد فى أن تكون جوهرًا بشخصك حتى ولو كنت أصيلاً عريقًا: لأن جوهر الشخص خير من جوهر الأصل، كما قالوا (الشرف بالعقل والأدب لا بالأصل والنسب)، فإن العظمة للعقل والعلم لا للعنصر والأصل. ولا تكن تبعًا للاسم الذى وضعه أبواك، فذاك الاسم علامة، والاسم حقًا هو ما تخلعه على نفسك من الفضل، حتى تلقى باسم أحمد ومحمد وموسى وجعفر على أستاذ فاضل أو حكيم كامل، فإذا لم يكن لذى الأصل جوهر الفضل، فإنه لا يليق بصحبة أحد، وتشبث بكل من فيه هذان الجوهران، ولا تدعه من يدك، فإنه ينفع كل إنسان.

اعلم أن الفضيلة الأفضل من جميع الفضائل هى الكلام؛ لأن الخالق جل جلاله خلق الآدمى أفضل من كل مخلوقاته، والإنسان الذى نال الفضل على سائر الحيوان ناله بعشرة أشياء فى بدنه: خمسة من الباطن وخمسة من الظاهر؛ فالخمسة الخفية مثل الفكر والتعليم والحفظ والتخيل والنطق، وتلك الخمسة الظاهرة مثل السمع والبصر والشم واللمس والذوق. وما يكون لسائر الحيوان من هذه كلها لا يكون على هذه الجملة، فصار الإنسان لهذا السبب ملكًا قاهرًا على سائر الحيوان. فإذا عرفت ذلك فتعلم الفضل وتعود فضائل اللسان، لأن لسانك يقول دائمًا ما تجرى عليه، فقد قيل أحسن الناس لسانًا أكثرهم فضلاً، واجتهد مع كل فضائلك فى أن تقول الكلام فى موضعه، فإن الكلام إذا كان جيدًا ولم يكن فى موضعه فإنه يبدو قبيحًا. وآثر الصمت على الفضول، إذ إن الكلام غير النافع ضرر كله، والكلام الذى لا تأتى منه رائحة الفضل من الخير أن لا يقال.

الألوان الزرقاء والصفراء والحمراء وهن يعزفن على الآلات الموسيقية الإيرانية الكلاسيكية كما هو مرسوم على جدران قصر «هشت بهشت» أو الجنات الثمانى باللغة العربية.

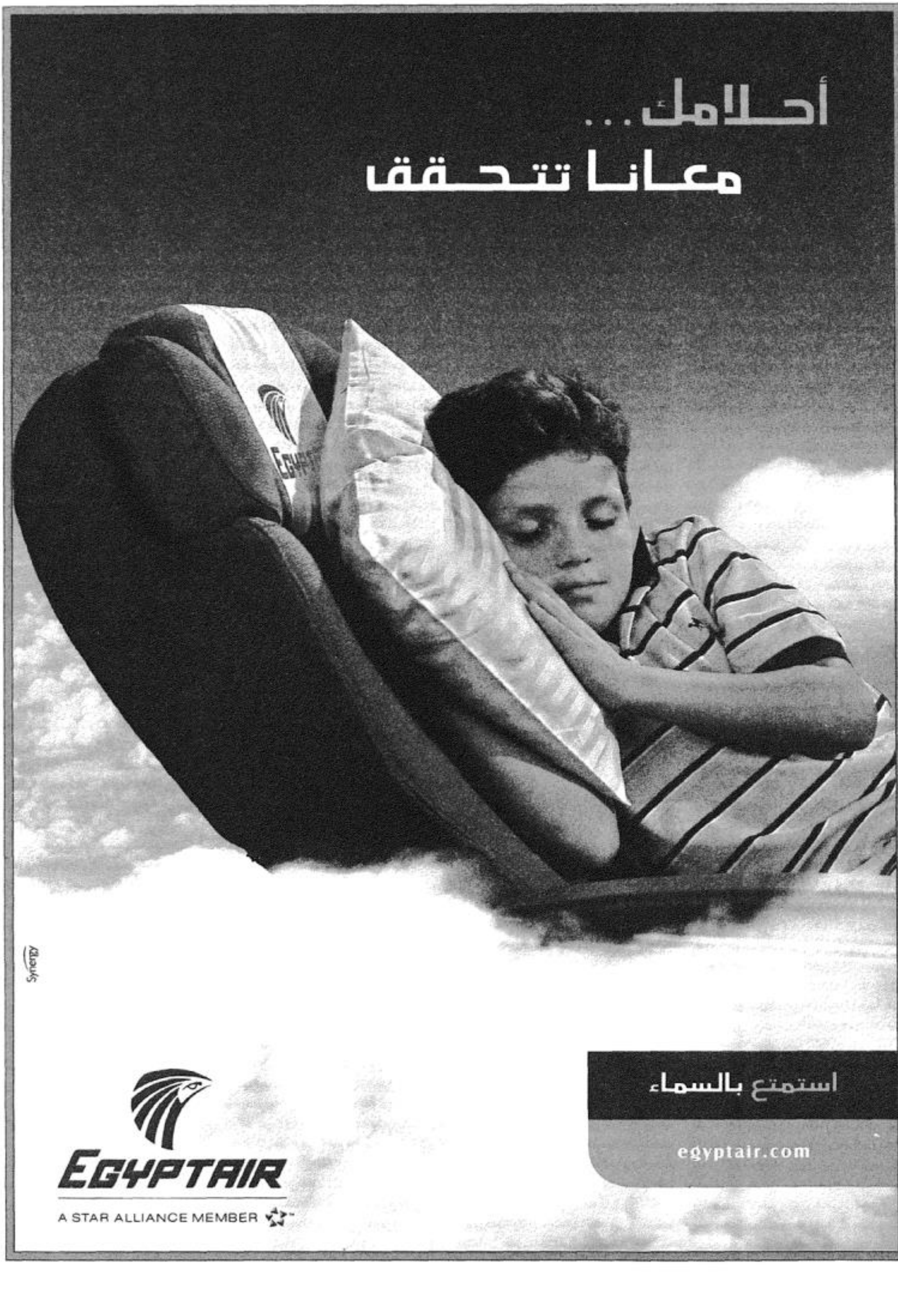
السنتور والأستاذ!

ينتهى بك المسير من وسط العاصمة الإيرانية طهران إلى ميدان «بهارستان»، لأتوقف كى أنظر إلى مبنى البرلمان الإيرانى القديم ومسجد «سباه سالار» الذى كان مسرحاً للثورة الدستورية فى إيران قبل مائة عام. تترك السياسة على يمينك، وتدلف من الميدان يساراً بعد أن طال بك المسير فى طهران. تتسلح بالمثل الفارسى عميق الدلالة والذى يقول «الصبر شجرة جذورها مرة ولكن ثمارها رائعة المذاق». فقد بحثت كثيراً فى المراجع التاريخية وفى دليل مدينة طهران بعد أن سألت فى المعهد العالى للموسيقى. أخيراً تمر بجوار محلات بيع الأدوات الموسيقية الإيرانية التقليدية الواقعة بالقرب من الميدان، وتتجاوز ثلاثة منها قبل أن تجد محل «الأستاد فروغى»، ويستعمل الإيرانيون كلمة «أستاد» كدلالة على الموسيقار، وهى فى حالتنا هذه تناسب المقام تماماً وتنطبق على الأستاد فروغى أقدم صانعى الآلات الموسيقية فى إيران. تدخل إلى المحل حابساً أنفاسك وعازماً على شراء آلة السنتور، وهى آلة موسيقية وترية تشبه آلة القانون العربية، ولكنها تختلف عنها فى طريقة العزف. وإذ يعزف على القانون عبر تثبيت ريشتين فى سبابة كلتا اليدين للنقر بهما على الأوتار، فإن السنتور يتطلب العزف عليه النقر على الأوتار بمضرابين صغيرين من الخشب باستعمال السبابة والإبهام. ولكل منهما موقعه فى الموسيقى، فالأول هو سلطان الطرب العربى، والثانى هو سلطان النغم الإيرانى. تصطف الآلات الموسيقية بالمحل فى نظام دقيق، إلى اليسار آلات العزف الوترية مثل البربط والستار والتار والدوتار والطنبور، وإلى اليمين آلات العزف مثل الكمنجة والغيجك ومعها آلات النفخ الإيرانية مثل: سورناى، الناى، البالابان، الدونالى، دوساله. تلحظ أيضاً آلات الضرب مثل الدف، التمباك، وأخيراً وفى الوسط تجد السنتور محتلاً مكانه البهى فى محل الاستاد فروغى وفى الموسيقى الإيرانية.

تطور شكل آلة السنتور بمرور الأزمان، فقد نشأت على شكل علبة مستطيلة ذات أوتار معدنية، حتى وصلت إلى شكلها الحالى أى صندوق غير متساوى الأضلاع مصنوع من خشب الجوز وأوتاره من البرونز، وهى متساوية فى السماكة وعددها اثنان وسبعون وتراً (مع أن كلمة السنتور تعنى مائة وتر باللغة الفارسية).

تنتشر فرق الموسيقى الإيرانية الكلاسيكية سواء حول العالم أو فى إيران، وكلها تعتمد على الآلات الكلاسيكية مثل السنتور، وتعد الفرق التالية هى الأشهر: فرقة عارف، فرقة همايون، فرقة ذو الفنون، فرقة دستان، فرقة شمس، وفرقة مهر للموسيقى الكلاسيكية التى تتكون من النساء فقط. والمستمع إلى هذه الفرق المختلفة فى طهران أو أصفهان أو حتى برلين وباريس ونيويورك يجد أن الموسيقى الإيرانية مازالت حاضرة فعلاً فى الوجدان الإيرانى، ومازالت امتداداً طبيعياً للموسيقى الإيرانية الكلاسيكية منذ عصر الإخمينيين والساسانيين وحتى الآن. تداعب يدا الصانع مضرابى السنتور ليجربه لك قبل البيع، فتهبط وتصعد بخفة وتنتقل على أوتاره برشاقة مطلقة أروع وأعمق النغمات، فى تلاحق وإحكام وانتقال من طبقة إلى أخرى ومن نغمة إلى غيرها. يخيل إليك وكأن أشهر العازفين الإيرانيين صاروا يحيونك بطريقتهم المفضلة، هنا تلحظ أسلوب فرامرز بايور وبرويز مشكاتيان، وفى هذه القطعة يخيل إليك وكأن مجيد كيانى وحسين مالك قد قاما من رقادهما الأبدى لتحيتك، وفى هذه الجملة المليئة بالعواطف تشعر وكأن كاظم داوديان ومنوجهر صادقى قد ألفاها لأجلك أنت. يختتم الصانع جملته الموسيقية الطويلة بالنهاية على طريقة الأستاذ ميرزا على أكبر شاهى: بقوة ورقة فى آن معاً. تخرج من محل الأستاد فروغى بأحسن مما دخلته حاملاً معك آلة سنتور من صنع يديه، وممنياً النفس بتعلم العزف على السنتور على خلفية أغانى الموسيقار الإيرانى محمد رضا شجريان والمطرب المعروف شهرام ناظرى وعاشق السنتور المغنى جمشيد عندليبى.

تجلس فى القاهرة وهذه النغمات لا تنى ترن فى رأسك، كأنها حلم سرمدى عابر للمكان متنقل بين طهران والقاهرة... ومخترق للزمان بين باريد وشجريان. ■



أحلامك...
معانا تتحقق
استمتع بالسماء
egyptair.com
EGYPTAIR
A STAR ALLIANCE MEMBER

سامية أبو زيد

الكتابة على الهواء!

■ بعد حوالى خمس سنوات متصلة من الكتابة فى صفحة الرأى بجريدة الأخبار، قمت بمغامرة الكتابة على الهواء على سبيل التجربة، وذلك بسبب ما جبلت عليه من حب الاستطلاع وزادته قوة، دراستى العلمية التى تعتمد بالأساس على التجربة والمشاهدة والاستنتاج، فكان أن ارتميت فى محيط شاسع اسمه المنتديات الثقافية والتى تنتشر بصورة كبيرة وفى تنام مستمر.

وقد خرجت منها مؤخرا بعد أن أحصيت النتائج المترتبة على مشاهداتى فى تلك التجربة التى استمرت طيلة عامين فى أكثر من منتدى، وهاك خلاصة تلك التجربة كى لا نغض الطرف عن عنصر بات شديد التأثير فى المشهد الثقافى.

أعضاء وأرقام

تتفاوت المواقع الأدبية والمنتديات وتكتسب ثقلها وفقا لعدة عوامل على رأسها عدد الأعضاء الكلى وعدد الأعضاء النشطين به، فقد تجد منتدى يضم خمسة آلاف عضو لكنه فى حقيقة الأمر يقوم على أكتاف ما لايزيد على الثلاثين عضوا، مما يجعل انقطاع عضو منهم عن المشاركة حدثا يسبب خللا فى حركة الموقع ويصيبه بالركود وقد يصاب بالانهيار.

ويكتسب العضو مكانته تبعا لعدد المشاهدات أى الزيارات وكذا عدد مشاركات الأعضاء الآخرين أى ردودهم على موضوعه سواء كان قصة أو شعرا أو نثرا أدبيا يسمونه الخاطرة إلخ.. وهذا يقودنا إلى ظاهرة أخرى سوف نتطرق إليها فى حينها. ويبقى الكلام عن محركات البحث ،مثل جوجل Google وخلافه، باعتبارها من مؤشرات نجاح الموقع، فكلما ظهر الموقع فى الصفحات الأولى لمحرك البحث كلما كان ذلك دليلا على نجاح الموقع وانتشاره.

ومن الظواهر المثيرة للعجب فى بعض المواقع تعدد المستخدمين للعضو الواحد، فقد يسجل العضو تارة بشخصية رجل وتارة أخرى بشخصية فتاة أو امرأة، وأحيانا يكون ذلك بفعل الإدارة نفسها التى تريد تضخيم عدد الأعضاء للوصول لمحركات البحث المذكورة بأيسر السبل وأسرعها، ولكن مع الوقت يتم انكشاف المخبوء ويفقد الموقع احترامه ومصداقيته، بيد أن المقلق فى الأمر ليس فى المواقع وإنما فى المستخدمين، فالمواقع التى تبتغى اكتساب سمعة طيبة، تحترز لهذا الأمر وتراقب ما يعرف بالـIP للمستخدمين وتوقف العضو الذى يثبت عليه التسجيل بأكثر من اسم (مستخدم) ولكن هيهات، فقد يحدث أن يختلف عضو ما مع الإدارة ويتم إيقافه فيظل يسجل بعدة أسماء وهمية ويعيث فى الموقع فسادا، وتظل الإدارة فى حالة استنفار دائمة لمحو تجاوزات العضو، وينتهى الأمر بغلبة البلطجة وينهار الموقع أو ترضخ الإدارة وترفع الحظر عن العضو المهووس.

والقول بأنه مهووس ليس من قبيل المبالغة، فالبعض قد أصبح شغله الشاغل المنتديات ولا غنى له عنها.

تلك الشخصيات المتهوسة لا يقتصر هوسها على التسجيل فى أكبر عدد ممكن من المنتديات والبقاء أمام الشاشة ليل نهار، بل يصبح الأمر حالة من الخبل وخداع النفس، فتجد العضو المذكور يسجل كما أسلفنا بأكثر من اسم ومن ثم يبدأ فى مدح أعماله باعتباره شخصا آخر، ويكيل المديح لنفسه ويثنى على عبقريته وشاعريته الفذة، ويبقى موضوعه فى الصفحات الأولى دائما، بل وقد يصل به الأمر إلى ما يشبه الفصام فيدخل فى صراع مع نفسه حول كلمة ما لينتصر فى النهاية لعمله المعروض. ولا يهمه فى ذلك الوقت سوى أن يرفع من عدد مشاهداته وعدد الزيارات ولفت أنظار الأعضاء الآخرين الذين يلتقطون الطعم ويبدأون فى التعليق والمشاركة ويصل بالتالى لمأربه وهو لفت الأنظار بأى ثمن.

ومن أوجه الهوس المختلفة وخداع النفس قبل خداع الآخرين، انتشار لصوص الكلمات، الذين يسطون على أعمال أعضاء آخرين فى منتديات أخرى وينسبونها لأنفسهم ويقومون بالرد على معجبيهم بصفاقة مدهشة. ومن أعجب ما مر بى فى هذا الباب، تلك الواقعة التى قام فيها عضو بالسطو على شعر عضو آخر فى موقع مختلف وحاول التذاكى بتغيير بعض الكلمات، إلى هنا والسرقة على قدر من الذكاء، لكن يبدو أنه كان ذكاء مؤقتا، إذ لم يكتف بالسطو على العمل الأصلى، بل قام كذلك بالسطو على ردود صاحب العمل رغم ابتعادها كل البعد عن الكلام الدائر فى متصفحه!!

ولولا قيام صاحب العمل الأصلى بالتسجيل فى المنتدى دفاعا عن كلماته وفضحا لذلك العضو، لما انكشف أمره رغم الريبة التى وقعت فى نفوس البعض للتفاوت البين بين القصيدة المسروقة ولغة العضو المعروفة لدى سائر الأعضاء.

كذلك حالة أحد هؤلاء اللصوص الذى مارس لصوصيته بغباء قل أن ترى مثله، إذ كان يقوم بالسطو على كل ما يروق له وينقله كما هو بأخطائه، وما كشف أمره التفاوت المذكور، فتارة تجد له قصيدة بالفصحى موزونة مقفاة وتتمتع بلغة فصيحة بليغة، وتارة أخرى ترى له «قصيدة» لا تنتمى لعالم الشعر ولا إلى اللغة العربية إن شئت الصدق، والأدهى من هذا وذاك «إبداعاته» فى الشعر العامى، فحينا يقوم بالسطو على قصيدة بالعامية المصرية وحينا آخر يقوم بالسطو على قصيدة من الشعر النبطى، والكل يهلل ويصفق ولا يدرى ما الأمر ولكن إلى حين، إذ سرعان ما افتضح أمره وتم إيقافه. ومن المؤكد أن مثل هذا المسلك إنما ينتج عن صعوبة المتابعة فى المقام الأول وكذلك نتيجة لعدم معرفة الكثيرين بالشعر ومدارسه المتعددة، بل وعدم معرفتهم فى بعض الأحيان باللغة العربية السليمة نفسها.

وبين المكرر والمنقول والمسروق تطول رحلة البحث عن موضوع يستحق القراءة، أى كما يقال فى المثل العامى «زى الخروب قنطار خشب ودرهم حلاوة». والخشب هاهنا يتم حرقه، وأعنى به الوقت المستهلك فى رحلة البحث، وكما يتلوث الجو ويقل الأكسجين لدى احتراق الخشب، كثيرا ما يحترق الوقت فى مطالعة أفكار سطحية والأخطر منها الأفكار المسمومة التى تسعى لبث الفرقة وتدعو للتعصب، مثال ذلك المواقع التى تروج لأفكار دينية ومذهبية وكذلك المواقع التى تعتنق حرية الرأى وشعارات الرأى والرأى المضاد، دون أن تكون هناك حرية رأى حقيقية وفى غياب الحوار الهادئ العقلانى. بل على العكس من ذلك قد تتربص ببوادر الخصومة وتغض الطرف عن المهاترات التى تدور كى تضمن ارتفاع نسبة المشاهدات والمشاركات، بل قد يصل الأمر أحيانا لافتعال أزمة حتى تنشط موضوعا ما أو تحيى أحد الأقسام المهملة، فلا تتدخل الإدارة إلا بعد خراب مالطة كما يقال، وبعد أن تتجافى النفوس ويحل التربص محل المودة.

حروب المنتديات

ليس شرطا أن تندلع الفتنة فى الموقع بين الأعضاء الذين يحرصون فى كثير من الأحيان على الإبقاء على المودات والمجاملات بين بعضهم البعض، ولكن قد تأتى الفتنة من الخارج من قبل أطراف تندس فى الموقع وتلقى بسهامها المشتعلة بين صفحات الموقع. وكما يقال فتش عن الدافع، فبعض هذه الأطراف قد يكون عضوا موقوفا وموتورا من المتهوسين المذكورين آنفا، أو من مواقع منافسة والبعض الآخر يكون عميلا لجهة ما سواء مخابراتية أو حزبية أو طائفية، ويظهرون فجأة وتراهم عارفين بالأعضاء



وأسمائهم بل ومللهم وتوجهاتهم الفكرية، لذا يبدأون بالضرب بقوة وبعنف، مثال ذلك ما حدث فى أحد المنتديات إبان الحرب اللبنانية الإسرائيلية (صيف ٢٠٠٦) والتفاف بعض القلوب حول حسن نصر الله والشروع فى ترسيمه بطلا قوميا، فى تلك الفترة بالتحديد ظهر من يجترئ على واحدة من الأعضاء والتى كانت تتمتع باحترام ومحبة الجميع، وأخذ فى الهجوم عليها بقسوة لمجرد أنها شيعية المذهب فى محاولة لبث الفتنة بين السنة والشيعة، فالفتنة بين المسلمين والمسيحيين قد أصبحت موضة قديمة وحيلة مكشوفة والأمضى منها والأفتك هو الصراع المذهبى.

وتصيب شظايا الكلمات السابحة فى فضاء المنتديات النفوس والقلوب، وكثيرا ما تدميها إما غضبا وحقدا كما أسلفنا، وإما عشقا وهو أمر غير نادر الحدوث، وذلك بفرض أن الشخصيات العاشقة هى شخصيات حقيقية بدون أقنعة زائفة، وأهمها أن يكون الذكر ذكرا فعلا والأنثى أنثى، فترى الكثير من الشخصيات المشاركة تخلق لنفسها اسما مثيرا للخيال وأحيانا تختار سنا تتقمصه وتتبرأ من حالتها الاجتماعية، وأحيانا تتغاضى عن تلك الحالة الاجتماعية وتفتح لكلمات الغزل أبوابها، والأهم من ذلك صندوق الرسائل الخاصة، وتشتد هذه الظاهرة بين صفوف الشعراء والمتشاعرين على وجه الخصوص، فترى أسماء بعينها تتابع موضوعات فلان وتتأوه عقب كل حرف يخطه هذا الفلان أو ذاك، وتبدأ سلسلة من الردود والمجاملات الخارجة عن أطر النقد الموضوعى لتصبح المسألة مجرد تفنن فى الاستحسان وتفننا أشد فى الرد على تلك المجاملات.

بيد أن الشظايا المتناثرة هنا وهناك لا تكتفى بإصابة القلوب وفتح صناديق الرسائل التى قد تتعرض فى بعض الأحيان للتلصص من قبل بعض الإدارات سرا أو جهرا، فهناك بعض المنتديات الجادة التى تشترط فى لائحتها أن تكون صناديق الرسائل خاضعة للرقابة من قبل الإدارة، ومنتديات أخرى تشترط عددا معينا من المشاركات قبل تفعيل خاصية إرسال وتلقى الرسائل، وغيرها التى ترى فى صندوق الرسائل أمرا شخصيا لا يهم سوى العضو نفسه، ولكن الأمر لا يقتصر على صناديق الرسائل بل يمتد لمناطق أخرى مكشوفة وظاهرة للعيان، سواء فى الردود أو فيما يعرف بالبوح أوالهمسات... إلخ.. من المسميات لصفحة تفتح وتتحول لساحة للدردشة، وهى ظاهرة متفشية فى منتديات كثيرة.

ومع ميلاد تلك الصفحة الحرة، وتحت شعار الفضفضة يبدأ الموقع فى الانهيار، وذلك رغم جاذبية تلك الصفحة، بل لعل السبب فى ذلك هو جاذبيتها، فهى تبدأ بهمسات بوح محببة وجميلة وتتيح للأعضاء التقارب وتكوين صداقات فيما بينهم، فيدخل الصفحة من يريد إزاحة كلمات جاثمة على قلبه، ولكن مع الوقت يبدأ الآخرون فى متابعة بعضهم البعض، ومحاولة استشفاف ما

مثل الدول تماما تبدأ رحلة المنتديات وتأخذ نفس دورتها فى الصعود والتمدد ثم الانهيار. ومثلها أيضا فى الثورات وفى الأحلام

وراء البوح من باب الفضول وحب الاستطلاع، فهذا فى حالة حب وذاك يرمى بسهامه نحو العضو الفلانى، ويتحسس رأسه كل ذى «بطحة»، ومن ثم يبدأ فى الرد المستتر، ثم يبدأ الغمز واللمز وهى تربة خصبة للشائعات والمشاحنات التى تتحول فى بعض الأحيان إلى معارك حامية الوطيس، وينسون فى غمار تلك المشاحنات والمحاسبات على تلك الكلمات التى يقولون إنهم إنما يكتبونها لأنفسهم، أنهم أسقطوا خصوصياتهم وأعطوا الآخرين حقا لم يكن لديهم، إذ لم يجبرهم أحد على هذا البوح، ولا يفترض بالآخرين العمى، فالكلمات مكتوبة ومتاحة للجميع وحق التأويل مكفول إما بالسلب أو الإيجاب، وحين يضيق بهم المكان ينطلقون إلى فضائهم الخاص المعروف بالماسينجر، حيث الكلام بحرية أكبر ومن هنا تبدأ الشللية فى التفاقم وتبدأ بقية الأقسام فى الركود حتى يصاب الجميع بالملل من القيل والقال فيتم البحث عن بديل.

تسالى.. تسالى

بعد إصابة الموقع المذكور بالركود يتفتق ذهن واحد من الأعضاء عن حل عاجل لتنشيط الموقع، فيقوم بنشر لعبة ما ويدعو الأعضاء للمشاركة فيها، فترى نشاطا وإقبالا على الموقع بعد الرتابة التى كان يعانى منها، ولكنه نشاط هستيرى أشبه بفورة النشاط لدى متعاطى المخدرات ومن ثم العودة إلى الخمول والركود، ومثلما يفتش المتعاطى عن صنف جديد أو يرفع من جرعة المخدر كى يستعيد الحالة المنتعشة التى كان يمنحها له المخدر، تجد المنافسة بين الأعضاء وقد احتدمت لا فى اللعبة الواحدة فحسب، بل فى ابتكار ونقل الألعاب من المواقع الأخرى بتعديل أو بدون تعديل، وهو أمر ليس شرا كله، فبعضها يعتمد على الذكاء وينشط الذهن ويضيف إلى العضو المتعة مع الفائدة، منها الألعاب التى تعتمد على اللغة أو تتمة بيت من الشعر، أو صاحب قول مأثور... إلخ، أما الشر كله فيكمن فى تلك الألعاب التى تعتمد على المشاركة وحسب، دون أية فائدة للعضو أو الموقع سوى استهلاك الوقت ورفع المشاهدات، من عينة لعبة المسدس، فمن يصل لرقم معين يصبح معه المسدس الوهمى ويقتل به من يشاء من الأعضاء، وفى تلك الحالة يبدأ السقوط الذى لا قيام بعده للموقع، حيث يبدأ فى فقدان الأعضاء الجادين ولا يبقى سوى غثاء السيل.

ومما سبق نجد أن الهدف من تلك المنتديات «الثقافية» قد سقط فى الطريق وأنها اتخذت منحى آخر حسب هوى الأعضاء وهو التسلية وقتل الوقت.

صعود وهبوط وهجرات

مثل الدول تماما تبدأ رحلة المنتديات وتأخذ نفس دورتها فى الصعود والتمدد ثم الانهيار، ومثلها أيضا فى الثورات وفى الأحلام، إذ تجد بعض الذين اجتمعت قلوبهم حول فكرة ما يحلمون بيوتوبيا فضائلية فيسعون لتحقيق الحلم، وإن هى إلا بضعة ترتيبات ومساحة على الشبكة العنكبوتية وبضع دعوات لمن يتوسمون فيه الخير حتى يبزغ نجم جديد فى عالم المنتديات، فيتسامع به الناس ويبدأون فى التوافد عليه، فيبدأ صغيرا مثل دولة فتية حين تعلن استقلالها عن امبراطورية منهارة أصابها الوهن، فتجد من يؤازرها ويدعمها من أنصار الكلمة «الحرة، والمبادئ النبيلة»، وكذلك من يحاربها ويرسل جواسيسه فى أثرها يندسون بين الأعضاء حتى يحين الوقت لتوجيه ضرباتهم.

ويحدث أن يتغير ولاء البعض وينخرط بصدق فى هذا المجتمع الفتى النضر بكل رونقه، فترى هجرة من المنتديات التى شاخت وأصابها الوهن إلى تلك المنتديات الفتية، التى تبدأ فى التوسع والتألق وجذب الأنظار بعد أن يتسامع الناس بالنجاح الذى حققته تلك المنتديات، ولكن....

مثل الدول تماما والامبراطوريات الكبيرة، يأتى الانهيار دائما من الداخل، فإلى جانب ما ذكرناه آنفا من عوامل انهيار المنتديات، نجد عاملا آخر شديد الأهمية بخلاف الشللية والأحزاب... إلخ.. هذا العامل يتمثل فى الاستبداد الذى يكون وليد النفاق وبالتالى ظهور ذوى المصالح وذوى الأهواء، والطامعين والمتسلقين لنجاح الموقع.

ومن ثم تبدأ الإدارة فى الافتتان بنجاحها فتقع فى



فخ الانفراد بالرأى، أو على العكس من ذلك انعدام الرأى ويصبح جل همها عدم فقدان عضو من الأعضاء ظنا منها أنها تبقى على الأعضاء الذين تعبت فى جمعهم، ليصبح المنطق السائد «الزبون دائما على حق»، فتعجز بالتالى عن إرضاء الجميع لتبدأ رحلة الانهيار.

فترى على الحالين استبدادا إما من الإدارة أو من الأعضاء دونما تناغم حقيقى وممارسة حقيقية لحلم الديموقراطية والكلمة الحرة.

ومما لا شك فيه أن الكثير من المواقع والمدونات وما شئت من المسميات المنتشرة عبر تلك الشبكة الهائلة، قد أذكت روح القول بلا خوف فصارت متنفسا لا يحده سقف رغم أنف الأنظمة، وهى قضية بذاتها، أعنى حرية التعبير وخاصة فيما يتعلق بالشئون السياسية والداخلية فى أى مكان، ولكن هل هناك حرية تعبير بالفعل؟ وهل تمارس بالشكل الصحيح؟ أم أنها شكل عشوائى من البوح لا أكثر؟؟

ويثور تساؤل ألا وهو: هل نحن على مستوى هذه الحرية؟ وفى المقابل تنهمر الأجوبة بين النفى والتأكيد، لكن كل ذلك لا يعنينا فى المشهد الثقافى الذى نحن بصدده إلا بقدر، كبر أو صغر، اشتد أو ضعف، فما يهمنا حقا هو شكل هذا التأثير.

فقد تجد فى أحد المواقع موضوعا يتسم بالجرأة سواء كان سياسيا أو دينيا أو أدبيا، من عينة الجدل حول الشعر ومدارسه... إلخ، أو قصة تحوى مشاهد ساخنة لا تزيد كثيرا أو قليلا عما هو مطروح فى الأسواق بل ويحصد الجوائز فى بعض الأحيان، وبعد، تجد أن الحرية التى تأملت أن تجدها تصطدم بمقص لا يختلف كثيرا عن مقصات الرقباء المعروفة، فمقص الرقيب قد يحذف جزءا من العمل أو يصادر العمل كله ولكن الجمهور يتحداه ويتداول العمل الأصلى سرا سواء فى حالات النشر أو فى الأعمال الدرامية، أما فى المنتديات فيتم حذف العمل بأكمله، وقد يكون الحذف متعسفا وخاضعا لهوى شخصى لا علاقة له باحترام الكلمة ولا القارئ.

وفى أحوال أخرى قد لا يكون الحذف بفعل الإدارة التى أسكرتها عبارات النفاق التى يتطوع بها البعض والسلطة الوهمية التى تمارسها فى تلك المملكة الصغيرة، بل يكون بفعل صاحب العمل نفسه لسبب أو لآخر، منها على الأرجح الخلاف مع بعض الأعضاء، وهاهنا يبرز تساؤل عن «حق الكلمة»، وهل هى من حق المبدع أم المتلقى أم الوسيط أى وسيلة النشر؟

وفى ظنى أن الكلمة إذا خرجت للنور تصبح كالوليد قتله حرام حتى وإن كان مشوها أو نغلا، فله حق البقاء، فهى قبل أن تخرج للنور تظل من حق المبدع وحده كالجنين تماما، ولكن إذا اكتمل وخرج للنور فلا يحق لأحد قتله تحت أية مسميات، ولكن هل تقف حدود الحرية عند القول فحسب؟

لغة جديدة.. قديمة

لا ينقطع الجدال عن الحرية ومفهومها وممارستها، وتمتد هذه الحرية لتصيب اللغة وقواعدها المعروفة، فترى انتشارا هائلا للكتابة بالعامية، ولا يقتصر الأمر على الشعر العامى بل يمتد لعالم القصة والنثر والمقالات، كما يندر أن تكون مداخلات الأعضاء وردودهم بغير العامية أو بغير أخطاء لغوية، ويكون العذر الدائم فى تلك الحالة هى العجلة، لكن أن يمتلئ الموضوع نفسه بالأخطاء اللغوية فتلك هى المشكلة. وإذا ما ضيقت الخناق على كاتب من هؤلاء، كان رده أنه إنما يكتب ليعبر عما يجيش بأعماقه فنقله بصدق وكما شعر به، سواء كان عمله فى قسم الشعر ومليئا بالكسور والأخطاء اللغوية، أو فى القصة حيث يتراوح بين العامية والفصحى دونما ضابط أو رابط وفى سياق السرد نفسه لا فى الحوار الذى قد يحتمل العامية. وهكذا فإن النشر المتاح يجعل كل من يضع حرفا بجوار حرف قادرا على النشر فى ذلك الفضاء المفتوح بل وقد يلاقى التشجيع والاستحسان باعتباره مجددا ومتمردا على القوالب الجامدة ومن أبرز هذه المظاهر انتشار النثر الأدبى المسمى بالخواطر والذى لا يختلف كثيرا عن قصيدة النثر مع ملاحظة أن العديد من المواقع كثيرا ما ترفض هذا اللون الأدبى، أى قصيدة النثر، ثم تعود وتقبل بالخاطرة عن طيب خاطر، هذا بالإضافة إلى أن معظم عبارات الاستحسان تصدر ممن يجهلون قواعد وأصول النقد الأدبى.

هناك بعض المنتديات الجادة التى تشترط فى لائحتها أن تكون صناديق الرسائل خاضعة للرقابة من قبل الإدارة، ومنتديات أخرى تشترط عددا معينا من المشاركات قبل تفعيل خاصية إرسال وتلقى الرسائل

أما الظاهرة الأشد وضوحا فى تلك المنتديات فهى استخدام الزخرفة لإضفاء رونق على النص وهو أمر محمود، لكنه قد يتجاوز الزخرفة ويتم الاستعانة بالصور المتحركة أو الثابتة والتى تعرف بالإيموشنات، وهى صور صغيرة ومعبرة إلى حد كبير ولكن على حساب النص المجرد، مما يجعل الكلمة فى حالة ردة لغوية، حيث تعود لصورتها البدائية وهى الرسم للتعبير، وإن كان ذلك بتقنية متطورة تجعلها تتحرك. ويكثر استخدام هذه الإيموشنات فى الأعمال المنسوبة للقسم الساخر بوجه خاص.

مما سلف نجد أن حسن توظيف الإيموشنات يتفاوت من عضو لآخر، فنرى عملية إخراج مصاحبة للكتابة تجعلها أشبه بالسيناريو والإخراج السينمائى لأفلام الكارتون، ولكن قد يكون ذلك على حساب الكلمة، وشيئا فشيئا تضعف القدرة التعبيرية لدى المبدع نظرا لاستسهاله استخدام تلك الرسوم المعبرة، ولو جردت النص من تلك الرسوم فقد لا تضحك بنفس القدر أو قد لا تضحك على الإطلاق، وهكذا قد يقبل البعض على موضوعات عضو ما لبراعته فى استخدام «الإيموشنات»، وأحيانا قد يتأخر عضو فى تكملة حلقاته الساخرة لكسله عن إضافتها، فيظل الموضوع مؤجلا حتى تنفتح شهيته لوضع «الإيموشن» المناسب فى المكان المناسب!!

وعلى صعيد آخر يبرز فن جديد لا تجده سوى فى النشر الإلكترونى، وهو ما يعرف بالتصميمات، فكما كنا نرى رسوما مصاحبة لقصائد كامل الشناوى وفاروق جويدة فى دواوينهم، تنتشر فى بعض المنتديات ظاهرة تصميم لوحات معبرة عن الشعر أو الخواطر. وما يميز هذه التصميمات ويكسبها تفردا، أنها متحركة وفى بعض الأحيان تكون مصحوبة بالموسيقى أو إلقاء الشاعر للقصيدة بصوته، وتعتمد هذه التصميمات على عدة برامج على رأسها الفوتوشوب والكليك وغيرها، وهى - أى تلك التصميمات - فن بازغ وله فنانوه الذين صارت لهم شعبيتهم فى عالم الإنترنت والتى تكاد تصل إلى درجة النجومية، فنجد بعض الأسماء المتداولة عبر ذلك الفضاء وقد تهافت عليها أصحاب المواقع لمعرفتهم بقدرة أصحابها على اجتذاب الأعضاء.

ويميل أصحاب المواقع إلى اجتذاب الكتاب والشعراء ممن لديهم صلة بعالم النشر الورقى ويعتبرونهم مكسبا كبيرا لمواقعهم. هذا إلى جانب البريق الذى يحيط باسم العضو الذى يشير إلى انتمائه لعالم الصحافة، فتجد الترحاب يحيط به وتشمله عين الرعاية من قبل القائمين على الموقع بغض النظر عن مستواه الأدبى وذلك لمجرد أنه متصل بهذه الصحيفة أو تلك أيا ما كانت هذه الصلة، مما يشى بسطوة الورق وسحره لدى كل من يهتم بالثقافة.

ومما يدل على هذه السطوة، تلك الفرحة وذلك الزهو الذى يصيب العضو الذى ينجح فى اختراق عالم الورق وينشر له عمل أدبى فى صحيفة أو مجلة، مما يعنى ميلاد أديب أو شاعر إذ يكون النشر الورقى بمثابة شهادة ميلاد له واعتراف موثق بكيانه الأدبى والذى ينعكس بدوره على الموقع الذى ينتمى إليه.

وهكذا نرى العلاقة التبادلية بين عالم النشر الإلكترونى وعالم النشر الورقى، فأهلا بالكتاب وفى الوقت ذاته مرحى لمن يولد على الورق. ومؤخرا حرصت عدة مواقع على إقامة ملتقيات ثقافية كما تحرص بعضها على أن تكون لها إصداراتها الخاصة، فتقوم بعمل المسابقات فى الشعر أو فى القصة وتكون

الجائزة هى النشر أو على أقل تقدير المساهمة فى النشر.

كما يقاس نجاح الكاتب وتألقه فى بعض الأحيان بالحرص على ضمه إلى بعض المواقع الأدبية، وكذلك الحرص على نشر أعماله فى مواقع الكتب الإلكترونية، وكثيرا ما يكون له موقعه الخاص وأحيانا يكتفى بمدونة تقربه من جمهوره وتحجز له مكانا فى ذلك الفضاء.

مكتبات فضائية

مما يثرى المواقع ويحسب لها حرصها على تكوين مكتبتها الشاملة وأحيانا المتخصصة التى تمكنك من تحميل ما شئت من الكتب أو الاطلاع عليها، وحبذا لو كان واحدا من الكتب المحظورة أو تلك التى أثير حولها الجدل مثل «أولاد حارتنا» التى كادت تتسبب يوما ما فى قتل صاحبها الأديب الكبير نجيب محفوظ، ومثل شفرة دافنشى لدان براون وأعمال نجيب سرور وأحمد مطر وغيرها الكثير.

ولكن الخوف الأكبر إزاء هذه المواقع ومكتباتها يتمثل فى عنصر الدقة والمصداقية، إذ يظل الورق أعلى مصداقية من ذلك الفضاء المفتوح والذى لا تدرى أية يد عابثة قد تمتد بالتزوير أو التحريف نحو المعلومة التى تنشدها. فكما تتميز بسهولة الوصول للمعلومة يعيبها سهولة العبث بها لغرض خبيث أو أن توضع ابتداء مشوهة لافتقارها للدقة والجدية، ومع الأسف رأيت خلطا بينا بين الشيخ محمد شاكر الأب وولديه محمود وأحمد شاكر فى أحد أهم المواقع المتخصصة والتى تصف نفسها بالإسلامية، مما يؤكد المعنى الذى أقصده، وهو عنصر التوثيق والمصداقية.

ويبقى التعبير عن الذات هو العنصر المشترك فى عالم الكتابة، فمنذ أن بدأ الإنسان فى نقش الحجر وانتهى بالكتابة عبر الأثير، يظل الدافع للكتابة واحدا وهو القول بالوجود والسعى نحو الخلود. فأن تكتب فهذا معناه أنك باق ولو إلى حين ولكنك باق.

غير أن الجمهور يختلف، لا من حيث الذائقة فحسب، ولكن من حيث التلقى والتفاعل مع ما تكتبه. وسبق أن أشرنا لردود الأفعال والمجاملات ولانتشار المهاويس والسفهاء. فالفرق بين الكتابة على الهواء والكتابة فى إصدار ورقى، أشبه ما يكون بالفرق بين العرض المسرحى والعرض السينمائى، فقد ينجح الفيلم أو يسقط وقد يتناوله النقاد بالثناء أو الهجوم دونما أذى مباشر يصيب القائمين على الفيلم.

أما فى العرض المسرحى فقد ينجح ليلة ويسقط فى ليلة أخرى، لا لخطأ من الممثلين ولكن من الجائز أن يسقط إما لغياب الجمهور، أو لوجود مشاهد مشاغب أو محرض ضد الممثل فتكون النتيجة قذفه بالبيض والطماطم، وذلك لا يدل على مستوى العرض، بل على نوع التفاعل بين الممثل والجمهور، وكذا هو الحال بالنسبة للكتابة على الهواء. فكم من المبدعين انسحبوا من بعض المواقع إثر تطاولات من سفهاء عليهم، فى حين أن الكاتب فى عالم الورق قد تصله خطابات مهينة وقد تصل إلى حد التهديد أحيانا، ولكن تبقى كرامته محفوظة إلى حد ما لأن الإهانة لم تكن على الملأ.

فلا عجب إذن أن بعض الكتاب ينظرون إلى المشاركة فى المنتديات الثقافية نظرة فوقية، ويعتبرون المشاركة فيها انتقاصا من مكانة الكاتب وأنه بذلك يسلك مسالك الهواة المبتدئين والباحثين عن منبر يحمل كلماتهم إلى الناس باستثناء أصحاب المواقع الشخصية والتى يعتبرونها تتمة لنجاحهم ككتاب مرموقين.

الفارق الأخير

وأخيرا عزيزى القارئ يبقى فارق واحد بين الكتابتين، ألا وهو حجم المكتوب، حيث يفضل ألا تزيد الموضوعات فى عالم المنتديات على ثلاثمائة كلمة كى لا يمل المتصفح، فى حين قد تزيد بعض المقالات فى الصحف والمجلات على الثلاثة آلاف كلمة، وهو أمر شديد العسر على متصفح الإنترنت فى كثير من الأحيان اللهم إلا فى بعض الحالات الاستثنائية وفى المواقع المتخصصة وشبه المتخصصة.

تلك كانت خلاصة تجربتى فى عالم الكتابة على الهواء، أطرحها بين يديك على صفحات من الورق ومعها رسالة تحذير للمثقفين والكتاب:

أن انتبهوا فالمشهد الثقافى لم يعد خالصا لكم وحدكم، فهناك كيانات فضائية تقوم بغزو عقول أبنائنا وتؤثر فيها فى كل لحظة، فانتبهوا ولا تنأوا بأنفسكم عن ذلك الميدان. ■

كتاب الزاوية



فى نصائح أنوشيروان لابنه

كتاب النصيحة

قال أولاً: مادام الليل والنهار يتعاقبان فلا تعجب من تقلب الأمور.

وقال أيضًا: لماذا يندم الناس على عمل قد ندم عليه الغير؟

وقال أيضًا: كيف ينام آمنًا من له معرفة بالملوك؟

وقال أيضًا: كيف يعد نفسه حيًا من لم تكن حياته على مراده؟

وقال أيضًا: لم لا تدعوه عدوًا من يرى شهامته فى أذى الناس؟

وقال أيضًا: لا ينبغى أن تدعو عدو محبك صديقًا.

وقال أيضًا: لا تصادق الجهلاء فإن الجهلاء لا يستأهلون الحب ولا البغض.

وقال أيضًا: اجتنب من يرى نفسه عالمًا وهو جاهل.

وقال أيضًا: أنصف من نفسك لتستغنى عن الحكم.

وقال أيضًا: قل الحق وإن يكن مُرًا، وإذا أردت ألا يعرف العدو سرك فلا تفشه لصديقك.

وقال أيضًا: كل عظيم يتخيل نفسه صغيرًا يكون عظيم الزمان.

وقال أيضًا: لا تعد الخاملين أحياء.

وقال أيضًا: إذا أردت أن تكون غنيًا بلا تعب فكن مرضى العمل.

وقال أيضًا: لا تشتر جزافًا كيلا تضطر إلى البيع جزافًا.

وقال أيضًا: الموت جوعًا خير من الشبع بخبز اللئام.

وقال أيضًا: لا تثق بأى حال بغير أهل الثقة ولا تنزع الثقة من أهل الثقة.

عبد الرءوف الريدى

حرب شارل ولسون!

.. ولكن من هو «شارل ولسون» الذى اخترق عالم الكتب فصدر كتاب يسجل قصة حياته بعنوان «حرب شارل ولسون» ثم اخترق عالم السينما بفيلم نال جوائز أوسكار.. هو ذلك العود المشوق القادم من غرب تكساس والذى كان يمكن أن يكون لأحد رعاة البقر الذين نراهم فى السينما الأمريكية لولا أنه ضل طريقه فأصبح عضواً بالكونجرس أو بالأحرى نائباً ديمقراطياً عن إحدى دوائر غرب تكساس. لم أره إلا مرتدياً هذا الحذاء التكسانى الطويل الذى يطوق الساق ويصل إلى أسفل الركبة أى «البوت»... هو ذلك النائب الذى يعيش حياة تجمع بين الجد واللهو فى كل ما يفعل... هو عضو تلك اللجنة الفرعية المهمة والمختصة باعتمادات القوات المسلحة بمجلس النواب الأمريكى وبالتالى تختص بتقرير المعونة العسكرية المقررة لمصر والتى تبلغ مليارا وثلاثمائة مليون دولار سنوياً، وهو الذى ما خطر على بالى فى أى يوم أن حياته يمكن أن تكون موضوعاً لكتاب ناهيك عن أن تكون موضوعاً لفيلم سينمائى... هو صاحب ذلك الصوت الأجش والذى لا يخلو حديثه من استعمال الكلمات الفاضحة التى يستخدمها الساسة الأمريكان طوال الوقت أثناء أحاديثهم الخاصة والتى لا يصح ترجمتها، هو ذلك الحيوان السياسى الذى يعرف توازنات القوى المؤثرة فى داخل مصنع السياسة الأمريكية.. أى فى الكونجرس الأمريكى بمجلسيه ويعرف كيف يعقد الصفقات لتمرير ما يريد تمريره من اعتمادات للقوات المسلحة فى أمريكا والعالم.

هو شارل ولسون الذى أصبحت سيرته الآن على كل لسان بعد صدور فيلم «حرب شارل ولسون» المبنى على كتاب حمل نفس العنوان للكاتب الأمريكى جورج كريل.. وسجل فيه قصة تشارلى وكيف استطاع أن يمرر فى الكونجرس الاعتمادات السخية لتمويل الحرب الجهادية ضد السوفييت فى أفغانستان طوال عقد ثمانينيات القرن الماضى.

كان من أول من عرفنى به فى بداية عملى فى واشنطن هو المشير أبوغزالة وزير الدفاع المصرى الأسبق الذى كان يعمل دائماً على توثيق صلاته بأعضاء الكونجرس الذين لهم دور فى تقرير اعتمادات المعونة العسكرية، وكان تشارلى من أهمهم، ثم توثقت صلتى به طوال الأعوام الثمانية التى قضيتها فى هذه المدينة التى لا تهدأ، والتى كان أهم مكان أقصده فيها هو مبانى الكونجرس العديدة التى يربط بينها قطار خاص والقائمة على تل يطل على العاصمة الأمريكية.

لم تكن السكرتيرات الجميلات أول ما لفت نظرى عندما زرت «تشارلى» أول مرة فى مكتبه.. كان أهم ما لفت نظرى هو تلك البندقية المعلقة على مدخل الغرفة التى يشغلها فى مكتبه الشاسع والتى كانت السلاح الشائع للمجاهدين الأفغان فى حربهم ضد القوة الأعظم الثانية أى الاتحاد السوفيتى، وعلى الحائط ترى صورة كبيرة لتشارلى وسط مجموعة من المجاهدين الأفغان مرتدياً الزى الأفغانى التقليدى والطاقية الأفغانية الشهيرة التى تشبه رغيف الخبز المصرى المستدير، و هو زى تعرفت عليه قبل مجيئى لواشنطن عندما عملت لمدة عام (١٩٧٩ - ١٩٨٠) سفيراً لمصر فى هذه البلاد التى أحببتها كما أحببت أهلها أى فى باكستان وعاصمتها إسلام أباد. كانت إسلام أباد فى هذه الأيام مدينة حالمة بموقعها الفريد أسفل جبال هندوكوش المكتسية بالجليد فى الشتاء، والمطلة فى الجانب الآخر على وديان كشمير التى يعتبرونها جنة الله فى الأرض.. والقريبة من هذا الشريط الممتد لأكثر من ألفى كيلو متر بين باكستان وأفغانستان وتسكنه قبائل الباشتون التى يختبئ فيها الآن، أو هكذا يقولون، أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى وغيرهما من «رهط» الأفغان العرب الممتزج بمقاتلى طالبان وغيرهم من رجال المقاومة الأفغان الأشداء، الذين يثبتون مرة أخرى كيف أن أفغانستان عصية على كل الغزاة: هزموا إنجلترا، عندما كانت إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس فى القرن التاسع عشر كما هزموا الجيش الأحمر، جيش الاتحاد السوفيتى القوة الأعظم الثانية فى النصف الثانى من القرن العشرين.. وها هم يتصدون الآن للقوة الأعظم فى العالم ومعها حلف شمال الأطلنطى.



فى هذا العام الذى قضيته فى باكستان بدأ عقد الثمانينيات الذى شهد حربين متوازيتين حرب السوفييت فى أفغانستان والحرب العراقية الإيرانية.. فانتهت الأولى بهزيمة السوفييت، بل وباختفاء الاتحاد السوفيتى من الوجود.. وانتهت الثانية بلا غالب أو مغلوب.. ثم عادت الحرب إلى المنطقة مرة أخرى بعد قرار صدام غزو الكويت عام ١٩٩٠ وما أعقب ذلك من حرب الخليج الثانية، ثم مرة ثالثة بحرب جورج بوش الابن ضد العراق وفى كلا الموقعين، سواء فى أفغانستان أو فى العراق توجد الآن قوات أمريكية موروطة، أو متورطة.

لم يكن قد مرت سوى أيام على وصولى إلى إسلام أباد فى يونيو ٧٩ أى قبيل بدء موسم الأمطار الموسمية التى تنهمر على هذه المدينة الغنية بحدائقها.. حتى جاءنى حارس السفارة ليقول لى إن هناك رجلاً يقف على باب السفارة ويلبس لباساً أفغانياً ويقول إنه درس فى الأزهر الشريف ويريد أن يقابلنى.

ولأننى كنت أرغب فى أن أتعرف - وأنا سفير جديد لا يعرف المنطقة - على أحوال أفغانستان بسبب ما جرى فيها من انقلابات جاءت بالحكم الشيوعى هناك قبل عامين أو ثلاثة، فقد وافقت على استقبال الرجل البسيط ذى الجسم النحيل والوجه الهادئ والذى قال لى إن اسمه هو «برهان الدين ربانى» وأخذ يتحدث معى بلغة عربية رصينة عن أحوال أفغانستان، وما يفعله بها حكم الشيوعيين بمساعدة الخبراء السوفييت المنتشرين فى أجهزة الدولة.. وأخذ يحدثنى عن أهمية أن تقوم مصر بمساعدة «جمعية إسلامى» التى أسسها لمقاومة الشيوعيين «الملحدين». كان هذا اللقاء هو بداية الخيط الذى أخذ يشدنى إلى أفغانستان ومازال يشدنى إليها حتى الآن، فأتابع أحوالها أو قل أتابع مأساتها التى بدأت مع الانقلاب الشيوعى ثم الغزو السوفيتى.. ثم الحرب الأمريكية التى جاءت فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

لم تمر سوى شهور على هذا اللقاء

بدخول قوات الجيش الأحمر بدأ دخول الاتحاد السوفيتى إلى المستنقع الأفغانى والذى انتهى بهزيمة السوفييت، بل وبتفكيك الاتحاد السوفيتى ذاته واختفائه من الوجود

حتى كنت وأسرتى نقضى إجازة آخر العام فى ديسمبر ٧٩ فى العاصمة الهندية بنيودلهى وسط أجواء الانتخابات هناك، والتى أتت بأنديرا غاندى وحزب المؤتمر الذى ترأسه إلى الحكم، حتى جاءت الأنباء بأن الاتحاد السوفيتى قد دخل بقضه وقضيضه إلى أفغانستان: وبدخول قوات الجيش الأحمر بدأ دخول الاتحاد السوفيتى إلى المستنقع الأفغانى والذى انتهى بهزيمة السوفييت، بل وبتفكيك الاتحاد السوفيتى ذاته واختفائه من الوجود.

دارت عجلة الأحداث تباعاً وبسرعة رهيبة.. قرر الرئيس الأمريكى كارتر الوقوف بحزم ضد الاحتلال السوفيتى لأفغانستان.. وجاء مستشاره للأمن القومى زبيجوبرجنسكى إلى باكستان وقابل الرئيس ضياء الحق الذى رأى فرصته فى إقامة علاقة استراتيجية جديدة مع الولايات المتحدة وفى القيام بدور «إسلامى» كبير يسجله له التاريخ.. وقف برجنسكى على الجانب الباكستانى من ممر خيبر حاملاً بندقيته الكلاشنكوف، مشيراً بها فى اتجاه الجانب الأفغانى من الممر ومطلقاً عبارته الشهيرة إلى الشعب الأفغانى «هذا هو طريقكم لتحرير بلادكم»، وهو ما كان بالفعل، فانطلقت الصيحات «حى على الجهاد» من أعلى مئات آلاف المآذن فى العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه وجاء المجاهدون من كل مكان بما فيهم المجاهدون العرب الذين عرفوا بعد ذلك باسم «الأفغان العرب».

جاء «أسامة» هذا الشاب المنتمى لعائلة بن لادن ـ العائلة السعودية الثرية المعروفة ـ وجاء هذا الطبيب المصرى المتحمس «أيمن الظواهرى».. وذلك الداعية الكبير من الأردن «عزام» وغيرهم وتساقط على مدينة بشاور فى محافظة الحدود الشمالية الغربية آلاف المتطوعين من كافة بلدان العالم الإسلامى، وهناك تم تدريبهم وتسليحهم وتنظيمهم.. بالتنسيق بين أجهزة المخابرات الأمريكية والمخابرات الحربية الباكستانية والسعودية وتم تنظيم وتدريب وتسليح وتمويل أكبر مقاومة فى التاريخ تداخل فيها حماس الشباب المسلم واستعداده للموت استشهاداً فى مقاومة الغزاة الملحدين المعتدين على حرمة الأرض الإسلامية.. مع دور أجهزة المخابرات العالمية والإقليمية والتعاطف الدولى ضد الغزو السوفيتى الغاشم.. وتم تسليح المقاومين الأفغان وأنصارهم من كافة أنحاء العالم الإسلامى بأحدث وأفتك الأسلحة التى تم استخدامها فى عملية الجهاد الأكبر.

وفى هذه العملية الكبرى كان هناك دور مهم لشارل ولسون، فهو الذى يتولى تمرير الاعتمادات المطلوبة من الكونجرس ويثور السؤال ابتداء ما الذى جعل تشارلى ينغمس بدوره فى هذه الحرب.. هل كان ذلك حقاً بسبب ما زعمه الفيلم عن تلك المرأة الجميلة التى كانت تعتبر مقاومة «إمبراطورية الشر» أى الاتحاد السوفيتى كما كان يلقبه الرئيس ريجان وصحبه آنذاك؟ تعتبره عملاً مقدساً الأغلب أن دور هذه المرأة كان دوراً هامشياً ولكنه أعطى الفيلم ـ كالعادة ـ المسحة الرومانسية المطلوبة. أما دور تشارلى فقد كان فى الواقع تعبيراً عن النظرة الاستراتيجية التى نظرت بها الولايات المتحدة آنذاك إلى الدخول السوفيتى إلى أفغانستان.. كانت وثبة الدب الروسى إلى أفغانستان ينظر إليها على أنها يمكن أن تتلوها وثبة أخرى إلى بالوشستان فى باكستان مما يضع الاتحاد السوفيتى فى بحر العرب بالقرب من منطقة الخليج الاستراتيجية بما تحتويه من آبار النفط، فضلاً عن موقعها الاستراتيجى فى الصراع بين القوتين الأعظم آنذاك.

كانت هناك أيضاً الرغبة فى الانتقام من الاتحاد السوفيتى لدوره فى فيتنام التى كانت المستنقع الذى غرقت فيه الولايات المتحدة فى حقبة الستينيات، فالآن قد لاحت الفرصة لخلق مستنقع مقابل فى أفغانستان يغرق فيه الاتحاد السوفيتى.

جئت إلى واشنطن فى نوفمبر ٨٤ بينما كانت معارك الجهاد فى أفغانستان على أشدها.. وفى هذه الأيام.. كان المجاهدون الأفغان يستقبلون فى الكونجرس كأبطال وكان شارلى هو الذى ينظم لهم هذه اللقاءات فهو رجلهم فى هذه المؤسسة وكان قادة المجاهدين يستقبلون فى البيت الأبيض بواسطة الرئيس ريجان ويوصفون بأنهم «المحاربون من أجل الحرية Freedom fighters»، وفى عام ٨٧ أو ٨٨ لا أذكر جاء رئيس وزراء أفغانستان المحررة «برهان الدين ربانى» وذكر لمستضيفيه أنه يريد أن يزور السفير المصرى فى واشنطن والذى كان قد تعرف عليه عندما كان يعمل سفيراً لمصر فى إسلام آباد.. واستقبلت الرئيس «ربانى» فى مكتبى بميدان شيريدان وسط شارع ماساتشوتس.. وكان سلامنا بالأحضان. وتذاكرنا كم يختلف هذا اللقاء عن لقائنا الأول فى سفارة مصر فى إسلام آباد قبل عشرة أعوام.

دارت عجلة الأحداث وما لبث حائط برلين أن سقط وخرج الجيش الأحمر من أفغانستان بعد أن فقد حوالى ثلاثين ألفا من جنوده، وكان مستنقع أفغانستان عاملاً رئيسياً فى انهيار الاتحاد السوفيتى، وبانهياره بدأت الولايات المتحدة تفقد الاهتمام بأفغانستان، وأذكر أننى كنت أتحدث مع بعض المسئولين فى الخارجية الأمريكية فى هذه الأيام وحذرتهم من خطورة ترك الأمور فى أفغانستان تتدهور بحيث تصبح أفغانستان دولة فاشلة يتحكم فيها أمراء الحرب وزراع الأفيون، إلا أن محدثتى الأمريكية المسئولة عن الشأن الأفغانى فى الخارجية الأمريكية آنذاك هزت كتفيها قائلة: «ماذا يمكن لنا أن نفعل؟ إنهم يقتلون بعضهم بعضاً، وهكذا تركت أفغانستان لشأنها للصراع بين المجموعات المختلفة.

أما فى لانجلى حيث يوجد مبنى وكالة المخابرات المركزية، فقد جرى حفل تكريم هو الأول من نوعه، حيث تم تكريم شارل ولسون لدوره الحاسم فى تحقيق النصر وهزيمة الاتحاد السوفيتى.. وكان مشهد التكريم هو المشهد الأول فى كتاب «حرب شارل ولسون» لجورج كريل.

أما الأفغان العرب والمجاهدون فقد غادروا أفغانستان وهم يتحرقون شوقاً إلى جهاد آخر، ثم ما لبث أن شكل بعضهم تنظيم القاعدة.. كان ذلك فى السنوات الأخيرة من القرن السابق. بينما تحولت الحرب فى أفغانستان إلى حرب بين الفصائل الأفغانية ذاتها.

كان هناك التحالف الشمالى بقيادة برهان الدين ربانى ومعه القائد الأسطورى أحمد شاه مسعود المسيطر على وادى بنشير والذى دوخ السوفييت فى حقبة الجهاد.. فلقب بأسد بنشير، وقد استطاع التحالف الشمالى أن يحتل العاصمة كابل، ولكنه لم يكن على علاقات وئام مع الجارة الكبرى باكستان، التى احتضنت تنظيماً آخر هو تنظيم طالبان، أى مجموعة الطلبة الذين خرجوا من قندهار جنوب أفغانستان، ثم سرعان ما سيطروا على أغلب أفغانستان بمساعدة المخابرات الباكستانية وأقاموا حكم طالبان الأصولى بقيادة الملا عمر فى كابل، بينما تراجع التحالف الشمالى بقيادة ربانى مسعود إلى المنطقة الطاجكية فى شمال أفغانستان.

وأصبح حكم طالبان حكماً أصولياً متشدداً فمنعوا سفور النساء ومنعوا الموسيقى وهدموا تماثيل بوذا المشهورة فى باميان، ثم استضافوا تنظيم القاعدة بقيادة بن لادن، ودبروا حادث اغتيال القائد الأفغانى أحمد شاه مسعود. تمهيداً ـ حسبما هو متصور ـ للحدث الأكبر الذى استهل به القرن الحادى والعشرون فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، واستمرت عجلة الأحداث فى الدوران.. جورج بوش الابن يعلن الحرب العالمية ضد الإرهاب وغزو أفغانستان، هذه المرة بقوات أمريكية متحالفة مع قوات حلف الناتو ثم حرب العراق وكيف لفقت الأسباب والذرائع والتقارير الرسمية وخطاب كولن باول الشهير أمام مجلس الأمن عام ٢٠٠٣ والذى كان قمة التلفيق وها نحن نعيش المأساة.. ولكن لابد أن يكون لهوليوود نصيب فيأتى فيلم «حرب شارل ولسون» ليخطف جوائز الأوسكار ويصبح قصة على كل لسان، قصة هذا النائب الأمريكى الماجن الذى وضعته الأقدار فى أعوام الثمانينيات من القرن الماضى ليكون ترساً فى آلة كبيرة لتمويل الحرب ضد السوفييت فى أفغانستان.

لم أر شارل ولسون منذ تركت واشنطن عام ١٩٩٢ ولكن السفير الصديق حاتم سيف النصر والمعين سفيراً لمصر فى لندن والذى طالما زاملنى فى سفارة واشنطن هذه الأيام وهو فى بدايات رحلته فى الخارجية ونحن نقطع الدهاليز الطويلة فى مبانى الكونجرس العتيدة، لزيارة أعضاء مجلس النواب ومن بينهم بطبيعة الحال شارل ولسون أخبرنى أنه رآه على شاشة التليفزيون فى لقطة تم تصويرها قبل إنتاج الفيلم قائلاً: «اذكروا كل شىء ولا تخفوا شيئاً عما فعلته من لهو ومجون.. فأنتم مهما قلتم فإنه سيكون أقل من الواقع، لكن اذكروا أيضاً قصة أفغانستان، وهو ما كان.. فجاء فيلم «حرب شارل ولسون» ليحكى الحكاية من جانبيها، جانب الجد فى حرب أفغانستان، وجانب اللهو فى حياة تشارلى.

الشىء المؤكد هو أننى ما كنت أبداً أتصور أن شارل ولسون يمكن أن يكون نجماً تكتب عنه الكتب وتنتج عنه الأفلام وتصير قصته على كل لسان أو أننى يمكن أن أكتب عنه مقالاً بعد الأحداث بعشرين عاماً.. ولكنها قوة هذه الآلة الرهيبة التى تشكل العقول والقلوب معاً.. قوة الميديا.. المتحالفة مع قوة هوليوود.. قوة الأضواء وصناعة النجوم.

أما أفغانستان فهى الآن مسرح لحرب جديدة وممتدة.. ويبقى السؤال: من يكتب قصة هذا الشعب الباسل؟.. الذى حارب قوة عظمى فهزمها.. وها هو اليوم يحارب القوة العظمى الأخرى.

ابحثوا معى عمن يكتب قصة هذا الشعب البطل.. الشعب الذى طالما كان الضحية على مائدة اللئام وساحات الحرب بين القوى الكبرى.

فهل سيكون هناك من يكتبها؟ فهى القصة التى تستحق أن تروى وأن تصير على كل لسان. ■


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
تصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com

أكيللى لاورو ريجـــــان أبـو العبـاس

عندما قالت إيطاليا

لا

■ ■ بالنسبة إلينا نحن من كنا الأكثر تورطا فى الأمر بصورة مباشرة، حتى وإن اختلف مستوى المسئولية فى أحداث واقعة أكيللى لاورو (وكنا قلائل)، كانت عطلة نهاية الأسبوع تلك جلية البيان. كان يوم السبت ١٢ أكتوبر ليس فقط الأشد وطأة منذ بداية اختطاف السفينة، بل أيضا أخطر ما واجهته السياسة الخارجية الإيطالية. فأمور كثيرة كانت ستترتب على القرار الذى ستتخذه الحكومة الإيطالية عما إذا كانت ستطلق سراح أبو العباس من عدمه.

أيا ما كان ستسير نحوه الأمور، كان واضحا أننا بنهاية اليوم كنا سنكون خسرنا شيئا ما، بما فى ذلك من عواقب يصعب تقديرها فى ذلك الحين، والثقة فى إحدى الدولتين - الولايات المتحدة ومصر - واللتين اشتركتا مع إيطاليا بطريقة لا غبار عليها فى إدارة أزمة فى غاية السوء.

هاتفت كراكسى فى الساعة التاسعة والنصف صباحا لإبلاغه أنه خلال وقت يسير كان سيأتى لدى السفير راب ليقدم لى مذكرة لتسليم الأربعة الخاطفين الذين قبضت عليهم السلطات الإيطالية فى اليوم السابق بسيجونيللا وللقبض على أبو العباس، كما أخطرته بأن راب كان قد وضع بالفعل المستند بين يدى بودا مدير مكتب وزير العدل فى الخامسة صباحا. فقال لى أن أطلب من نائب الوزير أماتو أن يستدعى بصورة عاجلة لمقر رئاسة الوزراء رجال القضاء المكلفين بدراسة المذكرة، كما سألنى إبلاغ الأمين العام لوزارة الخارجية الإيطالية رودجيرو كى يستعد لمقابلة السفير راب خلال النهار.

وصل راب إلى مقر رئاسة الوزراء (قصر كيدجى) فى تمام الساعة التاسعة صباحا يرافقه جون هولم الوزير المستشار بالسفارة. وبوجه قلق وبلا مقدمات قال لى إن واشنطن تعتبر أن المستندات هى أكثر من دليل كاف، إلا أنها كانت على أية حال مستعدة عند الضرورة لتقديم معلومات جديدة حول مسئولية أبو العباس. وعندما رأيت كراكسى لأسرد عليه الحديث الذى تم، كان لدى تصور واضح أنه لن يحبذ إطالة وقت اتخاذ القرار. لذا فالالتزام الإيطالى بدراسة الأمر كان يتعين أن يقتصر على المستندات التى تم تقديمها صباحا.

وبدأنا من منطلق الالتزام الذى أخذه على عاتقه كراكسى عندما تحدث هاتفيا مع ريجان ليلة الخميس ١٠ أكتوبر، وهو الالتزام الذى حدده لنا يوم الجمعة وكان قد أبلغنى به فى تلك الليلة ذاتها. لقد وعد كراكسى رئيس البيت الأبيض أنه سيؤمن تسليم الأربعة الخاطفين للعدالة وسيقدم معلومات لتوضيح موقف أبو العباس.

وبالنسبة للأربعة خاطفين، يمكن الإشارة للخطاب الذى قام كراكسى - بمجرد أن أخطره القبطان دى روزا بمقتل كلينجهوفر أى فى الساعة السادسة إلا ربعا مساء الخميس ١٠ أكتوبر - بإعطائى توجيهات بإرساله على الفور للرئيس المصرى حسنى مبارك لطلب تسليم المسئولين عن الاختطاف ومدبريه. وفى الخطاب الذى وقعه على الفور تم التذكير بأن استعداد إيطاليا لتسليم الخاطفين وديا مشروط بعدم إسالة الدماء على ظهر السفينة. فقد كان كراكسى منتبها إلى ألا يتناقض مع نفسه وعلى أن يحافظ تحت أى ظرف على أى التزام أخذه على عاتقه. وإلى يومنا هذا وعقب ما يربو على ٢٠ عاما مرت على



«التايم» ٢٨ اكتوبر ١٩٨٥

فى ٧ أكتوبر ١٩٨٥، قام ٤ فلسطينيين ينتمون إلى جبهة التحرير الفلسطينية التى يتزعمها محمد عباس «أبو العباس» باختطاف سفينة سياحية إيطالية تدعى أكيللى لاورو فى المياه الإقليمية المصرية. وكان على متن السفينة حوالى ١٠٠ شخص معظمهم من كبار السن. وطالب الخاطفون بالإفراج عن ٥٠ معتقلاً فلسطينيًا فى السجون الإسرائيلية مقابل إطلاق سراح الركاب. ولإثبات تصميمهم على تنفيذ مطالبهم أطلقوا النار على راكب أمريكى الجنسية يدعى ليون كلينجهوفر - ٦٩ عامًا - وكان قعيدًا فأردوه قتيلاً.

وبذلت الحكومة المصرية جهودها لإنهاء الأزمة وإقناع الخاطفين بإطلاق سراح الركاب الذين طلبوا طائرة مصرية لنقلهم إلى تونس، إلا أن طائرات عسكرية أمريكية حولت مسار الطائرة المصرية وعلى متنها الخاطفون من تونس إلى إيطاليا.

وقد وقعت أزمة دبلوماسية بين إيطاليا والولايات المتحدة، حيث أصرت إدارة الرئيس الأمريكى رونالد ريجان على تسلم الخاطفين ومحاكمتهم على أساس أنهم قتلوا أمريكيًا، إلا أن السلطات الإيطالية فى عهد رئيس الوزراء الأسبق برونو كراكسى رفضت ذلك وأجرت محاكمة للخاطفين. وقد أدين ١١ من بين ١٥ كانت لهم علاقة بالحادث وحوكم أبوالعباس غيابيًا بعد أن كان قد خرج من إيطاليا إلى يوجوسلافيا، ورغم أنه قد صدر ضده حكم بالسجن مدى الحياة ٥ مرات فى إيطاليا، إلا أن أبوالعباس ظل طليقًا وعاد إلى غزة عام ١٩٩٦ بعد توقيع اتفاق أوسلو ثم انتقل إلى العراق، حيث ترددت أنباء عنه أنه كان قناة اتصال بين الرئيس العراقى الراحل صدام حسين وفصائل فلسطينية، وقد اعتقلته القوات الأمريكية فى ١٥ أبريل ٢٠٠٣ بعد الغزو وأودعته السجن، حيث مات فى ٩ مارس ٢٠٠٤ عن ٥٦ عامًا.

وقد كتب السفير أنطونيو بادينى سفير إيطاليا السابق لدى مصر والذى كان يعمل مستشارًا سياسيًا لكراكسى أثناء الحادثة لـ «وجهات نظر» يستعيد تفاصيل ما جرى والملابسات التى أحاطت بالقضية وتفاعلاتها على الصعيد المحلى الإيطالى والعربى والأمريكى.

أنطونيو باديني

الواقعة، تبدو لى تصرفات كراكسى صريحة وتتصف بالمساواة والاحترام والنية الحسنة.

ولم يكن كراكسى التزم بأى شىء مع ريجان بشأن تسليم الأربعة فلسطينيين المتهمين باختطاف السفينة وبارتكاب أعمال عنف على ظهرها، فقد كان يعتبر الأمر شأنا يحكمه القانون المحلى حيث إن الجرائم تم ارتكابها على متن سفينة إيطالية. لذا كان يتعين إخضاعهم للقضاء الوطنى، وهو الرأى الذى أكد على صحته أولا رجال القضاء المجتمعون بقصر كيدجى ذلك الصباح، والذين لم يجدوا المعلومات المبررة لطلب التسليم كافية، ثم أكدته فيما بعد محكمة استئناف جنوه.

إلا أن موقف أبو العباس والفلسطينى الآخر المسافر إلى جواره - والذى اتضح فيما بعد أنه عز الدين بدرخان قائد التشكيلات العسكرية لجبهة التحرير الفلسطينية الذى كان أبو العباس أمينها العام - كان مختلفا. وبعث بى كراكسى لسيجونيلا حتى أحصل على المعلومات اللازمة كى تتخذ الحكومة قرارها كما وعد ريجان.

وقبل أن أرويه عليه، كنت قد سردت موجزا للحديث الذى دار بينى وبين أبو العباس بعد ظهر الجمعة ١١ أكتوبر على متن البوينج ٧٣٧ على مساعد النائب العام بسيراكوزا دولتشينو فافى، والذى قال لى أنه تم الكشف عن هوية الشباب الخاطفين، وأنه لم تتوفر معلومات للتحفظ على أبو العباس وبدرخان بسيجونيلا. وهكذا استطعت أن أطلب من الأدميرال مارتينى الذى اصطحبنى لسيجونيلا تنفيذ تعليمات رئيس الوزراء، والذى طلب عبر رودجيرو نقل الطائرة المصرية وطاقمها لمطار تشامبينو.

ولم يكن هذا النقل يسيرا على الإطلاق، فقد قامت أولا طائرة سى ١٣٠ بإغلاق ممر الطيران قبل أن تعترض طائرة إف ١٦ مسار البوينج ٧٣٧. وفى تشامبينو شعرنا بأننا مراقبون ومحاصرون. وعندئذ قررنا أن نتلاعب بهم.

تظاهرنا بتجهيز موكب لنقل «الضيفين» إلى المدينة، وجعلنا أبو العباس المزيف يهبط من الطائرة محاطا بحراسة من الكارابينييرى (أفراد الشرطة العسكرية) الذين يحمونه، وغادرنا بأقصى سرعة مع موكب السيارات الطويل، وتوقفنا بالأكاديمية المصرية بروما حيث أنزلنا أربعة أشخاص رءوسهم مغطاة، ثم توقفنا عند مقر إقامة السفير المصرى بفيللا سافويا حيث نزل أشخاص آخرون أن تظهر وجوههم.

وطوال يوم السبت ١٢ أكتوبر تم البحث فى هذين المكانين عن أبو العباس الذى ظل طوال فترة توقفنا بروما على متن الطائرة البوينج ٧٣٧.

وعقب استماعه لى، سمح لى بالانصراف قائلا لى أنه يتعين التعجيل بالوصول إلى قرار قبل نهاية يوم السبت. كان يقلقه الموقف فى مصر عبر الرسائل المتكررة التى كان يسلمها لنا السفير يحيى رفعت، وكذلك التوترات الدائرة داخل منظمة التحرير الفلسطينية وما يشهد على هذا كان نمر حماد. وفى الواقع قام كراكسى بنفسه فى صباح اليوم التالى باختصار الوقت، عندما أبلغته بخطوة راب.

تم تحديد لقاء راب فى الثانية عشرة ظهرا. وقام الأمين العام لوزارة الخارجية الإيطالية بإبلاغ السفير الأمريكى بنتيجة ما توصل إليه رجال القضاء والذين قدموا لكراكسى بعد الحادية عشرة صباحا بقليل تقريرهم المكتوب. وهم لم يجدوا أية معلومات تبرر التسليم، ولا أى شىء له قيمة كى يتم تقرير وضع أبو العباس تحت الإقامة الجبرية. فمجرد احتجاز «الشخصية الخطيرة» كضيف كان أمرا فى يد الحكومة نظرا لاعتبارات سياسية وأخرى متعلقة بالنظام العام.

وحتى فى فيومتشينو تسبب نقل الفلسطينيين الاثنين الذى تم مباشرة من ممر الهبوط فى حدوث تأخير، بينما الركاب كان بعضهم مضطربا والبعض الآخر مشدوها من الخوف.

وقام رئيس مباحث روما موناركا بأفعال غير عادية فى تلك الظروف. فقد جعل العديد من أفراد الأمن يصعدون على متن الطائرة ويتحركون سريعا بطريقة متزامنة. ومن جانبه جعلنى نائب مدير المطار أتحدث مع قائد طائرة الخطوط الجوية اليوغوسلافية الذى كان قد فقد أعصابه. ألقيت عليه التحية بصوت هادئ باللغة الصربية الكرواتية (فقد عملت بالسفارة الإيطالية ببلجراد لمدة عامين) ثم قلت له بالإنجليزية أن هناك عملية سرية سيحدثه عنها فى اليوم التالى سفير يوغوسلافيا، والذى كان يجهل أى شىء عن الموضوع. وذهبت إليه بنفسى فى اليوم التالى لأحمل له اعتذار حكومتى. كان الاتصال مع الخطوط الجوية اليوغوسلافية ببلجراد يتم عن طريق شبكة الفلسطينيين الذين كانوا يطلعوننى باستمرار على التطورات عن طريق الأفلاك مساعد نمر حماد. وعندما وصل مساعد النائب العام إيونتو إلى ممر الإقلاع بفيومتشينو كانت طائرة الخطوط الجوية اليوغوسلافية تشق طريقها نحو السماء.

علم كراكسى بالنهاية التى آل إليها الأمر، ما حدث من نشرة أخبار الساعة الثامنة مساء التى بدأت بمشهد السفير راب وهو يخرج مضطربا من مكتبى بعد أن أخبرته أن العباس كان على الطائرة المتجهة لبلجراد. وعندما قلت باحترام لراب أن موقف الحكومة قام بإبلاغه إياه فى الظهيرة الأمين العام لوزارة الخارجية الإيطالية، جز على أسنانه وضم قبضته بحركة غاضبة وتعبر عن الازدراء وهو ما لن أنساه أبدا.

وفى اليوم التالى فقط عندما جاء لزيارتى من جديد وهو أقل اضطرابا ولكن كان محتفظا بنفس النظرة الحانقة، استطعت أن أكرر عليه الأسباب التى دفعت حكومتى لاعتبار تقصى الحقائق الذى كان كراكسى قد تعهد بالقيام به خلال مكالمته الهاتفية مع ريجان قد استنفد غرضه.

وإحقاقا للحق يتعين إيجاز الدوافع التى تشهد اليوم أكثر من ذى قبل على فضل وصحة موقف كراكسى الذى تبين مع الوقت أن هدفه هو حماية المصلحة الأمريكية ذاتها. كما أن التحقيق الذى أجرته محكمة جنوه أظهر خطأ من كان يدعى أن اختطاف السفينة أكيللى لاورو تم التخطيط له بموافقة عرفات، وأن الحكومة الإيطالية وقعت من جديد ضحية للعبة المزدوجة التى قام بها الزعيم الفلسطينى.

التحقيق الذى أجرته محكمة جنوه أظهر خطأ من كان يدعى أن اختطاف السفينة أكيللى لاورو تم التخطيط له بموافقة عرفات

إن الإسفين الذى أرادت جبهة التحرير الفلسطينية وضعه بين الغرب ومنظمة التحرير الفلسطينية بجرها مصر مبارك وأردن الملك حسين إلى النزاع كان بالضبط عكس الجسر الذى كان كراكسى يريد إنشاءه بين القضية الفلسطينية ومصالح أمن أوروبا والولايات المتحدة وإسرائيل نفسها.

ولكن فى قصر كيدجى كان هناك تساؤل إذا ما كان هذا فعلا هدف الولايات المتحدة؟ هل كانت واشنطن مدركة فعلا للعبة الدائرة وبالتداعيات متوسطة المدى لقبول إيطالى محتمل لإرادة واشنطن على الرغم من أنها عانت من انتهاك صارخ ومهين لسيادتها الوطنية.

وإلى جانب التداعيات الخطيرة على عملية السلام التى كانت تساندها السياسة بعيدة النظر الخاصة بمصر والأردن والسعودية، أية مصداقية كانت ستحظى بها كى تنضم إلى اللعبة الدبلوماسية الرامية لإحداث انفراجة فى القضية الفلسطينية التى كانت تستفيد من إعلان البندقية لعام ١٩٨١؟

وكذلك داخل أوروبا ذاتها، أية مصداقية كانت ستتمتع بها إيطاليا، وهى التى كانت تسعى فى تلك الفترة للحفاظ على دور لها لصالح الانتقال من صراع ضروس بين الشرق والغرب إلى تعاون أكبر بين النظامين؟ لم يكن مشروعا الاستهانة بموقف كراكسى الذى عقب إدارته بنجاح من موقعه فى اليسار الإيطالى لاستعادة توازن القوى النووية المتوسطة فى أوروبا، تم استعجاله ليقوم بتصرف يتعارض مع مبادئه الخاصة بالمساواة الدولية والتى كان الحزب الشيوعى الإيطالى يرفع رايتها.

كان كراكسى مدركا خلال تلك الساعات العصيبة وجود أمور غير معتادة فى عملية صنع القرار الأمريكى. كما أن المعلومات التى حصلنا عليها فيما بعد بشأن ديناميكية عملية اقتفاء أثر الطائرة المصرية أكدت عدم احترام الكرامة الوطنية الإيطالية بشكل لا يمكن التهاون معه فى سلسلة الأوامر التى نسقها البيت الأبيض والبنتاجون. فضلا عن أنه كان جليا فى التصرف الفظ للفريق الأمريكى أنهم كانوا قد راهنوا سلفا على سلبية إيطاليا.

والدلائل؟ يوجد منها الكثير بدءا من قرار عدم

كتاب الزاوية

فى الزواج

كتاب النصيحة

أى بنى، إذا تزوجت المرأة فأحسن رعاية حرمتها، وإن يكن شىء عزيز فليس هناك أعز من المرأة والولد، ولا تضن بشىء على امرأتك وولدك، ولكن عن المرأة الصالحة والولد المطيع، وهذا أمر بيدك، كما قد ذكرت:

لم تربى الولد ولم تقتنى المرأة

إذا لم يكن لك من كليهما نفع

أما إذا تزوجت فلا تطلب مال المرأة، وانظر فى أمرها ولا تكن فى رق جمال وجهها؛ فإنما تتخذ المعشوقة بسبب جمال الوجه، أما المرأة فيجب أن تكون طاهرة متدينة وربة بيت، ومحبة لزوجها، وحيية وتقية، وقصيرة اللسان واليد، ومحافظة على المال، لتكون صالحة، فقد قيل: إن المرأة الصالحة هى التى تكون متدبرة العواقب ومهما تكن المرأة عطوفة وحسناء الوجه ومقبولة، فلا تضع نفسك فى يدها كلية، ولا تكن تحت سلطانها، فقد قيل للإسكندر: لم لا تتزوج ابنة دارا، وهى حسناء جداً؟ فقال: إنه لقبيح أن تتغلب علينا امرأة وقد تغلبنا على أهل الدنيا. ولكن لا تتزوج امرأة أعلى منك مقاماً، ويجب أن تتزوج العذراء، حتى لا يكون فى قلبها حب شخص آخر غير حبك وتتخيل أن كل الرجال على نمط واحد، فلا يقع طمعها على رجل آخر. وفر من يد المرأة الطويلة اللسان، فقد قيل: يفر العريس سريعاً إذا لم تكن المرأة أمينة. ولا ينبغى أن تستولى على مالك ولا تترك لك أن تكون مالكًا له، فتصير أنت المرأة وهى الرجل. وتزوج المرأة من العائلة الصالحة، فالمرأة يتزوجونها من أجل تدبير البيت لا من أجل التمتع، إذ يمكن شراء الجوارى بالسوق من أجل الشهوة، حيث لا إنفاق ولا كثير عناء، ويجب أن تكون الزوجة كاملة وبالغة وعاقلة.

محاولة هبوط البوينج ٧٣٧ فى القاعدة الإنجليزية أكروكيرى بجزيرة قبرص، وهى التى كانت أنسب من الناحية اللوجيستية عقب رفض اليونان. ولكن الأمر الأخطر كان تصرف ضابط البحرية الأمريكى الذى يعمل بقيادة حلف الناتو بسيجونيللا، والذى انتزع الميكروفون من يد الضابط الإيطالى المناوب معطيا الموافقة على الهبوط.

وفى الواقع، فقد تم هذا عندما كان كراكسى قد وافق بالفعل على الهبوط وهو الرأى الذى لم ينجح الأدميرال مارتينى فى إبلاغه بسرعة لرئيس أركان الدفاع. إلا أن هذا يكشف الثقة بالنفس الأمريكية التى تمت بها إدارة العملية برمتها. إذا كان ريجان حقا قد أعطى فى مناسبتين موافقته من حيث المبدأ، يظل الواقع أنه لا هو ولا حتى مستشار الأمن باد ماكفارلانى قد وجدا وقتا حتى يضطلعا بالواقعة بصورة مباشرة، وتم تكليف رجال الصف الثانى الذين كانوا يعملون تحت إدارة الأدميرال جون بويندكستر، نائب ماك فارلانى بتنفيذ العملية بأكملها، متجاهلين تماما «اللهجة الحسنة» نحو بلد كانت ترسم له واشنطن بالكلمات صورة أحد أخلص حلفاء الولايات المتحدة. وأظهرت الحادثة للأسف كيف تعتبرنا الولايات المتحدة فى قرارة نفسها الأكثر خضوعا وأيضا الأقل استعدادا لإدارة مجادلة مع القيادة الأمريكية.

والبرهان الأكثر وضوحا قدمه الجنرال ستينر الذى أنزل من طائرتى C١٣٠ بمجرد هبوطهما الثمانين جنديا من قوات الهجوم Delta Force ، فى حالة تأهب كامل للحرب، آمرا إياهم بمحاصرة البوينج ٧٣٧ . وقد كان ستينر يتصرف مقتنعا بأنه لديه سلطة معاملة الضباط الإيطاليين كما لو كانوا مرؤوسيه.

لكن الأمور لم تسر كما كان يخطط لها. فعلى الرغم من الفوضى التى نشأت عن الأوامر الأمريكية العديدة، كانت ردة فعل القائد الإيطالى للقاعدة العقيد أنيكياريكو تلقائية على ما قام به الأمريكيون من تجاوز السلطة، فأمر الشرطة العسكرية بالتدخل واستدعى على الفور قوات الكارابينييرى العاملة لتأتى ومعها العربات المصفحة. وأعطى أمرا للجنرال ستينر المذهول كى يسحب قواته قبل استخدام القوة. وروى لى أنيكياريكو أن ستينر لم يستغرق أكثر من ٣ دقائق كى يقتنع بأنه سيتم إطلاق النار فعلا، كما أرجعه البيت الأبيض عن المضى قدما فى عرضه المخجل.

لو كان كراكسى استسلم للضغوط الأمريكية ولضغوط حلفائه بالحكومة الإيطالية، كانت سياسة إيطاليا وأوروبا إزاء المتوسط والعالم العربى ستفقد مصداقيتها لصالح القوى الأصولية وبصفة خاصة جبهة الرفض الفلسطينية التى كانت تهدف لإضعاف عرفات والدول العربية المعتدلة. كان كراكسى مدركا للمخاطر التى كان يمكن أن تحدث. فلأول مرة سقطت الحكومة الإيطالية بسبب مسألة متعلقة بالسياسة الخارجية. وبمجرد مرور عدة أشهر بعد الواقعة تعرض مطار روما كما أشرنا لحادثة إرهابية. لكن البرلمان جدد الثقة فى الحكومة بقيادة كراكسى، وحتى الرئيس ريجان أرسل خطابا للزعيم الإيطالى ليؤكد له صداقته ورغبة الولايات المتحدة فى ترسيخ علاقاتها مع إيطاليا.

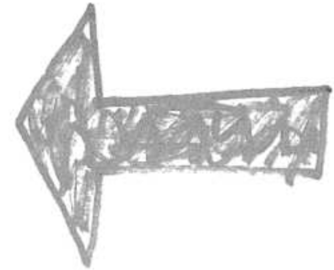
فعبر تصرفه الشجاع، أظهر كراكسى أن التزامات إيطاليا تجاه حلف الناتو وعلاقات الصداقة الوفية المتينة مع الولايات المتحدة يمكنها أن تبقى جنبا إلى جنب مع استمرارية العلاقات المتميزة مع العالم العربى ومع اعتبارات العدالة الدولية.

كان كراكسى يعطى أهمية كبيرة لاستقرار الشرق الأوسط ومنطقة المتوسط وكان يرى أن ذلك يستلزم أولا وجود اتفاق قوى مع الدول العربية.

وبالنسبة إليه كان أمرا أساسيا السعى بجدية نحو تنمية مشتركة فى المنطقة تشجع تدريجيا التكامل الاقتصادى والتقارب بين مؤسسات المجتمع المدنى.

حتى أنه لم يكن هناك حديث آنذاك عن حوار الثقافات، كان كراكسى فى الواقع يطبق مع العالم العربى المبادئ الأساسية لذلك الحوار؛ أى الكرامة المتساوية والاحترام المتبادل وعدم التفرقة. فبالنسبة إليه كان يتعين على كل الثقافات المشاركة فى تكوين المعرفة العالمية والحصول على أنصبة متساوية منها. وكان يرى أن نهضة كبيرة فى الثقافة الإنسانية والعلمية فى أوروبا والعالم العربى كفيلة بجعل الظروف مواتية لتوازن أكثر استقرارا فى منطقة الشرق الأوسط ولتقدم معنوى ومادى مشترك. ومن الصعب التشكيك فى المثاليات التى كانت مصدرا لإلهامه حيث إن تلك المثاليات لازالت سارية حتى اليوم.

فمن وجهة نظره كان بالتأكيد الولاء لحلف الأطلسى وروابط الصداقة مع الولايات المتحدة أمرا أساسيا، لكنه استطاع أن يضع الحد الفاصل بينها وبين المصالح الوطنية لإيطاليا، وهذه المصلحة لا تتعلق فقط بحماية كرامة الدولة بل أيضا سياستها فى منطقة البحر المتوسط عبر تضامنها مع الدول العربية من أجل احترام الشرعية الدولية. ■



عَرَب

نـــايـــف حـــواتمـــة

■ بات من غير الممكن الحديث بدقة عن «اليسار العربي»، دون تناول تاريخه وتاريخ المجتمعات العربية تناولاً نقدياً. كما أن مصطلح اليسار هو تعميم فضفاض يحتاج إلى تحديد، وبهذه الصورة من التناول يقع في أخطاء من يسمون بمؤرخينا الموضوعيين. أي دون تبيان الحركة ذاتها، والصراع الطبقي، والمصالح الخاصة، التي خلقت الظروف والعلاقات التي أتاحت المجال، لبعض من صنفوا في «خانة اليسار»، إلى التهاون والتعاون مع السياسة الأمريكية وعلى حساب أوطانهم وشعوبهم.

أولى المحددات العامة لمفهوم اليسار الديمقراطي هو ارتباطه بجوهر مفهوم «العدالة الاجتماعية»، وتوزيع عائدات الدولة على أكبر قدر من الناس، فضلاً عن ارتباطه بمفهوم التقدم، حيث تتمثل رؤيته بالأهداف العامة التالية:

❖ تحقيق السيادة القومية والتحرر من التبعية.

❖ التنمية الإنسانية بكل أبعادها.

❖ الحلول الديمقراطية للمشكلات الإثنية المزمنة في أغلبية الأقطار العربية.

❖ التطور الصناعي والتكنولوجي العلمي.

❖ المساواة في المواطنة دون تمييز في الجنس والعرق والدين والمذهب.

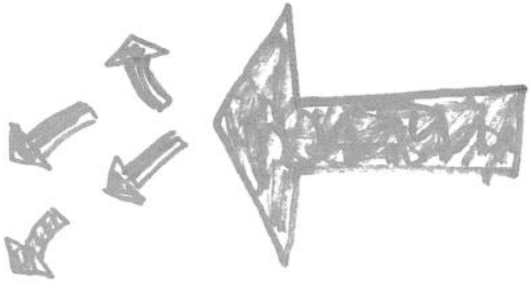
❖ فتح نوافذ الحريات، وجميعها مهمات النهضة ربطاً بالجوهر «العدالة الاجتماعية».

في الحالة العربية يحيل البعض تبدد هذه الأهداف، إلى البنى المتخلفة بنيوياً وتاريخياً، التي ولدتها الإمبراطورية العثمانية، من تخلف اجتماعي سياسي واقتصادي وأخلاقي ومعرفي. ويحيل آخرون الفشل إلى اغتصاب فلسطين، أو تجزئة الأمة بتقطيرها. ولسنا في صدد البحث في مصداقية هذه الخلاصات، لأن تصورنا هو مخالف تماماً لهذه الاستخلاصات وإن فعلت فعلها، وتفاعلت بمجملها مع أخرى بقدر ما، فالمسئولية الأولى هي على النخب الحاكمة المتعاقبة منذ انهيار «دار الحكمة وطغيان النقل على العقل» زمن الخليفة المأمون عام ٨١٣ م حتى يومنا، باعتبارها قاطرة للحالة القائمة. والأهم راهناً هو تجاوز العوامل البنيوية الضعيفة، انطلاقاً من الواقع الفعلي للعالم الراهن، انطلاقاً من اتسامه بالترابط المتنامي وإعادة النظر في سياسة ومنهج بناء الدولة الحديثة على آليات التقدم.

إن مشروع التنوير، تحول على يد الثقافة القدرية إلى محنة للتنوير، والمطلوب تدارك الحالة العربية قبل أن تصل إلى الأفق التاريخي المسدود؛ كأبرز النتائج المترتبة على هذه الأزمة، التي تمس بها الحداثة «تمادياً» على الموروث القدري وأقانيمه المستوحاة من القروسطية المتناقض والمتصادم مع عصر الأنوار وقيمه التحررية، ومواصلة التغيير الاجتماعي لصالح الشرائح الفقيرة في إطار الديمقراطية السياسية الليبرالية، وعلى الطرفين يبرز تحالف نقيضين: النيوليبرالية المتوحشة بإفرازاتها والثقافة القدرية «إن الله يرزق من يشاء، وقل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم». تعززها السفسطة الاستشراقية، والحالة العربية المزرية، والتي سبق واستخدمتها حروباً ضد قوى الحداثة والتيارات القومية في المنطقة العربية، خاضتها تحت راية السلفية الإسلامية الإقصائية، ومعها مختلف نُظم الديكتاتوريات التيوتارليتارية العربية.

إن الدواء الناجع لقوى اليسار، لن يتمثل فقط في المشاركة السياسية على أهميتها، نظراً لاستفحال الداء، بل في إعادة بناء حركة شعبية تحررية تقدمية متنورة، بما يتطلب من جهود شاقة وضخمة، لأن السلفية الإسلامية السياسية ستصل في النهاية إلى الجدار المسدود، وإن كانت تستطيع الآن تحقيق أرقام هامة في أية انتخابات مجتمعية وشعبية، رغم فقدانها للبرامج حد الإفلاس. بما يفتح بتطور الحركة التقدمية الشعبية التي ينبغي على اليسار إعادة بنائها، كي لا يكون موقفه انتظارياً، وبما يسمح بتجديد مصداقية الفكر اليساري، مقروناً أيضاً بالإفادة من تطور الحركة التقدمية الجديدة على المستوى العالمي. إن العمل التقدمي على الثقافة وإفرازاتها كحركة ميدانية تطمح إلى تحقيق سيادة الأوطان، والقيم الجمهورية بتلازم لا ينفصم ضرورة قصوى، وإذا كان لا بد للحركة النقابية والعمالية في طليعتها من أن تنهض، فلن يكون ذلك إلا بوقوف طليعتها في وجه الليبرالية المتوحشة، وتحقيق مستلزمات التنوير العربية، إشاعة الحريات، وفصل الدين عن الدولة وتحرير النساء، مع المهمة الأولى المتمثلة بالدفاع عن مصالح الكادحين العرب، وتحسين شروط معيشتهم، مقدمة لوعي قومي عربي شامل، إنساني المضمون يحترم حقوق مجموع مكونات المجتمع، ويرعى مصالحهم من الناحية المدنية وبأفق شامل، وحده يخرج رقبة المجتمعات من أنشوطة الأصوليات السياسية الخانقة «الطهورية الإقصائية»، من هنا أهمية تغيير الثقافة والأفكار.

لقد خرجت تركيا من عباءة «الرجل المريض»، ولكننا ما زلنا عشية لحظة سقوط عباءته عنا، الحالة المعززة بالمعنى التاريخي والإستراتيجي، باستعادة الأجندة حول «المسألة الشرقية»، وأسمال تلك العباءة، دول ضعيفة لم تدخل إيقاع العصر، بل تشد على أوتارها قدرية العصبيات على أنواعها القبلية الإثنية المذهبية والطائفية، تغيب عنها أولوياتها بعد أن أضاعت القرن العشرين، وقبله



اليَسَار

الدواء الناجع لقوى اليسار، لن يتمثل فقط فى المشاركة السياسية على أهميتها، نظراً لاستفحال الداء، بل فى إعادة بناء حركة شعبية تحررية تقدمية متنورة، بما يتطلب من جهود شاقة وضخمة

قرون عبره ضاعت حياة أجيال عربية متتالية، وضاعت مصالح كبرى وأساسية وأولويات تنموية من حياتها، دون أن تتعلم ماذا تريد ؟ وكيف تريد ؟ مجتمعات تغيب عنها الشفافية، وتغيب عنها حرية العقل، والحريات السياسية. التساؤل فى هذا الجانب فى المفاهيم والمبررات المترسبة التى تفترض بأن هزيمة المنظومة الاشتراكية، وسقوط الثنائية، وانتصار القطب الواحد قد هزمت معها «اليسار العربى». وهذا طبيعى فى العلاقة التحالفية معه فى معسكر حركة التحرر، والمفارقة فى قتامة الصورة أن انتصار القطب الواحد الإمبريالى لم تنعكس على الأنظمة العربية التى تحالفت معه وصرفت المليارات فى حروب أفغانستان، البوسنة، والهرسك، كوسوفو، حروب الخليج الثلاث، وغير مكان، لأن العلاقة «خاوة وتبعية»، ولا يمكن لهذه الأنظمة المتخلفة أن تحسب على انتصار المعسكر الإمبريالى.

على امتداد ستين عاماً من استخدام الإمبريالية للإسلام السياسى وأدلجة الدين عقدياً، واستخدام جماعاته فى العنف السياسى كرصيد احتياطى عندما يتطلب الأمر ذلك، والاصطدام بحركة التحرر العربية وقيمها، ساهمت فى تعميم بؤس الثقافة واستحضار الموروث من قعره التاريخى المضاف على الصورة القائمة، ثقافة قدرية مؤدلجة بترك شئون الدنيا التى لم يحز على فتاتها المواطن وربح ثواب الأخرة للحصول على السعادة الكاملة، حينها يربح «الدنيا والأخرة»، وأما الدنيا فهى مهاجمة التقدم المعرفى العلمى، التطور والحداثة السياسية والمجتمعية والواقعية، العصرية والثقافة الإنسانية العالمية، وتسميم عقول أجيال متلاحقة من الشباب والأميين البسطاء، فى مجتمعات الهشيم لتكون كالنار فى الهشيم، والبيئة الخصبة هو الفقر، ولأن مدن الصفيح والتهميش ونمط الحياة السياسية فى مجتمعاتها تعم بلواها على الحركات النسائية، والديمقراطية والتعددية السياسية والثقافية والدينية، وإذا ما حاولت الشعوب استيعاب المستجدات.

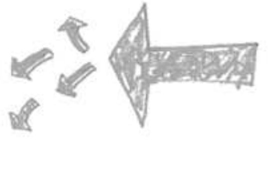
إن التأمل العميق فى الأحوال العربية المعاصرة، يعنى مباشرة إدراك أزمة النخب والمجتمعات . قل الجماهير . معاً . كلاهما يفتقر إلى مؤشرات قياس التقدم وتجلياته فى تحرير العقل لا تحريمه بالنقل، وفتح المجال الديمقراطى، أما النتيجة فهى أنه لا يمكن إنتاج وإنجاز الإصلاح السياسى، دون أن يترافق معه إصلاح ثقافى فكرى شامل، والمتناقض مع السائد الذى عجز عن إنجاز مراجعة نقدية وتشخيص للأزمة العربية فى مواقعها عبر إستراتيجيات محددة للخروج منها .

يطال هذا التشخيص بعض التيارات اليسارية، التى ما زالت تردد خطابها القديم، كما يطال التيارات القومية التى ما زالت تعيش فى خطاب ستينيات القرن الماضى (شعارات بلا برامج للتقدم)، وليس فى القرن الحادى والعشرين، والعولمة التى تتطلب إعادة صياغة المشروع، فى ظل الظروف والتجليات الجديدة. ولعل هذه السمات هى التى أنهضت جماهير ونقابات وقواعد أحزاب، وشعوباً وكتلاً بشرية ومجتمعاً مدنياً فى أمريكا اللاتينية، وأن تلزم التيار الثورى بتبنى برنامجها وأن يلتحق بها ويتوحد معها، فى إعادة صياغة مشاريع سياسية وايديولوجية لليسار: تبرز هنا تجربة هوجو تشافيز فى فنزويلا، ورافائيل كوريا فى الأكوادور، حين تلمست هاتان القيادتان وبإحساس عميق ومدرك لبرامج جماهيرها واستجابت لها، الشعوب ذاتها تخلت أيضاً عن الأحزاب التى لم تلتحق بها وببرنامجها، وتنضوى مع من استجاب لها، كضرورة لا بد من تحقيقها، ذات هذه المجتمعات اللاتينية، هى التى اكتوت بالليبرالية المتوحشة منذ عقود السبعينيات، فصاغت نخبها الجماهيرية بدائل للسياسات القديمة، مع حفاظها فى الوقت نفسه على القيم الأساسية للمشروع، وأهمها التركيز على الحاجات الأساسية للمجتمعات، على الجماهير العريضة فى مجالىَ الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية، معاً وسوياً، أليس هذا نقداً ذاتياً جريئاً وعملياً ورشيداً لبعض التيارات الماركسية، وبما يجيب على تحولات العصر والنظام العالمى الجديد وبالقطب الواحد.

تحمل غالبية تيارات الإسلام السياسى رؤية مغلقة للعالم، تقوم على التكفير وتحريم ممارسات اجتماعية وثقافية مشروعة، وتدخل بفتاواها «الدينية» فى ميدان الاقتصاد والعلوم والثقافة، والحجر على العقل بجدران غيبيات النقل وفى وسط شعوب عربية، تشير التقارير الدولية أن نسبة الأمية فيها بلغت ٤٠ بالمائة، مما يجعلها أداة للتغيير الاجتماعى غير الواعى، ومنه وبوسائل العنف. أما حركات المثقفين العرب لن يتاح لها رفع خطاب تنويرى لأن السلطة ذاتها تضطهد فى وسطهم من لم يوالها، والأهم أنها تخاف هى ذاتها أيضاً من هذا التنوير، لأنه لن يضع مصلحة النظام السياسى فوق أى اعتبار، وهى ذاتها أحد الأسباب الرئيسية لهذا البؤس العام.

وانطلاقاً من الطابع الاقتصادى والأهمية الإستراتيجية للمنطقة العربية، بتوافر أهم مصادر الطاقة فى العالم، عصب الاقتصاد العالمى، وربطاً بالعولمة وتراكم القوى الجبرية لرأس المال، المركز والأطراف. فإن هذه المنطقة ستبقى تحت الموجات العاتية لها، وبأشكال متعددة، نظراً لحيازتها على الطاقة الإستراتيجية.

يقوم بعض البحاثة العرب، باقتفاء أثر اليابان



وإجراء مقارنات، كيف حققت النهضة أهدافها باليابان المتقدمة الحديثة وسيادة النظام الرأسمالى اليابانى، وربما تكون المقارنة هامة، بيد أن الإقطاع «الميجى» اليابانى تولى بنفسه بناء الرأسمالية، لأن البوارج الرأسمالية الأمريكية أرادت فتح أسواقه بقوة السلاح للتجارة، فاضطر إلى الانتقال حماية للذات، دولة إقطاعية تتولى ذاتها الانتقال إلى الرأسمالية، قام الحاكم الإقطاعى العسكرى «الشوجون» بهذه المهمة، وهو الذى يحكم باسم الإمبراطور منذ أواخر القرن الثانى عشر وحتى ١٨٦٨ تاريخ الإصلاح الميجى، وتخلل هذه القرون فترات قصيرة منقطعة من الحكم الإمبراطورى الخالص.

ولا يعنى هذا اختفاء الياكوزا (المافيا اليابانية) من متاع الإمبراطور، كما حدث عام ١٩٩٩ حين قام أحد أعضائها بطعن ناظر مدرسة ثانوية فى أوزاكا رفض أن يرفع على سارية المدرسة علم «الشمس المشرقة»، كما لم يسمح بترديد نشيد «يعيش الحكم الإمبراطورى إلى الأبد»، وعلم الشمس المشرقة بما يرمز إلى تغطية النفوذ اليابانى الكرة الأرضية بأكملها.

فى السويد حصل الانتقال تدريجياً إلى الرأسمالية وبتسويات وبدون ثورات، العديد من البلدان خرجت من التنميط الستالينى المبسط، ولسلة ستالين الخماسية الصوفية المتسلسلة: المشاعية: العبودية؛ الإقطاع؛ الرأسمالية؛ وأيضاً (شرقية نمط الإنتاج الأسيوى)؛ فالاشتراكية. الماركسية والتاريخ قدمت تطوراً ارتقائياً وهو عمل عالمى واحد، وأن الرأسمالية ظاهرة جديدة، وليست قديمة، فهل يمكن تعميم النمط العبودى الذى نشأ فى اليونان أو روما على بلدان أخرى! بينما الإنتاج الرأسمالى نشأ فى بريطانيا وليس فى اليونان، والعديد من شعوب العالم الجديد الأصلية كانت مشاعية، إن الذى طرحه ماركس هو نظرة فلسفية عامة، مجرد نظام للنظرات وليس تحليلاً مفصلاً لكل وقائع التطور التاريخى، وما نحتاج له هو مدخل نظرية ماركسية عن الحال العربية.

فى العصر الموصوف الراهن، نرى أن العالم يعيش عصر التكتلات الإقليمية الاقتصادية، بما يملى من تكامل وتقليص الفجوة الفاصلة. والتجربة الأوروبية قد تبدو مفيدة للدول العربية، حيث تبرز الأرقام من عام ١٩٨٦ . ١٩٩٩ . ارتفع معدل الناتج المحلى الإجمالى لأفقر أربع دول فى الاتحاد من ٦٥ بالمائة إلى ٧٨ بالمائة، ويعود ذلك بفضل المساعدات السخية والتجارة الحرة الداخلية (السوق الأوروبية المشتركة)، والاستثمارات من داخل الاتحاد، وكذلك السياسة الحكيمة من قبل متلقى المساعدات، وتصحيح التفاوت.

وتبدو ماليزيا نموذجاً أكثر مناسبةً للحالة العربية، فى عملية الصياغة لسياساتها التنموية وبناء الدولة، وقد حققت تقدماً فى نسيجها الاقتصادى. الاجتماعى القائم على التوازن الملموس فى الرخاء، ودعم الروابط العرقية على مدار الثلاثين عاماً الماضية، ثم دخولها على مسار سياسات تتناسب مع التغيرات العالمية، مثل العولمة وتحرير التجارة والتقدم التكنولوجى فى مجال العلوم والاتصالات، لأن الدول لا تستطيع مواجهة التحديات إن لم تستطع إحراز المزيد من تحرير العقل نحو المعرفة وعلم التقدم والرخاء.

إن إستراتيجيتها تتركز فى تحقيق النمو المدعوم، لا سيما القدرة على المنافسة، والتى ستتحدد من خلال زيادة المعرفة ودعم القدرات التكنولوجية وإيجاد منتجات جديدة. والتأكيد على أهمية الاستثمارات المحلية والخارجية المدروسة. كما تضع فى تحدياتها النمو الطويل الأجل على المستويين المحلى والعالمى، فى سياق أوجه تطوير الرؤية الوطنية وأساسها اقتلاع جذور الفقر، بغض النظر عن الانتماء العرقى، وإعادة هيكلة المجتمع والتنمية المتوازنة، وتطوير المعرفة، وبناء دعم وصمود الدولة من خلال توثيق الوحدة، وغرس الروح الوطنية، والتسامح، ودعم النضج السياسى ورفع مستوى المعيشة، وتطوير الاقتصاد القائم على المعرفة. وبكلمة فإن ماليزيا بتحرير العقل دخلت الثورة الصناعية والعلمية، وهى الوحيدة بين ٥٧ دولة مسلمة التى دخلت عصر الثورات الثلاث الصناعية، العلمية، الإصلاح الدينى.

بعد هذه المحددات الرؤيوية العامة لمفهوم اليسار الديمقراطى المنشود، وفى سياق بناء برنامجه ونظام نظراته، فكيف يمكن لما يسمى بـ «اليسار» أن يذهب إلى التهاون مع السياسة الأمريكية على حساب الوطن، وواشنطن هى من أحضرت معها أنظمة المذاهب والطوائف وسكتها فى دساتيرها، الأمر البارز فى تحالفات «الإسلام» السياسى وواشنطن على اختلاف مذاهبه على مساحة ستين عاماً من الحرب الباردة وحتى ٢٠٠١ بكارثة البرجين، كيف يمكن تجاهل دور الأنظمة الطبقية العربية التى تحالفت منذ مطلع سبعينيات القرن العشرين مع أحزاب ومنظرى الإسلام السياسى ضد دعاة تحرير العقل، التحرر والتقدم إلى أمام، يساريين، قوميين، ناصريين، ليبراليين... هذه الأنظمة التى تحصد الآن ما زرعت من «عنف وإرهاب» على يد حلفاء النصف الثانى من القرن العشرين، حيث لا يمكن لليسار الفعلى الانضمام إلى جوقة مضطهدى شعوبهم مع الاحتلال، وهم يوصلون هذا الاضطهاد إلى النقطة التى تبرر سحقه واحتلاله، حيث تكون اللامساواة بلغت حدها الأقصى، حين يعطون لأنفسهم حق المشاركة فى الولائم وحفلات فتات نهب الوطن التى ينظمها الاحتلال، عبر دورهم فى خدمات «القابلة»، وعلى خرائب الوطن، الذى يتصاعد منه الدخان، يرفعون نخب صحة الاحتلال. هل يمكن تسمية هذا العبيط بـ «اليسار»، النسخة المشوهة والمنحرفة عن مفاهيم اليسار، بالمزج غير المألوف والاعتباطى بين ما هو سام وساقط، ومرعب ومضحك، وبطولى وتهريجى، إحدى سمات التراجيديا العربية، ولكن فى أى مفصل يترتب على المهرج النطق بمقطع من الدراما «البطولية»، فالأمر والقرار يترتب على المخرج الأمريكى وحده، وهكذا لا يمكن حصر هذه الأفكار والمفاهيم فى كل واحد.

المحدد الآخر وهو يشكل محوراً بذاته، حيث من غير الممكن الحديث بدقة عن اليسار، دون استعراض مجالات العلاقات الدولية الراهن، والإفادة من تطوراته بغض النظر عن الأسباب، مع ملاحظة إرهاصاته التى تؤشر مستقبلاً إلى التعدد القطبى. وعلى سبيل الأمثلة التاريخية؛ نسأل: هل استفادت مصر من موقف واشنطن من العدوان الثلاثى عليها عام ١٩٥٦، وبغض النظر عن أسباب واشنطن؟ أو هل رفضت «الجمهورية الأمريكية». الولايات المتحدة راهناً ذاتها، الدعم الفرنسى لكفاحها من أجل التحرر من الطغيان الإنجليزى. أيضاً بغض النظر عن الأسباب.؟ أو لماذا إنجلترا ذاتها قبل موقف فرنسا بمائتى عام حررت الجمهورية الهولندية من الظلم الإسبانى...؟! وكيف نأت الصين بنفسها عن الحرب الباردة بعد اتفاقات ماو. نيكسون مطلع السبعينيات؟ وقانون جاكسون. فانيك ضد الاتحاد السوفيتى الذى أعقب الاتفاق الصينى الأمريكى!... الأمثلة كثيرة والمقصود الإفادة مما تتيحه مجالات وتطورات العلاقات الدولية.

فى المحور الثانى الراهن؛ بات من غير الممكن الحديث بدقة عن اليسار الديمقراطى ودوره ونهوضه، دون استعراض مجال العلاقات الدولية الراهن، ومن خلال دراسة منهجية لما يحدث فى عالم اليوم، والذى يتسم بالترابط المتنامى بين الدول، وفى ظل نظام دولى محكوم عالمياً، يمكن لملمة تفاصيله تحت عنوان بارز عريض اسمه «العولمة». ويترافق معها الانفجار فى الحركات والجماعات والشبكات والمنظمات التى تتداخل فى حوار عالمى عام غير محلى، مؤداه النظر فى سياسة ومنهج بناء الدولة التى تستطيع مواجهة طغيان موجات المركز العولمى، ثقافات وممارسات إمبريالية الولايات المتحدة، القراءة البديلة التى تبين أن الأمور شديدة التعقيد، نظراً لأن الولايات المتحدة نفسها غدت مركزاً إمبريالياً على نطاق لم يشهده العالم من قبل. أحد أبرز أهداف هذه المنهجية هو عملية الكشف عن الجانب الثورى الذى يقف فى مواجهة مفهومها للعلاقات الدولية الراهن، وإضعافها للدول واجتياحها للحدود. ونرى الآن بروز هذه السمة الثورية فى بلدان أمريكا اللاتينية فى شكلها المتجدد، وسببها الأساسى تأثير مركز العولمة وعلاقاته الدولية على الشعوب والدول. الأمر

مشروع التنوير، تحول على يد الثقافة القدرية إلى محنة للتنوير، والمطلوب تدارك الحالة العربية قبل أن تصل إلى الأفق التاريخى المسدود

تحمل غالبية تيارات الإسلام السياسى رؤية مغلقة للعالم

الذى دفع مصطلح «المجتمع المدنى العالمى» إلى أعلى حركات الاحتجاج، بدءاً من رفضه الحروب باعتبارها مناقضة للعلاقات الدولية، وتبرز هنا الدولة التى تحرص على تمثيل شعبها، ومعها «المجتمع المدنى العالمى» على خشبة مسرح التاريخ الراهن.

وعلى ذات النسق يبدو أيضاً أن التاريخ الراهن بات ملائماً لتوجيه قدر كبير من الاهتمام للدراسات التاريخية السياسية. الاقتصادية لدراسة الصلات العالمية، وإجراء مقارنات مماثلة حول مصير الدول، بما تفترضه عودة «الإمبراطورية الأمريكية. البريطانية» إلى العراق وأفغانستان وليبيريا ومنطقة البلقان، وبالتحالف مع ما تسميه واشنطن الإسلام السياسى «المعتدل» دولاً وأحزاباً، أى الإدراك التام للطريقة التى تقع فيها الأحداث الكبرى فى سياق هذا العالم، وجانب من ممارسات الإمبريالية الغربية المعاصرة يظهر جلياً فى بعض الأحداث الدولية التى وقعت فى الثمانينيات والتسعينيات ومطلع قرننا الجديد، حرب الخليج الثانية، وتدخل الولايات المتحدة فى جرينادا وبنما والصومال وهاييتى ونيكاراجوا السانديستية، وحرب الفوكلاند التاتشرية. وأياً كانت جوانب التعقيد المتعددة لهذه العمليات، فإن هذه التدخلات الغربية الجديدة يُنظر إليها من زاوية واحدة، هى من عدم التماثل فى المستوى التكنولوجى الحربى التى تقف إحداها فى وجه الأخرى. أما التدخلات ذاتها فهى تشبه تلك الحروب الاستعمارية الكلاسيكية فى القرن التاسع عشر. ولدى البحث والتمحيص بالفكر، فإن الحالة تدخل فى مرحلة تجديد الأيديولوجيا الاستعمارية، ومن ثم ظهور خطاب إمبريالى غربى صريح على يد غلاة اليمين من المحافظين الجدد. قدم هذا الخطاب ثلاثة أسباب كل منها يعزز الآخر، يدعى الأول «فشل ما أطلق عليه تسمية العالم الثالث، بسبب الأزمات التى تتعرض لها هذه الدول»، خاصة تلك الدول التى ترتبط أوثق ارتباط بالتركة الاستعمارية بعد أن «تخلصت من الاستعمار»، والثانى تدفقات أسواق الأسلحة نتاج حقبة الحرب الباردة. هذه الحروب التى انتهت «بانتصار مركز استقطاب الغرب»، والأخير «ظهور مناخ فكرى عام محافظ اكتسح التجارب الاجتماعية الأخرى، والمطلوب تعزيزه كمنهج عالمى». أما الفرصة المواتية فقد كانت انتهاء الحرب الباردة فرصة غلاة اليمين المحافظ الذى يرى بضرورة وتجدد انبعاث ثقافة إمبريالية، أما بشأن السياسة الخارجية فقد رأوا ضرورة الممارسات الحربية المتطرفة والفوضى «البناءة».

كما تفترض مراجعة المحاولات السابقة لصياغة القوميات والدول، خاصة فى فترة الخمسينيات والثمانينيات من القرن الماضى، فقد جاءت فى إطار حقبة تصفية الاستعمار، وفى سياق حقبة ثورية عالمية ازدهرت فيها التوجهات الماركسية نحو بناء تاريخ جديد للعالم، ومع ملاحظة استخدامنا الحذر والمؤقت لمصطلح مرحلة «ما بعد الاستعمار»، فقد ظهرت تنويعات ناقدة تبين مدى العلاقات الإمبريالية الكولونيالية وإن كانت لاتزال قاصرة، لكنها حتى الآن نابضة بالتحليل الحىّ عن التنظيم الرأسمالى، وتبين أن النظام الدولى المعاصر للقوة متعدية القومية هو ما ينتج دولة «وهمية» تابعة لحكم عالمى شامل، يتشكل من الروابط بين قوى الشركات المتعددة الجنسيات والتمويل الدولى. وجوهر الهياكل التنظيمية الرسمية هو البنك الدولى، وعلى رأسها صندوق النقد الدولى، وفى قمة النظام الهيكلى ذا الطابع المحدد لإمبرياليات اليوم، المرتبطة بمؤسسات متعدية القومية، والقوى فوق القومية. ويتعذر تلخيص ذلك فى قصة واحدة فى مناحى جيوبوليتيك العالم. فهذه الإمبريالية ذات طبيعة ديناميكية متفجرة ومتعددة الأشكال. ورغم أنها نظام واحد فهى متعددة المراكز وتوسعية، وعليه فلا يمكن أن تكون مستقرة.

ويقع هنا أيضاً اهتمام الدراسات التاريخية الراهنة والموجه إلى دراسة الصلات العالمية فى الوقت الحاضر، وهى تتيح دراسة منهجية ليس لبحث الصلات فحسب، بل لإجراء مقارنات بين المجتمعات والدول وتطورها فى أنحاء العالم.

وبالإدراك أن هذا المجال يواجه صعوبات جمّة، بسبب من تعدد المنهجيات الفكرية. فعصر ما بعد الحداثة لم يمنع الحاجة إلى السرد التفصيلى فحسب، بل جعل من كتابته مسألة معقدة، بعد إضعافه الصلة التى تربط البحث بين الإنسان و«الاقتصاد السياسى»، ربطاً بالمفهوم التقليدى لـ «الدولة الحديثة»، ذلك الكيان المسيطر والمتصلب والمحرك الحقيقى، الذى يعكس التفاعل بين السياسة والاقتصاد والأيديولوجيا.

المحور الثالث هو ميراث الاستعمار وآثاره المدمرة، دون إغفال فشل العديد من النخب التى قادت مجتمعاتها للاستقلال، حيث تنتشر فى العديد منها المجاعات، والأمراض والحروب الداخلية، والحروب على حدودها، وتشتت مجتمعها المحلى، وتصاعد التوتر الإثنى، الدينى المذهبى، أو العنصرى. ولا يمكن أن يعزى كل ذلك إلى الميراث الاستعمارى، فهذه أزمات تاريخية مزمنة، رغم أنه قد تم وضع بذور لحالات الفرقة فى بعض البلدان، ويظهر ذلك بقوة فى كتابات النقاد المعاصرين. ففى أفريقيا على سبيل المثال قد انتزعت الأراضى من السكان المحليين فى القرن التاسع عشر، حين كان الاستعمار الأوروبى فى أقصى درجات عنفوانه، وبعض الأنظمة المحلية التى خلفته هى فاشلة.

إن مجموع هذه العوامل هى التى تخلق هوية اليسار الديمقراطى لهذا البلد أو ذاك، وهى وحدها ودون تسليح جيش حديث، بما يعنى من موازنات باهظة، تستطيع أن تحمى ذاتها بشعبها من الهيمنة العسكرية والاقتصادية الساحقة، بل تستطيع أن تفعل فى إصلاح النظام العالمى فى القرن الحادى والعشرين، لأنها تتعامل بذات الكفاءة المطلوبة مع قضايا العولمة الأخرى، التى تتراوح بين الصحة والبيئة والعمالة، طالما أن العالم لا يستطيع الحصول على نظام تجارى عالمى دون وجود سياسة اقتصادية عالمية، وسياسة عالمية للرعاية الصحية، وسياسة تعليم عالمية وسياسة أمنية عالمية.

كما أنها الدولة التى تستطيع أن تقدم تغيراً هائلاً فى دور المرأة، فى المساواة بين الجنسين، وتكافؤ الفرص، وحق التصويت والتمثيل. وباختصار هى الدولة التى تعتمد على الواقعية الطبيعية التى تقوم على مصالح الدولة ذاتها، وتوفير البدائل لتجديدها وتطوير وضع شعبها، وإيجاد الحلول لفقرائها، وسيطرتها على موضوعة البطالة والأمية، ولا يوجد بها مهمشون ومستبعدون، واستخدام النظام القانونى لتحقيق الرفاهية. فالأمر الخصب هو إشراك الناس فى حل قضاياهم العنوان الأبرز لليسار الديمقراطى.

ويمكن أيضاً: مراقبة الدور الخارجى والذى يفرضه الفاعلون (الاحتلال) فى موضوعة الدولة الفاشلة، وفى هذا السياق يمكن فحص الدولة العراقية التى بناها الحاكم المدنى الأمريكى بريمر وبارونات الطوائف، وتزايد المخاطر التى تفجر النزاعات الداخلية، والتى تجد تعبيرها فى قوانين بريمر: المشهور بالحيَل السحرية، والتى قدمها لإعادة بناء الدولة. وقد فاقمت فقدان الأمن والأمان، والفقر الشديد والإضرار المتعمد الذى يمكن اقتفاء أثره فى القوانين المذكورة، والتى يمكن تسميتها بحسب فلاسفتها «التدمير والفوضى الخلاقة»، أى سياسات التدمير الذاتى للعراق، وإدخاله فى محنة داخلية، فضلاً عن محنة الاحتلال الذى يروم تنفيذ أهدافه بممارسة الضغوط على الجماعات التابعة، التى تقرّ بفضله لوصولها إلى السلطة. القوانين ذاتها وصفة جاهزة لفشل الدولة، حيث يسعى الاحتلال والبناء الفوقى التابع إلى حل الأزمة باستخدام القوة وحدها، متجاهلاً الإجراءات الاجتماعية الضرورية والإصلاح القضائى، وتحفيز الاقتصاد نحو الإنفاق الاجتماعى، واستعادة أمان المواطنين، لبلد غنى بموارده. وقلة نادرة منْ تعرف كيف تصرف هذه الموارد وأين تذهب؟ أى غياب معايير ذات مصداقية لحقوق الإنسان والشعب، وأهداف واضحة وأساليب محددة لرسالة الدولة الجديدة، وهذا المجرى يقود إلى حلقات متتابعة من إراقة الدماء، يُستقطب فيها العراقيون إلى معسكرات



متمايزة، الأمر الذى من شأنه أن يقود إلى حرب أهلية فى حال تعمقه وعدم تداركه.

رؤى يسارية عربية

تمر البشرية بمرحلة انتقال جديدة وربما طويلة الأمد بفعل التناقض الجديد بين «المليار الذهبى» ومليارات الأطراف حيث يتململ فى الفقر والتهميش فى قارات العالم الثالث والجنوب خمسة مليارات من البشر.

قوة اليسار وفعاليته المستقبلية، هى فى قدرة الأمم على صياغة مستقبلها، أى توفير سياسات بديلة، مثلما يحدث فى أمريكا اللاتينية فى مواجهة التفتيت والهيمنة الإمبريالية. فى مواجهة محاولات خلقها لمشاكل خطيرة فى نظريتها «حول الفوضى البناءة» تتعلق بالهوية والإثنية والتعصب الدينى، حين تستخدمها لتحقيق أهدافها. فما يواجهها هو الديمقراطية ودولة القانون والإنسان الواحد أى الشعب الموحد، وكل هذا رهن بصد العدوان وأولويات شروطه. وهى دروس من الماضى نحو تطلعات الغد، فالشعوب الموحدة تستطيع الصمود والانتصار والعودة إلى منهج الينابيع الإنسانية، وهى يسارية بالتأكيد تدفع نحو التجديد الإنسانى منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا.

وطالما أن الفقر من الصعب تجنبه فى إطار النظام الرأسمالى، فإن الشبكة الاجتماعية الوحيدة التى تتجنب التباين الاجتماعى، لا تخفيف وقع آثاره فقط؛ هى مفاهيم العدالة الاجتماعية. فالاقتصاد العالمى هو بين أفراد النخبة، وبينهم نخبة ضئيلة تابعة من العالم الثالث والجنوب، والذى عممت صورته كمهاجر باحث عن لجوء فى خضم البحار، أو «إرهابى، أو أصولى»، بينما هو ضحية سوء التنمية والنهب الوحشى، ضحية غياب المساواة فى المواطنة داخل الشعب الواحد، غياب العدالة والديمقراطية بين الشعوب والدول، حين تدعى العولمة الرأسمالية والسوق الحرة إزالة الحواجز، لكنها إزالة الحواجز أمام رأس المال لا الآفاق المدعى موضوعاً.

كما أن المكاسب التى حققتها دول الرفاهية بعد الحرب العالمية الثانية تتراجع خطوة خطوة، وهذا هو طموح الليبراليين الجدد، بأن يعودوا بالعالم إلى علاقات القرن التاسع عشر بين المركز والأطراف، بين الشمال والجنوب، وهو ما رُفض فى سياتل فى أمريكا وبورتو اليغرو فى البرازيل ودربان فى جنوب أفريقيا وجنوه فى إيطاليا، وكل هذا فى مواجهة قمم العولمة على يد الدول الرأسمالية الصناعية السبعة الكبرى، وطالما أن الغالبية فى العالم هم مجرد مشاهدين مقهورين، يحدث ما نعيشه الآن، ثورات، مظاهرات مليونية، وحكومات لا تشعر بالأمان، نتيجة اجتراح حروب وإرهاب، أى عدم استقرار اجتماعى. أى كما كان يمكن لماركس أن يقوله: إنه لتناقض (تناحرى) لا إنسانى داخل النظام الرأسمالى.

وهذه هى الإمكانات الكامنة فى التاريخ، فى العودة إلى النزعة الديمقراطية التقدمية، فهى وثيقة الصلة بالنزعة الاشتراكية، وفى إطارها الحفاظ على استقلال وتطور الشعوب، وحقوق الإنسان والسلم والبيئة، وهى أقانيم مترابطة، معها مجموع الجماعات الديمقراطية التقدمية الجديدة. فنمط حركتهم الاجتماعية، هو ثقل تطلعات اليسار التاريخية، بمثله العليا «ديمقراطية الاشتراكية واشتراكية الديمقراطية».

أيضاً، هى الصورة الجمعية، القوة الفاعلة، التى يستعاد تنظيمها عالمياً، والتى من شأنها أن تقدم أسساً جديدة، لتوليد مظاهر التضامن على صعيد اليسار الديمقراطى كما على صعيد شعوب العالم، فضلاً عن التضامن الاجتماعى داخل الدول فى مواجهة تفكيكها.

ثمة نقاط كثيرة للتشابك السياسى، تهيئ أسباباً عديدة للتفاؤل منها: أن البشرية واقعاً وفكراً على أعتاب تحول جذرى جديد فى ارتباطات واقعية، تستكمل به إطارها الفكرى الذى تعمل على هديه. فالأزمة العالمية وضعت اليسار على طريق تحول جذرى، أى نحو مخاض جديد أشبه بمراكز التنبؤ بوقوع الزلازل، وهو وجه لواقع نسبى فى الزمان والمكان، وتبقى الخلاصة التاريخية الكامنة فى أن الاشتراكية قد غرست جذوراً؛ قيماً وأفكاراً؛ وأنها تجسد أمانى ومعانى فى وجدان الناس، ولهذا عليهم ابتكارها من جديد كضرورة للعمران الديمقراطى داخل الشعب الواحد، وبين الأمم والدول فى الإطار الكونى الكبير.

فى البداية، على المرء من أهل الراى أن يعلن موقفه بلا تردد، من أجل إحياء إحساس بالممكن، فى سياق التحولات. هناك أحزاب فقدت إيمانها بالاشتراكية بعد سقوط الاشتراكية البيروقراطية السوفيتية، بيد أن الحركات العمالية فى العالم قد ظهرت قبل الاشتراكية السوفيتية بزمن طويل، وانفصال المرء عن تراثه شكلٌ من أشكال الاستسلام، يقود إلى التكيف، وهو الطبيعة التى تزعم الليبرالية الجديدة تمليكها للبشر.

على صعيد هذه النخب والأحزاب التى تغيرت، تقول لنا التجربة والخبرة (قيادات أحزاب استبدلت مواقعها ولم تبق عقولها على أكتافها): إن من الخطأ ربط كونك مثقفًا بكونك يسارياً، فكونك مثقفاً ليس ضماناً للديمقراطية الإنسانية، وعلى سبيل المثال فإن العمال والشرائح الكادحة التى انضوت تحت لواء تنظيم نقابى اجتماعى، هم عضوياً يمتلكون تجربة أكبر بكثير من المثقفين، فضلاً عن أن قوتهم مستخدمة. وتؤكد نظرتنا هذه حركة الشعوب فى أمريكا اللاتينية، والتى تعتبرها واشنطن حديقتها الخلفية، فنهوض حركات اليسار أخذ يدق لتاريخ جديد، فى البرازيل دى لولا، وفنزويلا هوجو تشافيز، وبوليفيا ايفو موراليس، الأكوادور، نيكاراجوا من جديد، والأرجنتين واحتمال تشيلى وأورجواى، وجوارهم صمود كوبا المحاصرة تاريخياً.

وهذا كله، يشير إلى أن محاربة طغيان وهيمنة الخطاب الليبرالى الجديد قد أزفت، ليس من موقع نظرى، بل من موقع عملى نقدى معمم بالتجربة على نطاق الشعوب، وأنه فى نطاق الممكن إذا ما توافرت الفعالية والإرادة.

الهدف بالنسبة لكل القوى الديمقراطية والتقدمية على امتداد القارات الخمس هو الوصول إلى الجمهور، وجدار الصمت هو جدار مادى استناداً لرأس المال. وبذات الوقت التلفاز هو الأداة المهيمنة التى تجتاح وتحاصر بأطروحاتها حياة البشر شعوباً وطبقات اجتماعية وعلاقات بين الأمم والدول باستمرار: الخروج على هذا الحصار «الإجماع» بالغ الصعوبة، ولكنه ممكن فى مواجهة الخطاب المهيمن، وهذا يتم حين لا يشارك أصحاب الراى والتنوير فى هذه الغفلة، حين يقيمون نوعاً بديلاً فى مواجهة معتقدات خرافية تنشئها مؤسسات ضخمة بروؤس أموالها، أى فى مواجهة التصنيفات التى يجب أن تُطاع إملاءاتها. أما لماذا؟ فالسبب لأننا نتوجه إلى الناس الذين هم موضع أحداث التاريخ من الضحايا والمستبعدين.

ليس السياسى وحده فى هذا الميدان، بل هناك أيضاً مجموعات من منتجى الخطاب من مفكرين وكتّاب وفنانين وباحثين، عليهم أن يكونوا أيضاً قادرين مجدداً على الاستيلاء على وسائل إنتاجهم.

لقد استخدمت هذا المصطلح الماركسى، الكلاسيكى الطراز بشكل متعمد، لأن المفارقة اليوم هى أن الكتّاب والمفكرين المجددين، مُبعدون كلياً عن وسائل الإنتاج والإرسال، فلم تعد لهم سيطرة عليها، فما يجرى هو خصخصة تستبعد الثقافة المستندة على المعرفة الانتقادية، أى المقدرة على التحليل والحوار النقدى، ورفض كل تلك التوافه من حولنا والتى غدت نمطية بلا عمق أو تميّز. لماذا؟ لأن المعرفة الانتقادية هى مرادفة لتلقى الفكر اليسارى، وهى فى الواقع مدخل أساسى للثقافة الإبداعية، وكل ما ينبثق عنها من ثقافة إنسانية حيّة، ثقافة متفاعلة مع نفسها.

أما خصخصة الثقافة، فهى تستلزم إحالتها عملياً إلى الفاعل الخارجى فهو المهيمن والأقوى، وإلى القوى السياسية المتخلفة داخلياً باسم الأصالة (إحكام قبضة الموروث الثقافى السيكولوجى القدرى على المجتمع وخاصة الطبقات الشعبية)، فيجرى تخفيض قيمة الذاكرة التاريخية الحيّة للتعمية والتحول بعيداً عن التاريخ. مثلاً لو حاولنا أن نقول ما نقوله على قناة ذات

جمهور واسع لقوطعنا فوراً، أى عودة للخضوع للرقابة، لأن الذى يمسك بالمرساة المالية من الجريدة إلى الشريط التليفزيونى والسينمائى إلى الفضائية؛ يغير الموضوع فى اللحظة التى يصبح فيها أى شىء مهماً، وعندما تبرز القضايا الرئيسية، والتاريخ والواقع يردد القانون الطغيانى «من يملك يحكم».

وينبغى أن تبرز هنا تجربة الكاتب الجماهيرى، خاصةً أولئك الذين يملكون وقتاً للتفكير والإجابة، ومن ثم وضع المهارات فى متناول الآخرين، وهو أمر خصب فى التعبير، فى مواجهة الجنون المندلع باستبعاد رواية المظلومين المحرومين، الطبقات الشعبية الضعيفة، بسبب من تدوير رأس المال الطليق حول كوكب الأرض، ومن ثم توابعه فى منطقتنا، والتعبير هنا شكل من أشكال المقاومة المهمة، ومهما تنوعت ألوان الإبداع.

الفارق فى السياسة، عليك أن تكرر وتكرر أفكاراً تعرف أنها صحيحة ومجربة، إلى أن تسمع صدى صوتك، أى نتائجه على الناس، وهنا من الهام أن تبحث عن كل وسائل التعبير الممكنة، لإيصال رسالة إلى جمهور واسع، للكفاح ضد أشكال الظلامية الجديدة.

أخيراً: لقد رأينا المأساوى فى البدايات المضطربة والدموية للقرن الحادى والعشرين، ثم مظاهر السخط والاعتراضات الشعبية الجماعية فى جنوة، ضد اجتماع زعامات أمم العالم الأكثر قوة، لمناقشة مصير العالم. ثم العنف الاستثنائى لليبرالية الجديدة المستسلمة للاقتصاد اللا إنسانى. بدأ بتقصيب يوغسلافيا بالقصف الجوى المتواصل، وتلا ذلك سلسلة من الأحداث الدموية، بدأت بكارثة هجمات الحادى عشر من أيلول (سبتمبر) فى نيويورك وواشنطن، والحرب على أفغانستان، وإطلاق دموية شارون ضد شعب تحت الاحتلال فى فلسطين، وصولاً إلى احتلال العراق. ناهيك عن نزاعات وصراعات عرقية ودينية تتفجر فى العديد من جنبات هذا العالم تحت مرجل «اللامساواة فى المواطنة» وطوفان الفقر والبطالة والجوع فى صفوف أكثر من خمسة مليارات من البشر، بينما يغوص فى الثراء الفاحش «المليار الذهبى الوحيد» فى بلدان المركز الرأسمالى العالى التطور بالمعرفة العلمية وتكنولوجيا المعلوماتية.

فى سياق عالمى وعربى بالذات ينبغى العودة للمضطهدين، فالعولمة الراهنة هى تلك التى تجلب الثروات لقلة، وتتسبب فى صدامات جديدة مع رأس المال العالمى الاحتكارى، فضلاً عن ضغوطها على البيئة وتخريبها المتوحش للطبيعة. فالتجارة الحرة بالأسلوب الذى صممته ودعمته منظمة التجارة العالمية، قد استبعد العديد من الأمم والشعوب، ليس فقط طبقات معينة. بل، حولها إلى مجرد منهوب ومتفرج على نهب ثرواته، ونمو «الثروة العالمية» فكيف يمكن لهذا التناحر أن يستقر!.

لقد قام تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية (٢٠٠١) بتلخيص الوضع فى فقرة دقيقة: «إن أعظم مزايا العولمة أنها تدخر لقلة محظوظة، ويفترض أن الموجة المرتفعة من الثروة ستدفع كافة القوارب، لكن البعض قادر على الإبحار فى هذا الخضم أكثر من الآخرين، وترتفع اليخوت والبواخر العابرة للمحيطات، استجابةً للفرص الجديدة، بينما تجرف المياه الأطواف وقوارب التجديف، وتغرق القوارب الأخرى». وعلى ضوء ذلك حذّر رئيس برنامج التنمية للأمم المتحدة فى تقريره من «الانتقال من عدم المساواة إلى اللاإنسانية».

ثمة اختلالات عميقة داخل الأمم الكبرى ذاتها، نمو متزايد لوحشية وعدم المساواة اللاإنسانى، فعائلات القمة فى الولايات المتحدة الأمريكية تبلغ ١٪ من السكان، وتملك ما يقارب ٤٠٪ من الثروة القومية، يترافق مع تزايد ونمو فى نسب البطالة، ونمو هائل بمعدلات نزلاء السجون، بعد أن تم استبدال قوى الإنتاج فى عصر ما بعد التصنيع من بلدان ما وراء البحار. كما أنه قدر تعذيب شعوب بأكملها فى أنحاء العالم الثالث والجنوب، ففضلاً عن معاقبتهم بالفقر، فهم أيضاً معاقبون بتأمل مباهج إعلام العولمة المتلألئ أمام أعينهم. ■

كتاب الزاوية

فى الحذر من العدو

كتاب النصيحة

اجتهد يا بنى ألا تعادى، فإن يكن هنالك عدو فلا تخف، ولا تكن حرج القلب فكل من ليس له عدو يكون أمنية العدو، ولكن لا تكن غافلاً عن عمله فى الخفاء والعلن، ولا تتقاعس عن إساءته، واشتغل دائمًا بتدبير المكر به والإساءة إليه، ولا تأمن بأى حال من حيلته ومكره، واستطلع حال العدو ورأيه، ونبه إليه سمعك وعقلك، لتكون قد سددت عليك باب الآفة والبلاء، ولا تظهر العداوة للعدو ما لم يتبين وجه الأمر تماماً، وأظهر نفسك للعدو كبيرًا، والتزم الغيرة والحمية مهما تكن عاجزًا، ولا تظهر نفسك من العاجزين، ولا تعتمد على كلام العدو الطيب وصنيعه الجميل، ولا تثق بالعدو ولا تنزل البئر برسنه، وإذا لقيت السكر من العدو فعده سُمًا، واخش العدو القوى دائمًا، فقد قيل: يجب الحذر من شخصين: أحدهما العدو القوى والآخر الصديق الغدار، ولا تحتقر فى الظاهر العدو الحقير، ولا تقل من يكون هو، وعاد العدو الضعيف كما تعادى العدو القوى.

حــكاية

سمعت أنه كان بخراسان عيار اسمه مهذب، وكان محتشمًا ورجلاً طيبًا ومعروفًا، وذات يوم كان يسير فى الطريق، فوطئت رجله قشرة شمام فزلقت قدمه ووقع، فسل المدية وطعن بها قشرة الشمام، فقال له خدامه: أيها الرئيس أنت رجل محتشم وعيار ألا يخجلك أن تطعن قشرة الشمام بالسكين، فأجاب مهذب: إن قشرة الشمامة أوقعتنى فهى عدو ولا يجوز احتقار العدو، وإن يكن حقيراً، فكل من يحتقر العدو سرعان ما يصير حقيراً.

فكن دائمًا فى تدبير هلاك العدو، من قبل أن يجتهد فى هلاكك، أما الشخص الذى تعاديه فلا تحقره إذا قهرته، وحذار من أن تظهر عدوك عاجزًا، فلا يكون لك فخر كثير.

احتضار فكر أم أمة؟

نذير جزماتي

■ ■ لم أستطع إلا أن أتجاوب مع المقال المهم للأستاذ جهاد فاضل بعنوان «احتضار الفكر العربي!» المنشور في العدد ١٠١ من مجلتكم الغراء «وجهات نظر» الصادر في نيسان/ أبريل هذا العام، وإن كنت قد اختلفت معه قليلاً في الأسباب التي أدت إلى النتائج التي استخلصها.

ومن أحدث الأدلة، وهو أقدمها في الوقت نفسه، على صحة ما ورد في مقال الأستاذ جهاد فاضل مقال للأستاذ فؤاد خليل في لبنان بعنوان «العروبة.. الرأسمال الباقي» في ثلاثة أقسام: نشر الأول في جريدة «السفير» في ٢٦/٦/٢٠٠٨، ونشر القسمان التاليان في الجريدة نفسها في اليومين التاليين. والبحث بمجموعه صورة عما يسمى الفكر القومي العربي الذي لا يتضمن أينما ورد غير أمجادنا السابقة التي لم يسبقنا إليها أحد، وخصوصاً في مجال البطولات «العنترية» ومستقبلنا الذي لا يمكن أن يتحقق بغير الوحدة العربية الشاملة. ويضيف القوميون العرب إلى ما ورد على لسان الأستاذ فؤاد خليل شتم وتحقير كل ما عدا ذلك، أي الماضي الأسطوري، فنحن «خير أمة أخرجت للناس» والمستقبل الخيالي، لأمة عربية خالدة، لا تلتقي مع العلم إلا من حيث الترجمة غير الدقيقة لمفهوم (الأمة/ الدولة)، وما عدا ذلك لا علاقة له لا بالعلم ولا بالتاريخ، بل بشكل من أشكال شعر المديح في أيام الجاهلية.

ولا يمكن أن ينفذ حتى في الخيال مثل هذا البرنامج، برنامج الماضي الأسطوري، والمستقبل الذي لا يستند إلى غير التمنيات في عالم الخيال، غير العسكر الذين بدأوا مسيرة لا تقل طوباوية من أواخر الأربعينيات في القرن الفائت، لم تنته، ولا يعلم غير الله حجم الخسارات على كل الجبهات وكل المستويات التي حصدتها الأمة العربية الخالدة، ومع ذلك، فإن التهديد بانقلاب عسكري جديد لازال قائماً.

وإذا عدنا إلى ما يمكن تسميته التقصير العربي العام إزاء النظرية الماركسية - اللينينية استيعاباً، ومن ثم إضافة، إن كان في تبنيّ مقولة أو مقولات معينة، أو تلافي نقص في جانب من الجوانب، أو نقد ما هي بحاجة إليه انطلاقاً من رأي ماركس وانجلز المذكور في مقدمة «بيان الحزب الشيوعي» من أنهما لاحظا بعد خمس وعشرين سنة أو نحوها أن بعض الموضوعات قد شاخت، وسيقومان بالتجديد الضروري إذا ما أتيح لهما الوقت في المستقبل. انطلاقاً من هذه النقطة فإن عوائق كثيرة وكبيرة وقفت وتقف في وجه المثقفين العرب وغير العرب في المنطقة. وأكبر هذه العوائق هو الرغبة في قطع المراحل بقوة الإرادة وحسب.. مع أن ما يتصل بالفكر بحاجة، بعد عملية نضوج فوق نار هادئة إلى الانتقال الهادئ والمتواضع إلى عملية اختمار، تلحقها، في أغلب الأحوال، عملية الإبداع والاختراع إذا توفرت الظروف اللازمة لذلك. وأنا إن لم أكبر الشيوعيين السوريين من حيث العمر، فعلى الأقل واحد من القلائل ممن تجاوزوا السبعين وأكثر قليلاً. وأذكر أن عدد الذين كانوا يقرؤون ويكتبون في حينا، في دمشق، لم يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. ولم يكن أكثر من واحد أو اثنين قد حملوا أكثر من شهادة التعليم الابتدائية أي الصفوف الخمسة الأولى من التعليم. ولم تكن الأحوال التعليمية في باقي أحياء دمشق أفضل بكثير. وبالتالي، فإن الأمية في بلداننا العربية ومن ضمنها سورية، بعد أن تراجعت نسبتها في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، عادت فارتفعت نسبتها من ٣٠ - ٣٥٪ إلى ٤٠ و٤٥٪ وأكثر في صفوف النساء. أما الأمية المقنعة بألف قناع وقناع فقد انتقلت من صفوف الحائزين على التعليم الابتدائي والإعدادي، أولئك الذين فكوا ارتباطهم بالورق والقلم منذ سن مبكرة، لكي تشمل الخريجين من الجامعات الذين لم يكن الدافع عندهم للتعليم العالي غير الحاجة للحصول على وظيفة، وما أن تحقق لهم ذلك، حتى فكوا ارتباطهم هم أيضاً بالكتاب. و«زاد الطين بلة» تراجع المؤسسات التعليمية من المدرسة الابتدائية إلى الجامعة، وبؤس الأوضاع المعيشية لجماهير المعلمين والمعلمات، وعلى سبيل المثال فإن أجر شاب ترك التعليم واشتغل في حرفة من الحرف يتجاوز راتب أستاذ في الجامعة يموت جوعاً، إن لم يلجأ للغش والارتزاق وفق أساليب لا تعد ولا تحصى.



ومن جهة أخرى، فإن الأشخاص الواردة أسماؤهم في المقال المذكور لم يكن بإمكانهم أن يقفزوا في قفزة واحدة من قعر البئر الذي أشرت إليه إلى سطحها.. ولنسأل كم من قافز أجنبي قفز وانكسرت رقبته قبل أن ينجح هو أو ينجح غيره في فرض احترام أفكاره أو آرائه؟ وصحيح أنه «لم تكن هناك وجودية عربية، وإنما كان هناك انبهار بضجة ثقافية أو بهيصة ثقافية في باريس وصلتنا بعض أصدائها فشاركنا فيها متطفلين لا نملك سوى إعجاب ساذج يسيء إلينا أكثر مما يحسن، ولا يحسن أبداً». ولكن مثل ذلك حدث مع الأوروبيين في بدء نهضتهم التي تمثلت في ألف وسيلة ووسيلة للقضاء على النظام الإقطاعي الذي لعب الدور المنوط به في مرحلة

إن عـوائق كثيـرة
وكبيـرة وقفـت وتقـف
فـى وجـه المثقفـين العـرب
وغيـر العـرب
فـى المنطقـة

تاريخية محددة، ثم تحول إلى عائق للشعوب الأوروبية، يمنعها من التقدم إلى الأمام.. وما أن سقطت قلاع الإقطاع التى لم تزل قائمة فى بلادنا، فى هذا البلد الأوروبى أو ذاك بقوة الثورات الديمقراطية البرجوازية، حتى قامت الثورة الصناعية، التى أطلقت العنان للتقدم الأوروبى فى كل مجال من المجالات، وأدى ذلك إلى إحداث فجوة هائلة ما بين الأوروبيين المخترعين والمكتشفين.. إلخ، وبين باقى بلدان العالم التى تغطى شعوبها الفجوة بالتقليد الخادع إن كان فى لباسهم أو فى بناء مساكنهم، وتناول طعامهم وشرابهم... إلخ. ويصبح بالتالى ما كتبه هشام جعيط من أنه لا وجود لمثقف عربى باستثناء قلة قليلة جداً، ولا يمكن أن يوجد فكر فى بلدان متخلفة اقتصادياً وفى ظل أوهام سياسية كالقومية والعروبة.. ومن ناحية أخرى، لا ننسى غياب الحريات فكيف يمكن أن يشع فكر معين فى مجتمعات تسيطر الحكومات فيها على وسائل الإعلام بغباوة شديدة؟ فالمناخ هو «التصفيق الحاد» أو «العداء المسبق أو المطلق».

والواقع أن شيئًا أكبر «من عدم الجدية والرصانة والمتانة يحوم فى أفق جامعاتنا كما فى منابرنا الثقافية»، وقد تجلى هذا الشىء ما تجلى فى اغتيال رجال العلم من أساتذة الجامعات وغيرهم فى العراق. وبالتالى فإن أعداء ثلاثة انتصبوا أمام متطلبات الأستاذ جهاد فاضل فى بحثه القيم جداً. يتمثل العدو الأول، بحكام الغرب فى أوروبا وأمريكا الشمالية الذين يوظفون كل التهم العلمية المتقدمة جداً من أجل قطع طريق التقدم على الشعوب فى العالم الثالث بألف وسيلة ووسيلة، وكان من أخطر هذه الوسائل، إقامة دولة إسرائيل الصهيونية التى نجحت نجاحاً كبيراً فى تنفيذ مهامها القذرة التى حددتها لها الإمبريالية العالمية وعلى رأسها الإمبريالية الأمريكية. وهذا العدو هو الذى «يجعل التواصل بيننا وبين العالم الخارجى صعباً، بل متعذراً مع الوقت»، لا بسبب الناس البسطاء الذين يتلهفون على معرفة الغرب، وأكثر من ذلك يضحون بالغالى والنفيس من أجل الوصول إلى شواطئ تلك البلدان التى «قشت وتقش» القشدة من فوق الحليب الذى تحلبه بلدانهم.

ويتمثل العدو الثانى بمعظم الحكام العرب الذين لا يقل خطرهم كثيراً عن العدو بعد أن انتقلوا إلى صفه كأجراء يتبعون أساليب فى منتهى المكر والخبث فى خدمته، منها إطلاق الشعارات التى يزايدون فيها على الوطنيين الحقيقيين. ويقدم البعض من اليائسين خدمات مماثلة من دون أجر، ويطلقون على أنفسهم تسميات مثل: الليبراليين الجدد.

أما العدو الثالث فيتمثل بالجهل والأمية اللذين يرسخهما العدوان الأول والثانى بأساليب تتراوح ما بين الإغراء والإرهاب.

وقد سمح هؤلاء الأعداء الثلاثة لكى يتولى المسئولية فى القطاع الحكومى العام أباطرة حقيقيون لا يزحزحهم عن عروشهم شىء غير انقلاب عسكرى، يُحل محلهم أباطرة جدداً. أما أصحاب القطاع الخاص فى مجال الطباعة والنشر والتوزيع خصوصاً، فحدث ولا حرج وبسبب ذلك لم تصل ليد الأستاذ جهاد فاضل محاولات متواضعة مثل:

١ ـ هل سقطت النظرية الماركسية اللينينية فى الامتحان العملى؟

٢ ـ هل كانت ثورة أكتوبر ثورة اشتراكية؟

٣ ـ مساهمة فى دراسة العوامل التى أدت إلى إلحاق الهزيمة بـ «المعسكر الاشتراكى» واختفاء دولة الاتحاد السوفيتى.

ملاحظة: ما دفعنى أيضاً للكتابة إليكم هو عدم وصول عدد شهر كانون الثانى/ يناير من هذا العام إلى بائع الصحف فى حينا، وانتظرت كل هذه المدة على أمل أن يؤمن لى البائع العدد المذكور، إلا أنه لم ينجح. ■

كتـاب الـزاويـة

فى التجارة

كتاب النصيحة

أى بنى، ولو أن التجارة ليست بحرفة يمكن أن يقال لها صناعة مطلقًا إلا أنه إذا نظرت إلى الحقيقة فإن رسومها مثل رسوم المحترفين. ويقول الأذكياء إن أصل التجارة مبنى على الجهل، وفروعها على العقل، كما قالوا (لولا الجهال لهلك الرجال)، يعنى لو لم يكن الجهال لفسدت الدنيا. والمقصود من هذا الكلام أن التجار، طمعًا فى زيادة المال، يحملون الأشياء من الشرق إلى الغرب، ويخاطرون بأرواحهم فى الجبال والبحار ولا يخشون اللص والصعلوك، ولا يخافون الحيوان المفترس للناس، ولا الطريق غير المأمون، ويوصلون لأهل المغرب نعمة المشرق، ولأهل المشرق نعمة المغرب، ليكون بهم تدبير عمران الدنيا، وهذا لا يكون بغير التجارة، ويقوم بمثل هذه الأعمال الخطيرة من تكون عين عقله مغمضة.

والتجارة نوعان، وكلاهما مخاطرة: أحدهما المعاملة والآخر المسافرة، وتكون المعاملة للمقيمين، إذ يشترون المتاع الكاسد طمعًا فى الزيادة، وهذا مخاطرة بالمال، ويلزم لذلك رجل جرىء وبعيد النظر يخوله قلبه أن يشترى شيئًا كاسدًا طمعًا فى الزيادة، وقد ذكرت ما هى المسافرة، وعلى كلا الوجهين يجب أن يكون التاجر جريئًا غير وجل على المال والنفس، وينبغى أن يكون أمينًا، ولا يرغب فى إضرار الناس من أجل نفعه، ولا يطلب نكاية الخلق طمعًا فى ربحه، ويعامل من هم دونه، فإذا تعامل مع أكبر منه فليتعامل مع شخص ذى أمانة وديانة ومروءة، ويحترز من المخادعين.

خـــــرافـــــة

حـــــســـــان الـــــزيـــــن

في سنة ١٩٢٠ كانت الأطالس الجغرافية لاتزال «تحتفظ ببقع سوداء للإشارة إلى المناطق غير المغزوة بشكل كاف أو غير المغزوة بتاتاً»... لقد اعتقد الغرب الصناعي أن القرن العشرين لابد أن يسير باتجاه واضح نحو الطاقة.. وبسبب من الأوضاع المزرية للأمن القومي، فإن «البقع السوداء» تلك لن تستطيع الدفاع عن نفسها.

وهكذا، شيئاً فشيئاً بدأ انكشاف «أراضي الداخل» أمام الأطماع.

وهكذا ستبدأ الدول الصناعية بتقطيع الأرض، بالطريقة التي يتم فيها تقطيع مفاصل أعضاء الثور.

لقد جرى تصنيف هذا «الجسم الكبير الحي»، هذه المساحات من الأراضي إلى نوعين من المواقع:

- المواقع الغنية بالمواد الأولية.
- المواقع المأهولة بالسكان.

على هذه القاعدة قسمت الأراضي تقسيماً سياسياً وعسكرياً واقتصادياً إلى مربعات حددت وظيفة لكل منها ولكيفية استثمارها ووضعها في خدمة المصالح الاستعمارية.

لم تعد المردودية إذن مجهولة على الأرض.

وانتهت الحرب العالمية الثانية لتعطي الفائزين، أو المنتصرين، دورهم في «اللعبة الملحمية» للتقدم على حساب الآخرين.. وكان من الطبيعي ألا تجري الموافقة على ذلك في «قصر الأمم المتحدة الزجاجي».. ولكن عبر تعقب صراع المعسكرات في قلب القارات، حيث سيكون بالإمكان أن نرى عودة السيطرة على «مناطق مستعصية».

في هذا الإطار، لن تكون عُمان بمنأى عن لعبة الأراضي المستهدفة من القوى الاستعمارية، إضافة إلى الدور الذي لعبته «دول الجوار» في موضوع البريمي على سبيل المثال.

وهكذا لثلاثين عاماً تقريباً، وجنوب عمان سيشهد ثورة و«حرب أغوار» كانت طويلة ودامية تغذيها حالة الانقسام والتجاذب الدولي الذي حصل بعد الحرب العالمية الثانية تناوب فيها السلاح، والسلاح المضاد، في ظلام مخيف.. ويمكن القول إنه لم يسبق في سنوات الستينيات، أن أمضى هذا السلاح وقتاً للتجول بين جبال ظفار، كما لو أنه يلعب «دور دليل لسياحة الكوارث».

لقد كانت الصحافة تستقبل من عدن إلى حواف سهول صلالة استقبالاً حماسياً(!)

وكان أي صحفي يريد تغطية «حرب العصابات»(!) يعرف أي باب يدق: عدن. وكان بهذا يعرف عن نوعيته كضيف مناصر.

و.. ومن أجل فهم ضعف هذه الغيرة الإعلامية وهشاشتها يجب مغادرة مواقع الميدان، إلى عمق النسيج الاجتماعي لقبائل ظفار المتناحرة وإلى مقدمات حيثيات الصراع بين أبنائها بما في ذلك تأثيرات العوامل الإقليمية والدولية فيها.

بدأ البرتغاليون غزوتهم للسواحل العمانية في بداية القرن السادس عشر، وفي منتصف القرن السابع عشر «تمكن الإمام سلطان بن سيف اليعربي من طردهم لتعيش عُمان في عهده دولة اليعاربة، التي وفرت قدراً من القوة والاستقرار لا يستهان بهما، ولكن في فترة أخرى، وبسبب خلافات وصراعات محلية، قام الفرس «باستغلال الموقف للسيطرة على السواحل الممتدة إليهم من عُمان».. غير أن فكرة الغزو الفارسي، هي نفسها ستعيد اللحمة بين العمانيين، وسيقود الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي حرب المواجهة مع الغزاة، لا على مساحة عمان فقط، وإنما على مساحة الخليج العربي أيضاً، وصولاً إلى «فك الحصار الذي فرضوه على البصرة عام ١٧٥٦».

لقد اعتقد الغرب الصناعي أن القرن العشرين لابد أن يسير باتجاه واضح نحو الطاقة.. وبسبب من الأوضاع المزرية للأمن القومي، فإن «البقع السوداء» تلك لن تستطيع الدفاع عن نفسها!

ومن يومها ستتوارث الأسرة البوسعيدية الحكم في عمان.

وفي عهدها سيقيم السيد سعيد بن سلطان بن أحمد بن سعيد إمبراطورية وصل اتساعها إلى شرق أفريقيا وحدود الباكستان، هذا بالرغم من محاولات بريطانية وفرنسية لزعزعة بلاده، تمهيداً للسيطرة على جزء منها، وبالرغم من ظهور أخصام جدد تمثلوا حينها في آل سعود والقواسم، جنباً إلى جنب مع «ثورات داخلية ضد حكمه».

الآن، وبعد وفاة السلطان سعيد ستمتد يد الاستعمار لتقطع جسم الإمبراطورية العمانية إلى قسمين:

- سلطنة مسقط وعمان في الطرف الآسيوي.
- سلطنة زنجبار في شرق أفريقيا.

وكان على رأس كل سلطنة سلطان من البوسعيديين.

في بداية العقد الثاني من القرن العشرين (١٩١٢) ستعود الإمامة مجدداً إلى الظهور: لقد تم انتخاب الإمام سالم بن راشد الخروصي إماماً لعمان، إلا أن التركيبة القبائلية للسلطنة جعلتها في تلك الفترة عرضة للصراعات التي شرعت الأبواب في أكثر من مرة للتدخل الأجنبي.

وسوف تدخل بريطانيا في شقوق التصدعات الناشئة عن هذا الصراع، خدمة لمصالحها من جهة، وتركيز الاعتماد على قوتها من جهة ثانية. هذا ما كان في العام ١٩١٩ عندما وجه القنصل البريطاني في مسقط تهديده للإمام بوجود خمسة آلاف جندي مدربين ويعسكرون في العراق، وأن بضعة آلاف منهم تكفي لاحتلال عُمان كلها «وبأنه سيمنع عنه المواد الغذائية، وبيع المنتجات».. وهذا أيضاً ما حصل في العام ١٩٢٠ من خلال توقيع «اتفاقية السيب» التي تحدد بموجبها نفوذ السلطان (في الساحل) ونفوذ الإمام (في الداخل).

وبعد وفاة الإمام محمد بن عبدالله الخليلي عام ١٩٤٥ عادت الصراعات القبلية من جديد مما اضطر السلطان سعيد بن تيمور للتدخل عسكرياً لترسيخ الوحدة الوطنية وتوحيد البلاد، وعرفت تلك الفترة (١٩٥٧ ـ ١٩٥٩) بأحداث الجبل الأخضر.

كانت تلك هي الخمائر الأولى، التي تكونت على قاعدتين: الصراع على عمان.. والصراع في عمان.

فمن جهة برزت إلى السيطرة قوى استعمارية لم يسبق لأي قرن في التاريخ الحديث أن شهد مثلها، ومن جهة ثانية برزت أعراض تشير إلى صراعات داخلية قبلية كانت مكتومة، إضافة إلى أعراض الأزمات الناشئة عن المديونية الكبيرة وتداعياتها الاجتماعية.

تعاظمت أيام الفقر والبؤس، وفي بيئتها راحت تتجلى متجاورة ومتداخلة صراعات متعددة الوجوه، وكانت أشبه ما تكون بذلك «الإيقاع الاستوائي» في عملية التعارض، والمشاعر المتفجرة، والقبائل المتصارعة فيما بينها من أجل الحكم، والأنانيات المتصادمة تصادماً عنيفاً.

في أوقات كهذه: كان الزمن في عمان قد كف أن يكون سهراً أو ملاذاً لأحلام وردية: في «قلعة الجلالي» ما إن تنهال المطرقة على صاج كبير، حتى يلعلع صدى قذائف وثلاث مرات متتالية، من مدفع يتربص بالوقت، وهو قابع متعال في «قلعة الميراني».

إنه «الدوم» أو القصة الحزينة التي كانت تروى مرة بعد أخرى وبسائر اللهجات العمانية كلها: لقد أثبت الخوف أنه ليل يستحيل أن يقاوم إلا بضوء فانوس، وهذا الأخير كاد أن يكون على الدوام «هوية» مملوءة أمام الشرطة بالشك، ولهذا لم تبرز الحياة على السطح، إلا حين «يفقد» الشرطي رقابته على الناس.

وهي رقابة اكتسبت آلية وسلطة، مدججة بكل أنواع الأسلحة المعنوية والمادية التي تمتلكها قوة عظمى استعمارية.

وبالعودة إلى الليل، وبعد أن تكون الأبواب قد أغلقت، وفُرض منع التجول بسبب الأوضاع المتوترة، فإن نصيب من لا يحمل تصريحاً وقنديلاً، هو العيش في فلوات الظلام.

ومع قسوة الظروف المعيشية لم يكن

ميلاد المثابة العمانية
حسان محمد الزين
بيروت: دار الناشر العربي

العــــزلــــة

السفر إلى الخارج متاحاً إلا إلى الهند أو باكستان، ومن يسافر فقد يستقر فى الخارج ولا يفكر بالعودة مرة أخرى.

وبالطبع لم يكن هذا الإجراء متاحاً إلا للرجال فقط! ولذا نشأ عن ذلك خلل بنيوى فى هيكل السكان؛

إن ما كان يتناهى صداه عند تخوم تلك الأمكنة هو العمل الذى كان يهب مردوده للبيت الذى هجره صاحبه.. ولكن أين هو هذا العمل؟

بالطبع لم يكن العمانى ليجده بسهولة، خصوصاً أن الهند أو الباكستان، تماثل فيها البؤس أيضاً منذ قرون فإذا بـ «عملية الإنقاذ الأسرى» هى عبارة عن جهد مبذول، من أجل الإمساك بأطفال تسلقوا إحدى التلال، وسيعمل الأب على إنزالهم إلى تلة أخرى لا تقل وحشة وعداء وبرداً.. وهكذا كان على البعض من العمانيين أن يعيش بين مقتلعين مثله؛ فى أرخبيلات الفقر واللاجئين ومدن الصفيح.

لم يكن خارج هذا المشهد إلا النخبة وأصحاب الكفاءات وربما أصحاب رؤوس أموال. وسيشكل هذا بدوره تصدعاً ونزيفاً فى الهيكل الاقتصادى والعلمى، والثقافى، فضلاً عن مفاعيله القاتلة فى الهيكل الديموغرافى.

والمشهد هنا لن ينتهى عند هذا الحد.

فى خانة المقتلعين، ونتيجة للأوضاع المضطربة بالبلاد وقلة الموارد، ومن أجل البحث عن موارد للرزق، تندرج حركة النزوح الكثيف نحو مدن لا عودة منها، حيث النازح الذى اجتاز ريفه إلى مدنه، يبدأ الشعور بأنه انتقل من مكانه المكثف، ليصبح «أجنبياً» فى وطنه المسربل.

إن المواطن النازح من ريفه ليلتقى المدينة فى هربه، أصبح تماماً مثل «اللاجئ» الذى يلتقى الحدود.

وجميعهم باتوا يفكرون، بأن البؤس بات خالداً مدى الدهر!!

ولكن من جهة أخرى، وفى الثلاثين سنة الأخيرة من حكم السلطان سعيد تراكم تراث طويل من «الحراك..» من الهروب.. كان هذا فى الداخل الذى سيؤجج الصراع المتمادى الذى يزيده حدة عجز السلطة عن إيجاد الحلول للأزمات المتعاقبة، القبلية والاقتصادية والاجتماعية.

هذا الصراع الذى لن يكف عن التصاعد، والذى سوف تنبثق عنه بيئة مواتية لأن يكون «القتال خيراً من البطالة»، وكان قد انطبق على مجموعات من الرجال والشباب، لا على أفراد.

وكان هذا «الوضع المدارى» الخاص بالهاربين من أثقال الأزمة لا يقدم مكان استقبال نهائياً لهم، بل من الآن فصاعداً، سيقدم له مكاناً لتجمع ثالث وهو مكان «اقتلاع أقصى» للجذور. إنه «الدرجة الصفر» من التفاؤل حيث لن يجرى الاعتراف به داخل هذه المجمعة. إلا بصفته يأساً من كل شىء، وسيجرى الإبقاء عليه هنا فى وضع غير قانونى، أو فى نوع من «الفخ السياسى»، إذ لم يعد ابن فى قريته أو مدينته، أو قبيلته، ولكنه أيضاً لن ينتمى إلى مكان ثان، لأنه بات «حالة على حدة»، حالة تقتصر حمايتها على ممارسة تؤيد كرهه للواقع المعاش.

و.. إن آلة الحرب، المغذاة بهؤلاء ستعيش فى جانب منها على هذا «المخزون» الذى أنتجه تراكم الأزمات وقصر يد السلطة عن حلها واستفحال الضغوط الإقليمية والدولية على البلاد فى تلك الحقبة.



إن «الأرخبيل» الآخر الذى أنتجته تلك السنوات، هو أرخبيل (تجمعات الهنود) «يشار عادة إلى هذه الظاهرة بكثرة العمالة الوافدة، وحشد التجار الهنود الذين وفدوا إلى هذه المنطقة فى فترات سابقة وأنشأوا كياناً تجارياً وسوقاً تجارية فى مسقط. إن «تضخم» مدينة مسقط إنما جاء من هذا الجزء بالذات، وسواء أطلقت تسمية مدينة مطرح أو حى الهنود أو التخوم، فإن وجه المدينة الفعلى هو الذى سيتورم بانتظام، ولهذه الظاهرة أسباب متنوعة.

بنى عمالية غير مكتملة.. سياسة زراعية وتجارية مأساوية.. انحطاط المدى الجغرافى.. والتأثير الجاذب الخاص بالهجرة والتخلص بالهروب..

ومن هنا تنامت تلك الظاهرة فى الأصل كرد فعل موافق.

وهذا ما زاد من «وزنها» النسبى ومن جاذبيتها بالنسبة للسلطان سعيد: إنها نوع من توازن العمل..

ولكن هذا التوازن أهمل «عاملاً جوهرياً يعطيها فرادتها»، حيث إنها كانت تجمعاً للمشهد الخادع، فكل أشكال «الازدهار التجارى» إنما يراها المواطن كما لو أنها «ثروة» يتغذى بتأملها.. نوع من العيش فى شقوق غنى لا يستفيد منه.

باختصار كان مشهداً يجمع تشكيلة لا تتحدد بالعمالة فقط، وإنما بحالة الفراغات الوطنية التى سقطت فيها المدينة.. حالة عمل متخثر فى مجمع خاص «بدهماء حنطية»، وهنا الأمر لا يتعلق بإنتاج وإنما باستهلاك؛ بكسب الأرباح وليس بإنفاقها إلا ما كان ضرورة للحياة وهذا لم يكن شأناً عمانياً فقط، إنما كانت سمة لكل الأسواق الناشئة فى تلك الحقبة، خاصة فى منطقة الخليج وعلى امتداد العالم العربى بأسره.

وعند هذه النقطة من «الموازنة»، لا تظهر مسقط عمان إلا كبلد تحدده ميزات نافية: هى غير وطنية حتى ولا تقدم نفسها كنمو يقدم نفسه لمن يريد أن ينمو.

وخلف تنوع هذا المشهد ينضم الجنوب ليضيف فصلاً آخر من فصول المآسى الكبرى التى عاشتها خلال عهد السلطان سعيد الذى كان يدير شئون الدولة من قصر الحصن.

كان «قصر الحصن» فى صلالة عاصمة محافظة

ظفار التى أبت رغم كل شىء أن تغادر التاريخ.

السلطان سعيد بدوره لم يغادرها لمدة ١٤ عاماً حتى تاريخ خروجه من السلطة. لقد عاش «السلطان فى هذا القصر وقتاً طويلاً، يحكم ويدير البلاد، ويوقع المعاهدات.

عندما كانت عمان «تهمهم» وتئن، إنما كانت تفعل ذلك أمام المحيط الأكثر همهمة منها: فى لحظات حوارهما وفى مقاربتهما للتاريخ الذى خبا وهجه، كان المشهد يزداد عمقاً.

كانت «موضوعات» كثيرة فى هذا الحوار جديرة بالإصغاء، ولكن غالباً ما كان الصمم هو «الغذاء» الوحيد الذى يقتات عليه الإهمال! ولذلك بقيت المدينة أعمق انتماء للمحيط وهى ترقب لحظة الغسق: إن الغسق الخريفى، رغم تورده المنساب، حيث «تتدحرج الشمس مثل عربة ملتهبة أمام الجبال المتجهمة أوحى للأهالى «بحريق هائل..». وفى تلك الأيام من ستينيات القرن العشرين، كانت الثورة هى طليعة هذا التنبؤ لغسق سيطول أمد غوصه وراء الأفق.

بعيداً جداً عن الأفق، فإن ضوء القناديل المتناثرة خلف النوافذ، لا تلبث أن تظهر مثل «نواس مختل» يحاول أن يتلمس بساعاته القصوى، مأزقه العميق: يظل نائياً، ولن يغدو موجوداً إلا فى سياق ذلك «الاستعراض المشهدى» للظلام الدامس.

لقد مضت تلك الأيام التى كان فيها السلطان سعيد بن تيمور يقوم فيها برحلات طويلة فى عمق عمان ويرفقته عدد من الوجهاء، وذلك فى إطار حرصه ومسعاه من أجل توحيد مناطق البلاد المختلفة ومنها (نزوى) التى كانت تشهد توترات قبلية، كما أدت الرحلة إلى تأمين سلامة العاملين فى حقول النفط فى فهود.

وفى مقاربة بين زمنين: زمن الإقامة فى خيمة، وزمن الإقامة فى قصر محاط بطبيعة تم احتيازها أمنياً نظراً للتوترات التى عاشتها البلاد، تظهر كآبة «الظرف الأمنى» الذى جعل السلطان بعيداً بعض الشىء عن شعبه.. بعيداً عن مصباح يقوم بإطفائه وعن نار «تحرسه» ولا تنطفئ إلا فى الساعات الأولى من الصباح.

إنها لمفارقة أن يكون السلطان هو ذاته!

سلطان يعبر الوديان والجبال ويمر على قبائل طافرة مثل قبيلة القارا، ويعبر «جدات الحراسيس» الواقعة ما بين الجبال الساحلية والربع الخالى وإلى غيرها من الأماكن النائية، من غير توقف إلا فى أوقات الصلاة، ودون حساب للأميال، والإرهاق والعرق، والأيام المتواصلة، على قدر ما كان يريد الاتصال مع الناس.. وسلطان لا يعبر حتى المسافة الواقعة بين القصرين: الحصن فى صلالة والجلالى فى مسقط، الأمر الذى فرضته عليه الظروف الأمنية والسياسية لتلك المرحلة.

غير أن هذا هو ما حدث: الأذان وحدها بدأت تتمتع بالعلاقة الصامتة مع الناس!!

ولهذا فإن فترة حكم السلطان سعيد بن تيمور (١٩٣٢ ـ ١٩٧٠) التى بدأت تلقائية وانتهت بالعزلة القاتلة تشكل أحد الأزمنة الأكثر بؤساً والأشد كآبة فى تاريخ الدولة البوسعيدية: وذلك لما شهدته عمان فى تلك الحقبة من أزمات وقلاقل كانت بمعظمها خارجة عن إرادة السلطان ومرتبطة بشكل أساسى بالخلافات القبلية والتدخلات الإقليمية والخارجية ويتفاقم الأزمة الاقتصادية كما أشير إلى ذلك سابقاً.

ولم يكن واقع الارتباك فى إدارة شئون الدولة ولا مداه هو الشىء الوحيد هنا، وإنما أيضاً عنصر الجمود وعدم القدرة على مواكبة المتغيرات والتحولات العالمية التى ظهرت فى الحرب العالمية الثانية، وبدأت مرتسماتها تتجسد على خارطة الطريق، حيث لا يمكن لأحد أن يتجنب نتوءاته وتضاريسه، ما لم يكن مجهزاً تجهيزاً بنيوياً وفى دروب التجهيز السياسى والاقتصادى والاجتماعى والعلمى والثقافى كافة:

أولاً: كانت الحرب العالمية ذاتها قد كشفت عن إرهاصات لثورات ثلاث:

ـ الثورة الإلكترونية: والتى تمثلت بأجهزة «الترا» لحل الشفرات.

ـ الثورة الإدارية التى وجدت تعبيرها بتنظيم الإنتاج الحربى وتحركات الجيوش.

ـ الثورة الفضائية التى ظهرت تباشيرها فى الرادار والصواريخ.

ثانياً: كانت الحرب إياها، قد أحدثت انقلاباً نوعياً فى موازين القوى الدولية. لم يعد الدور لقوى أوروبا القديمة، بل انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى.. هذا فضلاً عمن يملك السلاح النووى.

ثالثاً: الأطالس الجديدة للجغرافيا السياسية، والتى رسمت خطوطها ومناطقها ومواقع الثروات فيها، الجوائز التى منحت للمنتصرين فى تلك الحرب، وكان من بينها محتويات ما سيعرف بالعالم الثالث.

أما ما بعد هذه الحرب، فإن الطريق نفسها كانت مفتوحة على مجالات حيوية اقتضت أن يُحسب مداها، وحجمها وتأثيرها:

إن ما بدأ يظهر جلياً، أن تلك الزلزلة التكنولوجية ـ والتى كان بالإمكان حتى وهى فى بداياتها أن يرى المرء ـ آثارها رويداً رويداً لثورة دائمة فى شروط الحياة ستبدأ السيطرة حثيثاً على اللانهايات الثلاث وإخضاعها:

❖ لقد فتحت السيطرة على الطاقة الذرية عصراً فى «تفتيت المادة الخاضعة للرقابة، وفى التعامل مع «مستوى الصفر اللامتناهى، بحيث لا يبقى هناك أى حد للغنى وللتحكم اللذين يوفرهما هذا المستوى، فهو على الأقل إذا ما اتخذ وجهة عسكرية، سيكون قادراً على تفتيت نوع الطبيعة ذاتها!

❖ أما على «مستوى الكبر اللامتناهى، فتحت الثورة الفضائية مجالاً لارتياد الكون وتجاوز حدود النوع فى نطاق الكوكب الأرضى.

❖ وأما ما خص «مستوى المركب اللامتناهى، فإن «الثورة السبرانية، وهى (ثورة الآلات الحاسبة، وأوتوماتيكية الإنتاج، والحساب العلمى) بدأت تحضر لمن «ينوب عن دماغ الإنسان، وتحريره من «أعبائه، لأجل وظيفته فى الحلف والذى سيتضح لاحقاً كم أنه قد فاق خيال الإنسان وكم سيفتح أمامه آفاقاً لم يكن ليتصورها أبداً.

كل هذا كان يحتاج «وإن بالتعامل والملاءمة، إلى وعى بـ «التحول الأساسى الجارى».

وكان أول شرط من شروط توفر هذا الوعى، هو أن تدار الدولة بعقلية المتصل مع العصر، وأن تسير متطلبات هذا العصر، ومتطلبات الديمقراطية والنمو التعليمى فى الاتجاه نفسه.

ولكن حتى أواخر ستينيات القرن العشرين كان كل جيل يجد نفسه أمام الشروط الخاصة للتحولات، وكأنه فعلاً أمام «معطى» زمنى لا يمكن تعديل ثوابته التى فرضتها الثوابت الناجمة عن تلك الثورات العلمية والتكنولوجية وانعكاسها على البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأى بناء مجتمعى ولا حتى تحريكها قريباً أو بعيداً عن هذه الثوابت.

وهكذا فإن شباب ١٩٤٥ ـ ١٩٧٠ هم الذين تلقوا المأزق الناشئ عن القصور فى مواكبة تلك التحولات.. فمن إذن سيتولاه العجب إذا ما تمردوا أو ثاروا أو.. من يلومهم على ذلك؟.. كان التمرد هو النتيجة الحتمية للتعثر الذى رافق تطور بناء الدولة فى ذلك الوقت.

والواقع أنه فى كل نظام يعانى من الأزمات ويتجاهل أو يستبعد المشاركة الواسعة للمواطنين فى تحمل المسئولية بمواجهتها من إبداء الرأى إلى المساهمة بإنتاج القرار، ولا يتيح لهم المشاركة الحقيقية فى بناء البلاد التى يرتبط مصيرهم بنموها وسلامتها، سيضعف حكماً سبل التوصل إلى اجتراح الحلول الناجعة للأزمة ويفقد تفهم المواطن لأسبابها، ما يدفع فى أحيان كثيرة إلى تفجر حالة الرفض فى المجتمع.

لكن فى الواقع أيضاً أن «التجربة التاريخية قد بينت ـ يا للمفارقة ـ أن الثورات المعارضة نفسها ليست فى حمى من أمراض تصلب الشرايين». ■



«الميج» المصرية و«القنبلة» الإسرائيلية

أحـــــمــــد حــــجـــــاج

اغتيــال كينــدى المفــاجئ عـطل مسيــرة واشـنطـن فـى الخارج خـاصـة فـى الشــرق الأوســط

■■ أفرجت الخارجية الأمريكية منذ فترة عن عدد من الوثائق السرية الخاصة بها وبالبيت الأبيض فيما يتعلق بالشرق الأوسط. ولفت نظرى عدد من الوثائق المتعلقة بالأسابيع الأولى من حكم الرئيس كينيدى عام ١٩٦١، وهى الفترة التى شهدت رغبة كينيدى فى تحسين العلاقات مع القاهرة وعبدالناصر، ومحاولة استغلال إسرائيل موضوع الأسلحة السوفيتية لمصر لتخويف واشنطون من التغلغل الشيوعى فى المنطقة أو فى أفريقيا خاصة مع اندلاع أزمة الكونجو وإرسال مصر لقوات ضمن قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام.

الوثيقة الأولى بتاريخ ١٦ فبراير ١٩٦١ لمحضر اجتماع ماكجورج باندى المساعد الخاص للرئيس كينيدى للأمن القومى مع افراهام هارمان سفير إسرائيل فى واشنطون الذى كان برفقته موردخاى جازيت الوزير المفوض بالسفارة وهو رجل عسكرى قام بدور فى العمليات الإسرائيلية ضد الدول العربية فيما بعد، ويبدو أنه كان حلقة الوصل بين وزارة الدفاع الإسرائيلية والإدارة الأمريكية فيما يتعلق بسعى إسرائيل للحصول على أسلحة أمريكية حديثة، وهو موضوع كانت واشنطون مترددة بشأنه وخاصة بعد الأنباء التى تواترت عن إنشاء إسرائيل مفاعل ديمونا الذرى واحتمال إنتاج أسلحة نووية عن طريقه وهو ما نفته إسرائيل قطعيا فى ذلك الوقت من أجل التسويف وطمأنة الإدارة الأمريكية فقط ظاهريا.

بدأ السفير الإسرائيلى الاجتماع بقوله إن الأوضاع الهادئة فى الشرق الأوسط استمرت الآن لأربع سنوات، فمنذ عام ١٩٥٨ فإن السياسات الهدامة للجمهورية العربية المتحدة قد تم إيقافها تقريبا فى الأردن ولبنان والعراق. وأظهر الاجتماع الأخير للجامعة العربية فى بغداد تراجع الاتجاهات الوطنية بين العرب التى عملت القاهرة على إثارتها ودفعها. عبدالناصر لم يستطع السيطرة على العرب مثلما كان يفعل فى الماضى، وعندما علق باندى أنه ربما يكون تراجع عبدالناصر قد دفعه إلى الكونجو، قال السفير أن ذلك ليس بعيدا عن الواقع، فعبدالناصر شخصية قلقة وعندما يتم وقفه فى منطقة ما، فإنه يسعى إلى جهة أخرى والآن فإن أفريقيا هى هدفه الرئيسى.

ذكر هارمان انه بالرغم من الهدوء السائد، إلا أن هناك عاملين يدعوان للقلق فى الشرق الأوسط وخاصة بالنسبة لإسرائيل وبالذات موضوع التسليح الذى يعد أكثر حساسية. فمصر منذ عام ١٩٥٥ هى التى أخذت زمام المبادرة فى هذا الشأن عندما بدأت فى الحصول على الأسلحة السوفيتية. ومنذ نهاية ١٩٥٧ بدأت فى الحصول على المقاتلات السوفيتية من طراز ميج ١٩ وهى أفضل بكثير من أى مقاتلة لدى إسرائيل وفى قدرتها إطلاق صواريخ جو/جو. وعندما سأل المستر باندى عن أى نوع من الصواريخ يشير إليها السفير الإسرائيلى، أجاب أنه ليس لديه معلومات حول هذه المسألة ولكن بالتأكيد فإن الميج ١٩ تستطيع حمل صاروخ فضلا عن سرعتها الهائلة وقدرتها على الطيران على ارتفاع عال وهى تستطيع التفوق على أفضل طائرة لدى إسرائيل مثل السوبر ميستير الفرنسية. ولذلك فإن إسرائيل تتفاوض مع فرنسا من أجل الحصول على طائرات ميراج والتى لا يمكن فى الوقت الحاضر توريدها قبل ١٨ شهرا.

وقال السفير أن إسرائيل متأكدة ولديها الدليل بأن الجمهورية العربية المتحدة (لم يكن انفصال مصر وسوريا قد حدث بعد) تملك طائرات ميج ١٩ وبعض هذه الطائرات تم تزويد العراق بها، إضافة إلى أن المدربين السوفييت قد وصلوا إلى مصر.

وعندما سأل باندى عما إذا كان الطيارون المصريون أصبحوا أكثر كفاءة عن قبل، قال السفير أن ج.ع.م قامت بجهود كبيرة وناجحة من أجل زيادة نوع التدريب لطياريها وتحسين التنسيق بين أجهزة الجيش المختلفة. وقد تعلم المصريون أكبر درس عن طريق تجاربهم فى سيناء وعملوا بجد من أجل تحسين كفاءة ضباطهم. على أن زيادة القدرات العسكرية المصرية أمر يدعو إلى التساؤل وهو ما كان محل بحث من جانب إسرائيل منذ عام مع الخارجية الأمريكية حول مدى قدرة إسرائيل على مجابهة أى هجوم جوى مفاجئ. ووصف السفير إسرائيل بأنها دولة صغيرة ليس لديها دفاع فى العمق ومجرد شريط ضيق عرضه عشرة أميال ومساحتها لا تتعدى خمسين ميلا فى ٣٥٠ ميلاً. والجمهورية العربية المتحدة لها ٢٦ قاعدة جوية فى محافظتين فقط. ونظرا للميزة الجغرافية التى تتمتع بها فإن طائراتها تستطيع أن تطير فوق إسرائيل وتعود مرة أخرى. إسرائيل لديها ثلاث قواعد جوية عاملة فقط إضافة إلى مطار مدنى رابع يمكن استخدامه فى حالة وقوع أى أزمة. كل ذلك يعنى - طبقا لرواية السفير الإسرائيلى - أنه

كيندى وخروتشوف.. وزمن الحرب الباردة



أكد السفير الإسرائيلى للخارجية الأمريكية أن مصر تمتلك طائرات ميج ١٩ وأن بعض هذه الطائرات تم تزويد العراق بها. كما أن هناك مدربين سوفييت وصلوا إلى مصر

يمكن القضاء على قدرات الطائرات المقاتلة الإسرائيلية فى الحال وتدمير وسائل الاتصال فى البلاد مما يخلق مشاكل هائلة من أجل التعبئة البشرية التى تحتاج إلى نظام اتصالات كفء من أجل تعبئة الاحتياطى العسكرى الكبير لزيادة الجيش الصغير المحترف. ونظرا لأن إسرائيل توقعت هذا الوضع من عام، فإنها طلبت من الولايات المتحدة تزويدها بنظام صواريخ مضادة للطائرات.

طلب باندى تزويده بتفاصيل المذكرة التى قدمتها إسرائيل إلى الحكومة الأمريكية فى هذا الصدد. أجاب السفير الإسرائيلى أن بلاده ترغب فى الحصول على صواريخ هوك (وحصلت بالفعل عليها فيما بعد) التى وصفها بأنها مجرد صواريخ دفاعية أرض/ جو لا يمكن استخدامها لأغراض الهجوم ولكنها مثالية للدفاع عن القواعد الجوية الإسرائيلية. وقال أن الولايات المتحدة أبدت ترددا بالنسبة لإدخال نظم صواريخ من أى نوع فى المنطقة ولكنها أكدت للإسرائيليين أنه إذا ظهرت عوامل جديدة فإن هذا الموقف يمكن مراجعته مرة أخرى.

وطبقا لما جاء فى المحضر فإن السفير الإسرائيلى قال إن الوضع يتجه الآن إلى ما كانت تتخوف منه إسرائيل، فالجمهورية العربية المتحدة لديها طائرات ميج ١٩، وبالرغم من أن إسرائيل لا تتخوف من هجوم(مصرى) فى الحال ولكن عليها أن تستعد لذلك فى عام ١٩٦٢ (أى العام التالى بعد المقابلة) عندما تتمكن الجمهورية العربية المتحدة أن تكون فى وضع يتيح لها استخدام قدراتها ضد إسرائيل، إذ لم تكن إسرائيل تمتلك فى هذا التاريخ سلاحا رادعا. وترغب إسرائيل فى البدء منذ الآن فى الاستعداد لهذه الفترة الحرجة عن طريق إرسال خبرائها إلى الولايات المتحدة من أجل التدريب على تشغيل وصيانة صواريخ هوك. وفى الوقت الذى قدمت فيه إسرائيل هذا الطلب، تم إبلاغها أن التسهيلات التدريبية (فى الولايات المتحدة) مشغولة لبعض الوقت، ولكن إذا كان فى استطاعة الإسرائيليين البدء فى التدريب الآن فإن إسرائيل ستكون فى وضع يهيئها أن تكون مستعدة من الناحية البشرية فى حالة حدوث خطر داهم ووافقت الولايات المتحدة على تزويدها بصواريخ هوك.

ومن الغريب أن باندى سأل السفير الإسرائيلى: كيف يفسر ويشرح موقف الولايات المتحدة تجاه هذا الوضع بدلا من أن يقوم هو بشرح هذا الموقف. طبعا أجاب السفير على هواه فى تفسيره للموقف الأمريكى!!. بماذا أجاب؟ قال: إن الولايات المتحدة توافق على أن إسرائيل لها مطالب مشروعة للحصول على قدرة ردع، وتقدير إسرائيل هو أن الوضع يتحرك نحو موقف بمقتضاه فإن ميزان التسلح هو لصالح الجمهورية العربية المتحدة وهو تفسير لم تعارضه واشنطون. ولكن الولايات المتحدة لا ترغب فى أن تدخل إلى الشرق الأوسط معدات هجومية وتنصح إسرائيل بأن تحصل على احتياجاتها (العسكرية) الرئيسية من «المصادر التقليدية» وخاصة فرنسا وبريطانيا. وقد وافقت الولايات المتحدة أن تبيع لإسرائيل معدات للإنذار المبكر بشروط ائتمانية لمدة ثلاث سنوات وقد أنهى فريق من الخبراء الإلكترونيين الإسرائيليين مؤخرا جولة فى عدد من القواعد الأمريكية ومؤسساتها ومصانعها حتى يكونوا ملمين بهذه المعدات الجديدة. وقد عاد الفريق إلى إسرائيل والأخيرة الآن تبحث عما إذا كانت ستتقدم بطلب المعدات أم لا ؟

وأضاف السفير الإسرائيلى هارمان: إن الولايات المتحدة قد وافقت أن تأخذ فى الاعتبار العبء الاضافى على عاتق الاقتصاد الإسرائيلى فيما يتعلق بالاحتياطيات الدفاعية (أى تغطى أمريكا تكاليف المعدات التى تطلبها إسرائيل). وفى الوقت الذى قد لا ترغب فيه واشنطون فى تمويل هذه العملية مباشرة، فإن الإسرائيليين تم إخبارهم أن الولايات المتحدة ستقوم بدراسة تأثير النفقات العسكرية عند بحث الطلبات الإسرائيلية ضمن قطاعات المساعدات (الأمريكية) المختلفة.

وسأل باندى السفير عما إذا كان يكرر من جانبه طلب الحصول على الصواريخ الأمريكية أو يقصد أن يقول أن هذا الطلب سيتم فى المستقبل، أجاب السفير أنه ليست لديه تعليمات فى هذا الصدد حتى مجرد تلميح بمثل هذا الطلب من جانب بلاده، ولكن إسرائيل تعيد النظر فى طلباتها فى ضوء حصول الجمهورية العربية المتحدة على طائرات ميج ١٩.

وأشار السفير باختصار إلى إمكانية قيام نظام نزع السلاح الإقليمى (وهو ما ترفضه الآن إسرائيل منذ سنوات بالرغم من أنها هى التى اقترحته) الأمر الذى يمكن تحقيقه بسهولة فى الشرق الأوسط باتفاق بين الدول الكبرى وبمقتضاه فإن كل دول المنطقة تجبر على أن تتصل بالقوى الكبرى للحصول على المعدات (العسكرية) المميتة على حد قوله، لأنه نظرا للوضع المتقلب فى المنطقة فإن إدخال أى نوع جديد من هذه الأسلحة الهجومية يحمل فى طياته تغيرات هائلة. وهنا بالطبع تريد إسرائيل أن تحتكر لنفسها فقط فى هذه الفترة الاستحواذ على أسلحة هجومية، لأن مبدأها هو عدم القتال مطلقا على أراضيها بل يجب أن تكون أى معركة مع العرب فى الأراضى العربية نفسها حتى لا يتعرض العمق الإسرائيلى لأى أخطار.

سأل باندى السفير الإسرائيلى عما إذا كان إنشاء المفاعل الذرى الإسرائيلى لا يشكل إدخالا للعنصر الحساس الذى أشار إليه السفير. أجاب الأخير: إن إسرائيل ليس لديها النية لصناعة قنبلة نووية فضلا عن أن المفاعل أمامه ثلاث أو أربع سنوات لإتمامه. أكد باندى على تأثير مثل هذه التطورات على الرأى العام العربى، فانبرى السفير قائلا إن هذا الموضوع قد تم تسريبه بطريقة غير ضرورية، وبمنتهى الصدق فإن تأثيره فى المنطقة كان سلبيا (كانت إسرائيل تفضل أن يكون الموضوع سريا إلى الأبد وتضع الجميع بما فيهم الولايات المتحدة أمام الأمر الواقع وهو ما حدث بالفعل). وأضاف: إن عبدالناصر يهدد بتعبئة اربعة ملايين رجل وهو أمر لم تستسغه إسرائيل على الإطلاق.

وذكر السفير كذلك أن التكهنات المثارة ليس لها أى أساس وكما أوضح هو بنفسه لوزير الخارجية الأمريكى، فإن إسرائيل ليس لديها نية لاستغلال المفاعل إلا فى الأغراض السلمية. كما أن تحقيق زيارة للمفاعل (من جانب عالم أمريكى أو غيره) وهى فكرة أبدت حكومته اهتماما بها، قد يتحقق بواسطة بن جوريون إذا ما عاد لتولى رئاسة الوزارة على ضوء الأزمة الوزارية الحالية (بسبب فضيحة لافون المتعلقة باكتشاف مصر لشبكة التجسس التخريبية الإسرائيلية). وهنا قال باندى: أنه لا يشك أن بن جوريون الذى ينظر إليه باعتباره شومان عالم السياسة الدولية (شومان هذا سياسى فرنسى شهير قام باقتراح نواة الاتحاد الاوروبى الحالى فى نهاية الخمسينيات من القرن الماضى)، سيعود إلى رئاسة الحكومة الإسرائيلية مرة أخرى.وكرر باندى مرة أخرى للسفير مسألة مشروعية القلق العربى فيما يتعلق بالبرنامج النووى الإسرائيلى.

قلل السفير الإسرائيلى من أهمية هذا البرنامج، وقال: إنه مجرد مفاعل صغير وإذا كانت الجمهورية العربية المتحدة تريد مفاعلا أو حتى برنامجا مماثلا أو مفاعلا أكبر يخصص لنفس الغرض الذى قامت به إسرائيل، فإن حكومته لن تهتم بذلك. هذا العرض الإسرائيلى الغريب بالطبع جاء فى نية التسويف مع واشنطون. ولذلك أقترح من جانبى أن تقوم القاهرة بتقديم هذا العرض إلى الولايات المتحدة الآن للحصول على مفاعل أمريكى مماثل للمفاعل الذى حصلت عليه إسرائيل من فرنسا. ويجب أن نتذكر هنا أن الرئيس نيكسون عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ تعهد بتزويد مصر بمفاعل نووى للأغراض السلمية ولكن الولايات المتحدة نكصت عن وعدها.

علق باندى على حجم النفقات لمثل هذا البرنامج ولكن السفير هارمان قال: إنها متواضعة حيث إن المفاعل مخصص كليا للتجارب العملية وتدريب العلماء الذين بعد خمسة عشر عاما من الآن (أى فى ١٩٧٦) سيكون له قيمة كبيرة إذا ما تمكنت القوى الكبرى من تحقيق اختراق بالنسبة لموضوع الاستخدامات السلمية للأغراض الاقتصادية. وكرر السفير اقتراحه أن تنظر الولايات المتحدة فى اقتراح نزع السلاح فى المنطقة (بالطبع نزع سلاح الدول العربية وليس إسرائيل) ومن فوائد هذا الاقتراح فى رأيه سيكون منع تدفق الأسلحة الشيوعية إلى أفريقيا. وقال إن المخابرات الإسرائيلية لديها معلومات أن الفئات الشيوعية (يقصد حركات التحرير) فى الدول الأفريقية تتلقى أسلحة، ليس مباشرة من السوفييت، ولكن عن طريق الجمهورية العربية المتحدة.

جرى الحديث بين باندى والسفير الإسرائيلى بعد ذلك حول موضوعات اخرى مثل موضوع تحويل مياه نهر الأردن واللاجئين العرب، وانتهى الاجتماع بتأكيد باندى أنه على استعداد لمقابلة السفير الإسرائيلى وزملائه فى أى وقت، ولكنه أوضح أن المشاكل التى بحثت يجب مناقشتها أولا مع الخارجية الأمريكية. ومن المعروف أن الرئيس كينيدى كان يؤمن باللامركزية وضرورة عدم استحواذ البيت الأبيض على كل القرارات، ولذلك بعد مقابلة السفير الإسرائيلى مع باندى بعدة أيام أصدر قرارا رئاسيا بأن تعهد إلى الخارجية الأمريكية بعض الشئون المتعلقة بالأمن القومى فيما يتعلق بطريقة التعامل مع المناطق الجغرافية فى العالم والدول المختلفة على حدة، مع التنسيق بين

وزارات الدفاع والخارجية والمخابرات الأمريكية فى هذا الشأن.

ونتيجة لهذه المقابلة لم تسكت الخارجية الأمريكية التى لم يحضر مسئول منها اجتماع باندى مع السفير الإسرائيلى فى البيت الأبيض، ولذلك بادر السفير ستوسل وهو أكبر مسئول فى الخارجية بعد الوزير إلى إرسال تعليق مثير للاهتمام إلى باندى مساعد الرئيس كينيدى الخاص بالأمن القومى. هذا التعليق الذى أرسل بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٦١ كان على النقاط التى وردت على لسان السفير الإسرائيلى، وحاول فيه ستوسل أن يفند بعض الأسانيد العسكرية التى استند إليها السفير فى تفسيره لطلب أسلحة أمريكية جديدة أو التهويل من قدرة الأسلحة التى حصلت عليها مصر. كان باندى نفسه قد طلب تعليق الخارجية وبعدها اجتمع خبراء من ثلاث إدارات أعدوا الرد التالى:

«(١) يقول السفير هارمان إن الطائرات السوفيتية من طراز ميج ١٩ التى يعتقد أن الجمهورية العربية المتحدة قد حصلت عليها، تفوق بكثير أفضل ما فى حوزة إسرائيل من طائرات مقاتلة وهى طائرة «سوبر ميستير» الفرنسية. فى رأى الخارجية الأمريكية فإن سوبر ميستير لا تقل عن الميج ١٩، ولو أن الأخيرة تتمتع بعدة نقاط تميز إذا ما عملت تحت ظروف معينة. وطبقا لمعلومات الخارجية فإن طائرات الميراج الفرنسية التى وافقت فرنسا على تزويد إسرائيل بها هى أفضل بكثير من الميج ١٩، وأرفقت الخارجية تقريرا مقارنا عن كفاءة كل من الميج ١٩ وسوبر ميستير والميراج. ولم يتم نشر هذا التقرير ضمن الوثائق الأمريكية.

(٢) السفير هارمان يقول إن الحكومة الأمريكية اعتذرت عن تزويد إسرائيل بصواريخ هوك أرض / جو ولكنها أكدت للإسرائيليين أنها ستعيد النظر فى الموضوع فى حالة ظهور تطورات جديدة. تقول الخارجية تعليقا على ذلك إن اعتذار الحكومة الأمريكية يرجع إلى عدم رغبتها فى إدخال مثل هذا السلاح المتطور إلى الشرق الأوسط مما يمثل عنصرا جديدا وخطيرا ويدخل المنطقة فى حلقة مفرغة من السعى إلى الحصول على أسلحة أكثر تطورا (وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك). إن القول عن «استعداد» الولايات المتحدة لإعادة النظر قد تم التعبير عنه من قبل مسئولين أمريكيين تم الضغط عليهم كثيرا(هذا التعبير الذى استخدمته الخارجية الأمريكية وهو ما يعنى أن اللوبى الإسرائيلى قام بالضغط على هؤلاء المسئولين فى الكونجرس وغيره من الدوائر الأمريكية) الذين أكدوا أن مثل هذا التدخل لن يؤدى إلى اعادة النظر لتعديل هذا الموقف الأمريكى (هذا موقف شجاع من الخارجية الأمريكية ولكنه بالطبع لم ينقل إلى الإسرائيليين). وأرفقت الخارجية صورة من المذكرة التى سبق اعتمادها فى هذا الشأن وبموجبها تم الاعتذار عن تزويد إسرائيل بصواريخ هوك. وتقول الخارجية إن المبررات الواردة فى المذكرة لاتزال قائمة (بالطبع غيرت الإدارة من موقفها فيما بعد ورضخت للضغوط الإسرائيلية وزودت إسرائيل بصواريخ هوك وغيرها). هذه المذكرة كانت تحت عنوان «الاعتبارات المتعلقة بطلب إسرائيل تزويدها بصواريخ هوك» وهى مماثلة لمذكرة سابقة ارسلها مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط إلى نائب وزير الخارجية للشئون السياسية بتاريخ ٧ يوليو ١٩٦٠ أى قبل تولى كينيدى الرئاسة.

(٣) قال السفير الإسرائيلى: إنه بالرغم من أن الولايات المتحدة غير قادرة على تمويل مشتريات الأسلحة إلا أنها ستأخذ فى الاعتبار ذلك عند بحث الطلبات الإسرائيلية ضمن قطاعات المساعدات الأمريكية المختلفة. وتقول الخارجية الأمريكية إن موقفها كان دائما يقوم على أساس أن طلبات إسرائيل للحصول على مساعدات أمريكية يجب أن يؤسس على اعتبارات اقتصادية (أى مدى قدرة الاقتصاد الإسرائيلى على السداد)، وقد حرصنا على الامتناع عن تأييد الاقتراح الإسرائيلى (أى الحصول على الأسلحة الأمريكية ببلاش أى كهبة كما يحدث الآن منذ ثلاثة عقود تقريبا) على أساس أن زيادة العبء العسكرى الإسرائيلى سيؤدى إلى زيادة برنامج المساعدات والقروض الأمريكية لإسرائيل. وقد تم التأكيد على أن النفقات العسكرية والأمنية لأى دولة هو فقط مجرد أحد أوجه المسألة التى يجب فحصها قبل تقرير مدى قابليتها للحصول على مساعدات.

(٤) عبر السفير هارمان عن عدم سعادته بتسريب موضوع البرنامج النووى الإسرائيلى إلى الرأى العام (وهى إشارة غير مباشرة من جانب إسرائيل بأن بعض الجهات الأمريكية هى المسئولة عن ذلك). تقول الخارجية فى ملاحظتها: إن مشروعا بمثل هذه الأهمية كان سيصل إلى معرفة الرأى العام له قريبا أو بعيدا . وغالبا ما يكون هذا الموضوع قد تسرب على مدار عامين من الزمن. لقد حاولت حكومتنا (أى الأمريكية) أن يظل الموضوع سريا فى انتظار رد إسرائيل الرسمى ولكنها كانت مضطرة للتعليق عليه بعد أن تسرب الموضوع بأسلوب دراماتيكى فى الصحافة البريطانية. وهناك مبررات قوية لما تذكره إسرائيل بأنهم مجبرون لإحاطة الموضوع بنطاق كبير من السرية مخافة الضغوط العربية ضد المشروع. إضافة إلى ذلك فإن عددا من زعماء الكونجرس غير سعداء بأن إسرائيل أبقت مثل هذه التطورات المهمة سرية حتى عن الولايات المتحدة فى فترة كان من المفترض فيها أنهم يعملون على أساس من الثقة المتبادلة للضغط من أجل طلبات حساسة تتعلق بالحصول على مساعدات عسكرية واقتصادية.

(٥) الوزير المفوض بالسفارة الإسرائيلية موردخاى جازيت اقترح أنه من الضرورى أن تتضمن خطة جونستون المتعلقة بمياه وادى الأردن (والمتعلقة بخطة أمريكية لتوزيع مياه نهر الأردن بين العرب والإسرائيليين) يجب أن تتضمن ترك مياه الأردن لإسرائيل وترك مياه اليرموك وهو أحد فروعه للمملكة الأردنية (أى أن إسرائيل تتحكم فى كميات المياه التى تتدفق من نهر الأردن إلى اليرموك). تقول الخارجية الأمريكية فى تعليقها انه بالرغم من انه طبقا لخطة جونستون، يتوجب على إسرائيل أن تعطى الأردن مائة مليون متر مكعب من مياه نهر الأردن فإن الأردن سيحصل على كل توقعاته من اليرموك فقط إذا ما تم احتجاز وتخزين مياه الفيضان لهذا الغرض فى بحيرة طبرية، وهى بالكامل تحت سيطرة إسرائيل. وبسبب هذه الالتزامات بين الأطراف فإن خطة جونستون تنص على وجود إشراف دولى للمياه، بينما يمكن للأردن ان يحصل على ٨٥٪ من احتياجاته من نهر اليرموك، بشرط إقامة خزان فى منطقة المقارن، فإن نصيب الأردن العادل طبقا لحسابات خطة جونستون يمكن تحقيقه بالكامل فقط عن طريق تنازلات فعلية من جانب إسرائيل».

هذه المذكرة المرسلة إلى باندى موقعة من السفير ستوسل.... ولا تعليق لدينا حول هذا الموضوع سوى أن الخارجية الأمريكية فى بداية عهد الرئيس كينيدى كانت لديها الشجاعة لتقول رأيها فى الطلبات والضغوط الإسرائيلية بقدر نسبى من الصراحة، ولكن بالطبع لم يتم إبلاغ إسرائيل بهذه الملاحظات المنطقية مخافة تأليب اللوبى الإسرائيلى وأنصاره على الإدارة الجديدة. وللإنصاف فإن باندى عندما تولى منصب مساعد الرئيس كينيدى للأمن القومى لم يكن عندما قابل السفير الإسرائيلى قد مضى على إدارة كينيدى سوى أقل من شهر واحد ولم يكن على علم بعد بالتزامات إدارة أيزنهاور السابقة تجاه إسرائيل. وهذا يفسر حذره فى تناول موضوع الأسلحة الجديدة التى طلبتها إسرائيل. كما أن باندى كان معروفا عنه خبراته العميقة وأفقه الواسع ونظرته الاستراتيجية الواسعة وكان ناصحا أمينا لكينيدى الذى بدأ عهده بنوع من المثالية. ولكن التنافس مع الاتحاد السوفيتى وأزمة الصواريخ السوفيتية فى كوبا أعادته إلى أرض الواقع. اغتيال كينيدى المفاجئ - فى رأيى - عطل مسيرة الولايات المتحدة فى الخارج وخاصة فى مجال السياسة الأمريكية نحو الشرق الأوسط. ■

قلل السفير الإسرائيلى
من أهميـــة برنامـــج بلاده النـــووى
وقال: إذا كانت مصر تريد برنامجًا مماثلا
فـــإن حـــكومتـــــــه لـــــن
تهتـــــم بذلـــــك

تطور صورة الشرق فى الأدب الإنجليزى

يخال قارئ اليوم أن الاهتمام الغربى المعاصر بحضارات الشرق الأوسط وشئونه نشأ وتطور خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وفى الفترة التى تلتهما، علماً بأن هاتين الحربين تفجرتا فى النصف الأول من القرن العشرين. إن مشاعر العداء الراقدة أحياناً، والناشطة أحياناً أخرى، مشاعر نشهدها اليوم بين الغرب والسواد الأعظم من شعوب منطقة الشرق الأوسط، تتجلى فى النزاعات السياسية والاقتصادية والعرقية القائمة بين هذين القسمين من العالم وتبرز باعتبارها نتيجة طبيعية لهذه الخلافات؛ وهذه المشاعر إنما هى فى الواقع قديمة العهد، أبصرت النور منذ قرون عديدة. وفى هذا الوقت بالذات حيث تنشد القوى العظمى، أكثر من أى وقت مضى، رأب الصدع وتطويق المواقف عبر إقامة علاقات وطيدة بين شعوب العالم، وإذ تساهم وسائل الإعلام، من خلال تكنولوجيا عالية ومتطورة، فى تعزيز حملات التوعية التى تطال حضارات العالم المتباينة، يأتى عملى هذا ليزود القارئ، سواء أكان غربياً أم شرقياً، باستقصاء موضوعى حول نشوء صورة الشرق فى العالم وتطورها.

صورة الشرق هذه، فى انعكاسها السلبى والإيجابى، ظهرت، إن جلياً أو ضمنياً، فى أعمال الكتاب الغربيين الدينية والتاريخية والأدبية، لاسيما فى كتابات البريطانيين منهم. وعندما كتب اللورد بايرون (Lord Byron) الروايات الشرقية (The Oriental Tales) فى أوائل القرن التاسع عشر، كان قد بلغ الاهتمام الإنجليزى بعالم الشرق الغريب أوجه وكانت قد ظهرت أعمال جمة حول دين هذه المنطقة وتاريخها والأدب فيها. وينتمى هذا القدر الكبير من الكتابات إلى القرن الثامن عشر إلا أن الاهتمام الإنجليزى بالشرق يرقى إلى الحقبة الأنجلوسكسونية، ولاسيما بعد اعتناق المسيحية فى الغرب، ولاسيما فى إنجلترا فى أواخر القرن السادس، حيث ترسخ هذا الاهتمام بسبب توق الغربيين إلى التجارة والحج والثقافة والمغامرة.

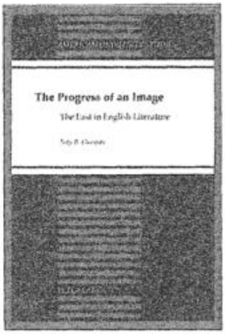
إن أكثرية الرحالة الغربيين الذين بحثوا عن المغامرة فى الخارج، على غرار الحجاج والباحثين الأيرلنديين، فى أوائل القرن الخامس، والصليبيين فى القرون الوسطى، عادوا إلى الوطن الأم ليخبروا أو يكتبوا روايات، تفتقر إلى الواقع وإنما تفيض بالخيال عن الشعوب الشرقية ومناطقها. وبهذا، لا يمكن للقارئ التعمق فى قراءة هذه الأعمال من دون أن يشعر بأن هؤلاء الرحالة



تطور صورة الشرق فى الأدب الإنجليزى
ناجى عويجان
ترجمة: تالا صبّاغ
مراجعة: د. سعود المولى
المنظمة العربية للترجمة: بيروت، ٢٠٠٨
بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
توزيع مركز دراسات الوحدة العربية

تأثروا بالدعاية السياسية والدينية وببعض الصور المركبة، فمن كتاباتهم ينبثق هذا العزم على تصوير الشرق وشعبه وحضارته تصويراً مشوهاً. ويعتبر إدوارد سعيد (Edward Said) أن هذا العزم أتى نتيجة لانتشار الإسلام فى رقعة واسعة من العالم، فى أوائل القرن الرابع عشر، فشكل تهديداً تأتى عنه «ذعر دائم» لدى الشعوب الأوروبية. ومن هنا، سأظهر فى هذا الكتاب، أن روايات الأوروبيين أسفرت عن تيار أدبى جديد، نقل صورة خاطئة وسلبية عن هذه الرقعة من العالم. هذه الصورة الخاطئة دامت حتى منتصف القرن الثامن عشر، فقد اعتبر الشرق الأوسط الذى هو منبع اليهودية، والمسيحية، والإسلام، فضلاً عن حضارات أخرى بارزة وقديمة، معقل الجهل والحروب، وأرض الوحوش والمخلوقات الغريبة، فى الوقت الذى كان، فى الواقع، ينعم بالازدهار السياسى، والاقتصادى، والدينى، والثقافى.

تجدر الإشارة هنا إلى أن معظم الأدباء البريطانيين الذين لم يعبروا «القناة الإنجليزية»، استندوا إلى روايات الرحالة الأوائل التى اعتمدت على الخيال أكثر منه على الواقع، فاستوحوا منها لكتابة الأعمال التى ساهمت بدورها، عمداً أو من دون قصد، فى تعزيز الصورة الخاطئة عن الشرق. لم يفتقر هؤلاء الكتاب إلى التجارب المباشرة



The Progress of an Image. The East in English Literature
Naji B. Oueijan
Lang, Peter Publishing.
Incorporated 1996

فحسب، بل اهتموا كذلك، أكثر ما اهتموا، بإدهاش القراء، بصورة غريبة، للاستحواذ على اهتمامهم بدل تقديم صور تعكس الواقع.

ومن جهة أخرى، تجلت صورة الشرق الحقيقية فى أدب الرحالة والباحثين المستقلين الذين حرروا أنفسهم من المعتقدات التقليدية ومن التحيز السياسى والدينى ضد الشرق، فتبنوا فهماً حقيقياً لحضارة هذه الرقعة القديمة من العالم. وما كتبوه من أدب الرحلات والأعمال التثقيفية، الدقيقة والموضوعية، كثيراً ما غير فى موقف الجمهور البريطانى حيال الشرق، وزود الأدباء البريطانيين بمعلومات حقيقية. وقد تبلور هذا الموقف العلمى الجديد إزاء الشرق عقب الغزو البريطانى للهند، فى منتصف القرن الثامن عشر، حين باتت الاتصالات بين الشرق والغرب متواصلة ومباشرة، والعلاقات أكثر ترسخاً من أى وقت مضى. وبذلك، صحح بعض الكتاب البريطانيين البارزين صورة الشرق المشوهة التى كانت قد طبعت فى أذهان قرائهم عندما قدموا لهم أعمالاً أدبية، ومعلومات حقيقية وموضوعية عن الشرق.

إن خصائص الشرق التى اعتمد عليها الكتاب الإنجليز وغيرهم من أدباء الغرب لإنتاج عمل ما، حقيقية كانت أو مشوهة، شملت أحداث هذه المنطقة وجغرافيتها وسكانها وأعرافها وأزياءها وأسلوبها، ولا سيما الأفكار الشرقية السائدة؛ كلها خصائص، إن غابت غاب معها اللون الشرقى والروح الشرقية، وكلمة «الشرقى» ترد هنا بالمعنى الذى فسره سيدنى نتلتون فيشر (Sydney Nettleton Fisher) والتى تمثل «الشرق أو المشرق أو الشرق الأدنى». وفى أيامنا هذه، تمت الاستعاضة عن جميع تلك التعابير بتعبير أكثر دقة، وهو «الشرق الأوسط»، وهى منطقة تشمل ألبانيا الحديثة واليونان وتركيا والعالم العربى، وتمتد على طول الشاطئ الشرقى الجنوبى للمتوسط، ثم تغوص فى آسيا.

يناقش لويس وان (Louis Wann)، فى تحليله للشرق، فى دراما العصر الإليصاباتى، «مسارح الأحداث» و«الجنسيات» و«الأعراف» المطروحة فى الدراما الشرقية. ويشدد كذلك على دلالة الأفكار الشرقية فى المسرحيات. وفى الإشارة إلى الرواية الشرقية، تسلط مارثا بيك كونانت الأضواء على أهمية اللون الشرقى البحت لهذه الكتابات الذى تجسده «الخلفية الزاهية للأعراف الشرقية» و«اللغة الملونة بأسلوب شرقى». هذه الخصائص الشرقية التى تبرز فى الدراما والأدب القصصى هى نفسها تقريباً فى الشعر والأنواع الأدبية الأخرى. وعليه، فثمة عاملان أساسيان يميزان بين الصورة الأدبية الشرقية الصحيحة والصورة الخاطئة؛ أولهما الخصائص الشرقية التى، إذا ما تواجدت فى الأدب الحقيقى، أدت إلى إضفاء اللون الشرقى الخاص به، وإلى تعزيز الأفكار الشرقية، وإن استخدمت فى الأدب المشوه، فلهدف الزخرفة ليس إلا. وثانيهما كاتب العمل الذى، إن انتمى إلى النوع الأول من الأدب، قدم صوراً حقيقية عن الشرق، وأما إذا كان من كُتاب النوع الثانى، فقد عرض، عمداً أو بدون قصد، صوراً طغى عليها الخيال والتشويه.

إلا أن الجمهور الإنجليزى لم يكن يعى، فى بادئ الأمر، هذين العاملين، بل كان يعتبر كل الأعمال المنشورة، الشرقية والغربية، مقتبسة من الواقع، بغض النظر عما إذا كانت تقدم معلومات صادقة أو كاذبة. هذا الجمهور الذى كان قد نهض لتوه من عصور الجهل والخرافات اعتبر الشرق موطن الألغاز والسحر والعجب، موطن أناسه من الوثنيين بطبيعة وحشية وغادرة، كذلك

ناجي عويجان



«الحريم» للفنان الإنجليزى جون فريدريك لويس (١٨٥٠) ـ ألوان مائية ـ متحف فيكتوريا وألبرت

صدق ذاك الجمهور روايات شوهت صورة الإسلام لأهداف الدعاية السياسية والدينية، لأن الإسلام كان يشكل تهديداً للنصرانية، يرقى إلى عدة قرون. إنما مع مرور الزمن، أخذ موقف الإنجليز يتغير إزاء الشرق وشعبه، وذلك بعد أن أصبحت الأعمال الأدبية أكثر مصداقية فى نقلها لعالم الشرق، وبات هؤلاء يميزون تدريجياً بين ما هو صحيح وما هو كاذب. ولكن حتى القرن العشرين، لم يشهد اندثاراً كلياً للآراء والأخبار المشوهة التى تتناقلها وسائل الإعلام الشرقية والغربية. إن العوامل السياسية والاقتصادية والعرقية، أكثر منها الدينية، تعزز مشاعر العداء بين العالمين الغربى والشرقى.

إن عملاً كهذا إنما يصب فى خدمة الأكاديميين والطلاب الذين يبحثون عن المعارف، ويدرسون أدب الفترات المعينة، وآمل شخصياً أن يشكل هذا الكتاب حافزاً للباحثين كى يواصلوا الاستقصاءات والأبحاث فى هذا المضمار، ولاسيما أن هذه المسألة لم تعد متعلقة اليوم بالاهتمامات والدراسات الأدبية فحسب، بل بميادين دراسية أخرى. وعلى هذا الكتاب أن يفيد أيضاً المؤرخين والسياسيين المعاصرين إذ إنه يناقش أسباب الخلافات الثقافية التى غالباً ما تسفر عن نزاعات سياسية بين مختلف شعوب العالم.

إن ثقافة اليوم، على العكس من ثقافة الأمس، هى نتاج بحث العالم عن الحقيقة، وذلك عبر الدراسات والاستقصاءات والبحوث العلمية المعممة. ومن هذا المنظار أردت عمداً أن أكشف النقاب عن الحقيقة الكامنة وراء الخلاف الثقافى هذا، لا أن أصدر أحكاماً على ثقافة أو على أخرى. ولهذا السبب، جعلت من الخلفيتين التاريخية والأدبية، اللتين أدتا إلى نشوء صورة الشرق وحضاراته، وتطورها فى التيارات الأدبية الإنجليزية، موضوع كتابى الذى يتألف من ثلاثة أجزاء: يضم الجزء الأول نشوء الثقافة الشرقية فى الأدب الإنجليزى وتطورها، وذلك منذ الحقبة الأنجلوسكسونية وحتى أواخر القرن السابع عشر. أما الجزءان الثانى والثالث، فيتناولان التحول عن المفهوم التقليدى الخاطئ للإسلام والشرق فى أدب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

بحثت أولاً، فى الأجزاء الثلاثة، الروابط التاريخية القائمة بين إنجلترا والشرق، ثم ناقشت تأثير هذه العلاقات على تطور صورة الشرق فى أدب الفترات موضوع البحث. لقد أحجمت عمداً عن إبراز تطور هذه الصورة فى القرن العشرين بسبب تنوع التعبير الأدبى الحديث الذى لم يعد يقتصر على المواد المطبوعة، بل أخذ يستخدم أساليب شتى لنقل الآراء وتبادلها. ومما لا شك فيه أن هذا الموضوع واسع وغنى جداً ليناقش فى عمل وجيز كهذا. وبما أن الهدف الأساسى لهذا العمل يقضى بإرضاء القراء والباحثين الغربيين والشرقيين على حد سواء، أولئك الذين ينشدون فهماً أفضل لحضارات العالمين، بذلت قصارى جهدى بغية أن أنتقى أبرز الكتاب الذين كان لهم الوقع الأشد على تطور صورة الشرق فى الأدب الإنجليزى. ومن بين هؤلاء الكتاب، ناقشت بالتفصيل أعمال صامويل جونسون، وليم بيكفورد، لورد بايرون، وتوماس كارلايل بسبب التأثير الهائل الذى كان لهم على تعزيز صورة الشرق فى إنجلترا، وبحكم مساهمتهم فى تصحيح هذه الصورة الخاطئة للشرق فى الأدب. ■

الـثـقـافـة مـن الحـداثـة إلـى الـعـولمـة

مـحـمـود الـذوادى

■■ سعى المؤلف إلى تغطية كاملة لميدان مفهوم الثقافة كما تطرحه على الخصوص العلوم الاجتماعية والإنسانية الحديثة، ولعله يكون بذلك أفضل الكتب العربية شمولية لمجال الثقافة، من ناحية، وأحسنها منهجية وترتيبا فى كتابة الفصول، من ناحية أخرى، الأمر الذى يؤهل ربما محتوى هذا الكتاب ليكون نصا مرجعيا لطلبة الجامعات الذين يدرسون مقررا حول الثقافة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية. ونظرا لطول الكتاب بسبب التفاصيل التى تحتوى عليها فصوله، من جهة، ومحدودية عدد الصفحات لكتابة مراجعة هذا الكتاب، من جهة ثانية، فإننا سوف نقتصر على ذكر بعض الأفكار الرئيسية التى يبرزها كل فصل من فصول الكتاب، مع إمكانية تحليلها ومناقشتها باختصار.

فى الفصل الأول «الثقافة وإشكالية التعريف والنشأة» يتعرض المؤلف إلى ولادة كلمة ثقافةCulture وإلى تعدد التعاريف لهذه الكلمة التى تجاوزت ١٦٠ تعريفا (ص ٣١) هيمن فيها علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع. ومن ثم أصبح مفهوم الثقافة أحد المفاهيم الرئيسية الثلاثة التى يكثر استعمالها فى العلوم الاجتماعية المعاصرة، ألا وهى مفاهيم المجتمع Society والثقافة Culture والشخصيةPersonality (ص ٣٧).

يقوم المؤلف بجرد لأدبيات علمى الأنثروبولوجيا والاجتماع الغربيين بخصوص كل من مصدر وتعريف الثقافة. فبالنسبة لهذا الأخير يكتب بحروف غليظة التعريف المشهور للثقافة لعالم الأنثروبولوجيا البريطانى إدوارد تيلور Edward B.Tylor (١٨٣٢-١٩١٧) دون إبداء أى نقد أو حتى أى تحفظ لمثل ذلك التعريف القابل للقدح بسبب ما يتضمنه من قصور، كما يتجلى ذلك فى مسألة مصدر/جذور ظاهرة الثقافة فى المجتمعات البشرية.

فهناك بالتأكيد بعض الاضطرابات عند المؤلف بالنسبة لمصدر ظاهرة الثقافة فى المجتمعات البشرية، فمن ناحية يقول: «فالثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع، وعناصر المجتمع الأولى هى الأفراد، والفرد كائن اجتماعى، والمجتمع لا يقوم ولا يبقى إلا بالثقافة (ص ٢٨). ومن ناحية أخرى، يؤكد «والثقافة بدون لغة هى ضرب من المحال» (ص ٣٩). ومن ثم فالتأشيرة الأولى/الأم لدخول باب الثقافة فى دنيا المجتمعات البشرية هى اللغة. أى أن اللغة البشرية فى شكليها المنطوق والمكتوب هى الأساس الوحيد لتجسيد ظاهرة الثقافة فى المجتمعات البشرية. فاللغة، فى كتاباتنا حول هذا الموضوع [1] هى أم كل الرموز/معالم المنظومة الثقافية فى المجتمع البشرى. ومن هنا جاء نقدنا لتعريف تيلور للثقافة الذى تخلو عناصره من كلمة اللغة، بينما هذه الأخيرة هى المنشئة أصلا لبقية عناصر المنظومة الثقافية فى المجتمعات البشرية. وبعبارة أخرى، فالعلاقة بين اللغة والثقافة فى المجتمعات البشرية هى علاقة حميمية جدا.

يحفل الفصل الثانى «المقارنة الأنثروبولوجية للثقافة» بأسماء مشاهير علماء الأنثروبولوجيا والتعاريف والمفاهيم والاتجاهات والنظريات التى أنشأها هؤلاء العلماء نتيجة لدراساتهم لثقافات المجتمعات البشرية.

يقوم المؤلف بملاحظة هامة حول التعاريف الأنثروبولوجية للثقافة «إن مختلف التعاريف الأنثروبولوجية حافظت على المقابلة بين الطبيعى والثقافى» (ص ٤٩) فعند مالينوفسكى تعتبر الثقافة نتيجة لتلبية الحاجات البيولوجية عند الإنسان. بينما يرى لفى ستراوس أن ليس هناك ثقافة إلا بعد تجاوز البيولوجيا. ويتم هذا بطرق متنوعة أهمها اللغة، فيصبح العامل البيولوجى ثانويا بالنسبة إلى علم الثقافة. تؤكد هذه الرؤية من جديد مدى الأهمية المركزية للغة فى نشأة وتطور الثقافة.

إن الثنائية الطبيعية-الثقافية فى المقاربات الأنثروبولوجية المتعددة لا تكاد تثير تساؤلا إبيستيمولوجيا أساسيا عن طبيعة الجانب الثقافى فى ازدواجية هوية الكائن البشرى، وهذا ما جعل كليف براون يقول بأن الثقافة تستعمل «كتجريد غامض» كما رأينا من قبل.

لقد قادنا تساؤلنا بهذا الصدد إلى الاستنتاج أن عناصر الثقافة (اللغة، الفكر، الدين، المعرفة/العلم، القوانين، الأساطير، القيم والمعايير الثقافية...) ليس لها وزن وحجم بالمعنى المادى الذى نجده فى الجانب الطبيعى/البيولوجى للإنسان[2]. ومن ثم يمكن القول بأن منظومة الثقافة البشرية هى ذلك الجانب غير المادى من الإنسان والذى له القدرة على تجاوز الجانب الطبيعى/البيولوجى فى الإنسان، كما شدد على ذلك لفى ستراوس. إن بحوثنا فى العلاقة بين الطبيعة والثقافة فى هوية الإنسان تفيد أن الثقافة هى العنصر المركزى فى هوية الإنسان لا فى إعطائه السيادة فى هذا العالم/الكون فحسب بل أيضا حتى فى هندسته البيولوجية التى تجعل، من جهة، النمو والنضج البيولوجى البشرى بطيئا جدا مقارنة بنظرائه عند بقية الكائنات، وتعطى، من جهة أخرى، أفراد الجنس البشرى مدى حياة أطول من معظم أعمار أفراد الأجناس الحية الأخرى.

ينتهى هذا الفصل بملاحظة سلبية حول جهود المقاربة الأنثروبولوجية بوجهيها القديم والجديد: «نخلص إلى أن إثنولوجيا النصف الثانى من القرن العشرين شابها الكثير من التضارب، وهى افتقدت إلى الاستقرار الأكاديمى الذى عرقل توصلها إلى نظريات علمية» (ص ٦٣).

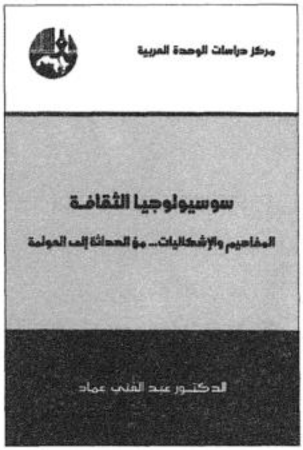
يطرح الفصل الثالث من الكتاب المقاربة الإيديولوجية للثقافة. ولمصطلح الايديولوجيا دلالات متعددة من بينها استعماله كمرادف لعلم الأفكار. لقد اتخذ هذا المصطلح معنى سلبيا لدى كارل ماركس. إذ هى عنده عبارة عن وعى مغلوط أو زائف يتكون للفاعلين الاجتماعيين تحت تأثير السيطرة الطبقية والنفوذ السياسى للذين يملكون الثروة والسلطة. فهناك تطابق بنيوى بين السيطرة المادية والسيطرة الفكرية. ومن ثم، لا يمكن أن تكون الأيديولوجيا غير وعى خاطئ لحقيقة الأشياء الواقعية، المحرفة والباطلة، المستلبة والخادعة. فهى إذن مفهوم مغلوط للتاريخ الإنسانى وأفيون الشعب. وكما هو واضح فنقطة الانطلاق مادية فى الطرح الماركسى.

يتعرض المؤلف بعد ذلك إلى أفكار زمرة من المفكرين حول الايديولوجيا أمثال لويس التوسير Louis Althusser وأنطونيو غرامشى وميشال فوكو وعالم الاجتماع الألمانى كارل مانهايم الذى يعتبر أن نقطة انطلاق الفكرة عند بنى البشر ليست جامدة بل متحركة.

أما عبدالله العروى، فيؤكد فى كتابه (مفهوم الايديولوجيا) نسبية هذا المفهوم. أى أنه متعدد الدلالات تبعا للمجالات الاجتماعية العامة التى يعمل فى إطارها. لذلك يتميز هذا المفهوم بالسيولة والنسبية فى نظر العروى.

يبدأ المؤلف الفصل الرابع «المقاربة السوسيولوجية للثقافة» بتعريف لسوسيولوجيا الثقافة نفسها، عنوان هذا الكتاب . فيعتبرها «تحليلا لطبيعة العلاقات والترابطات الموجودة بين أنماط الإنتاج الفكرى وسماته العامة، من جهة، ومعطيات البنية الاجتماعية بكل أبعادها الاقتصادية والسياسية والبيئية، التاريخية منها والمعاصر، من جهة أخرى وبالتالى فهذه المقاربة هى دراسة وظائف هذا الإنتاج الفكرى وآلياته وتفاعلاته فى المجتمعات على مستوياتها كافة» (ص ٨٧).

ففى إطار هذا التحليل السوسيولوجى يؤكد المؤلف «أن فى كل ثقافة شقا موروثا وسلفيا، وشقا آخر



سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة

الدكتور عبدالغنى عماد

مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦ .

يكتسبه الخلف بالقوة من الأنماط الثقافية السائدة والمؤسسات التى تقوم بإنتاج وإعادة إنتاج شروط الإنتاج الثقافى» (ص ٨٧). وهذا الطرح متأثر كثيرا بأفكار عالم الاجتماع الفرنسى بيار بورديو.

ويؤكد المؤلف فى السطر الأول من الفصل الخامس على أن الإنسان ينفرد عن المخلوقات الأخرى بقدرته على صنع الثقافة دون أن يرجعها إلى اللغة المنطوقة والمكتوبة التى يتميز بها الجنس البشرى عن سواه من الأجناس الأولى. ومن ثم جاء غموض تحليله لمصدر نشأة الثقافة فى المجتمع (لا وجود للثقافة من دون مجتمع إنسانى، ولا وجود لمجتمع إنسانى من دون ثقافة، ص ١١٥)، إنه من نوع تفسير الماء بالماء، كما يقال. فلو استعمل الدكتور عماد عامل اللغة كسبب حتمى لبروز ظاهرة الثقافة فى المجتمعات البشرية لكان قادرا على طرح تفسير أكثر مصداقية للثقافة يمكن صياغته على النحو التالى:[١] لا يمكن وجود مجتمع بشرى بدون لغة/ لغات.[٢] الثقافة هى نتيجة لوجود اللغة/ اللغات فى المجتمع.[٣] اللغة/اللغات هى إذن الواسطة الرئيسية فى تواجد المجتمع وثقافته.

وبسبب تغييب عامل اللغة فى التحليل والحديث عن الثقافة يأتى قصور الكثير من مقولات هذا الفصل. والثقافة أمر يكتسب من خلال التنشئة الاجتماعية دون ذكر بارز لدور اللغة فى ذلك. وعندما تحدث المؤلف عن موت الثقافة/الثقافات فهو لا يكاد يذكر دور اللغة/اللغات فى هذا الشأن. «قد تموت الثقافة إذا تفكك المجتمع الذى يحملها عن طريق الفناء أو عن طريق الغزو... أو عن طريق الاندماج بثقافة أكبر وظهور ثقافة جديدة نتيجة لانصهار الثقافات القديمة. حصل هذا مع الثقافة المصرية القديمة والفينيقية والأشورية والبابلية.. وهذا «المجال» الثقافى يعيش الآن عصر الثقافة العربية والإسلامية». فهل كان ممكنا لهيمنة الثقافة العربية الإسلامية أن تتم - بدون انتشار لغة القرآن وعقيدته - فى مجتمعات الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وتمحو الثقافات السابقة الانتشار للإسلام واللغة العربية فى هذه المنطقة؟[٤].

يركز الفصل السادس «مصادر الثقافة وإشكالية القيم والتراث الشعبى» على التعرّف على عناصر المنظومة الثقافية. يتناول المؤلف بالشرح المحاور التالية: الثقافة العالمة، الثقافة الشعبية، الثقافة العائلية، الدين، القيم الثقافية، العادات والأعراف، التقاليد والشعائر والطقوس، التراث الشعبى. يقدم هذا الفصل وصفا لهاته المحاور كما تتحدث عنها العلوم الاجتماعية الحديثة على الخصوص. فيحلّل الكاتب، مثلا، مفهوم القيم الثقافية متطرقا إلى عدة مسائل تجدها فى تحليلات أدبيات العلوم الاجتماعية. فيعطى المؤلف اهتماما خاصا لبحث العالم ميلتون روكيش Milton Rokeach فى موضوع القيم الثقافية (ص ١٤١-١٥٢). ينتهى هذا الفصل بعرض وصفى لمحور التراث الشعبى كجزء مكوّن لظاهرة الثقافة فى المجتمعات البشرية دون أن يثرى هذا الموضوع بأمثلة ميدانية من واقع المجتمعات العربية الإسلامية. وبعبارة أخرى، اقتصر صاحب الكتاب فى محاور هذا الفصل على مجرد سرد وصفى عام لما يقوله مختصو العلوم الاجتماعية حول كل محور دون تحفظ أو نقد منه لبعض المسائل التى وردت فى هذه العلوم، مما كان يمكن أن يؤدى بالدكتور عماد إلى إضافات فى التحليل والمنهجية لدراسة مثل تلك المحاور انطلاقا من خلفية الثقافة العربية الإسلامية لصاحب الكتاب.

«البعد الرمزى فى الثقافة» هو عنوان الفصل السابع للكتاب. فيه يبدأ المؤلف بالحديث عن معنى «الرمز» الذى يعتبر سوسيولوجيا «شيء ما يحتل مكان شيء آخر» . أو أنه «شيء ما يحل محل شيء آخر ويستدعيه» (ص ١٧٠). فالبعد الرمزى هو ميزة الإنسان عن بقية الكائنات، ويتمثل ذلك فى كون أن الإنسان كائن عاقل ومفكر يمتلك استعدادات تسمح له بتمثل الأشياء بطريقة رمزية وبالتحديد بواسطة الكلمات (اللغة) والمفاهيم العقلية والخيال. وقد أدت تلك الاستعدادات إلى تنمية لامتناهية لقدرات الإنسان على الإبداع والاختراع، الذى يحافظ عليه المجتمع البشرى بواسطة منظومته الثقافية.

يبيّن صاحب الكتاب أن لرموز المجتمع عدة وظائف: الاتصال والمشاركة والتضامن، التنظيم التراتبى للجماعات، ربط الحاضر بالماضى، ربط المجتمع بدينه وقيمه. يرى المؤلف بأن التفاعل الرمزى فى المجتمع يشكل لب الشخصية والهوية الجماعيتين واللتين بدونهما لا يمكن إقامة التواصل مع الأخرين.

يركز الفصل الثامن من الكتاب على ظاهرة التغير فى الثقافة وعلاقة ذلك بالتغير الاجتماعى. فيعرض مجموعة من الأسباب والنظريات مثل العوامل البيئية والجغرافية والسكانية والإيديولوجية والتكنولوجية والاقتصادية، ونكتفى هنا بذكر فكر ثلاثة علماء اجتماع ساهموا كثيرا فى فهم الثقافة وطبيعية التغير فيها. فماكس فيبر يرى أن العوامل الفكرية والروحية تلعب دورا مركزيا فى عملية التغير (ص ١٩٨). وكما هو معروف فقد فصل القول فى قوة الأفكار فى إحداث التغير كما يشهد بذلك كتابه الشهير الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية الذى يتبنى منهجية سوسيولوجية مضادة للحتمية الاقتصادية.

يناقش صاحب الكتاب نظرية سوروكين حول عملية التغير التى تستعمل «قانون الدمج» الذى يعتبره سوروكين الأساس فى عملية التغير. يتحدث سوروكين عن مبدإ الحد فى الثقافة والذى يعنى أن الثقافة تتغير بحركتها الداخلية وحركتها المستمرة إلى أن تصل إلى حدود معينة تعيدها فى حركة دائرية مستمرة بعد كل ثلاث مراحل إلى مسيرتها الأولى، والمراحل الثلاث عند سوروكين هى: المرحلة الروحانية والمرحلة المثالية والمرحلة الحسية.

أما مساهمة وليام أوجبرن Ogburn. W فى مسألة التغير فى الثقافة فتتمثل فى نظريته حول الهوّة الثقافية Cultural Lag. تقول هذه النظرية إن التغير فى الجانب المادى للثقافة يسبق دائما التغير فى الجانب اللامادى . ومن هنا جاء مصطلح الهوّة الثقافية.

ويطرح المؤلف فى الفصل التاسع موضوع «الحداثة وما بعد الحداثة»، فيعرّف هذين المفهومين ويتطرق ويناقش بعد ذلك أبعادهما فى المجتمعات وعند بعض الباحثين والمفكرين الذين اهتموا أكثر من غيرهم بفهم وتحليل طبيعة هذين المفهومين. فيذكر بعض الأسماء البارزة فى هذا الميدان أمثال عبدالوهاب المسيرى وبيتر برغر Peter Berger والان توران Alain Touraine ويورغين هبرماس Hberamas وجان فرانسوا ليوتار Lyotard وارنست غلنر Ernest Gellner.

هناك عدة مؤشرات للحداثة كما يتجلى فى المجتمعات الغربية وغيرها، مثل المشاركة السياسية والتمثيل الديمقراطى ووجود الطبقات الاجتماعية. استعمال متزايد للتكنولوجيا وظهور نموذج جديد للشخصية القاعدية فى المجتمعات الحديثة. توصف هذه الشخصية بأنها رشيدة وعقلانية قادرة على اتخاذ قرارات مبنية على المعرفة والحسابات الدقيقة للربح والخسارة. أى أنها شخصية ذات تركيز على الذات (فردية) مبدعة متوجهة نحو الإنجاز وتحقيق الطموحات الشخصية.

يطرح المؤلف فى الفصل العاشر «أدلجة الثقافة وتسييسها: نهاية التاريخ وصدام الحضارات نموذجا» أفكار ونظريات ثلاثة من المفكرين الأمريكيين البارزين فى الوقت الراهن، وهم ساموبل هانتنغتون وفرنسيس فوكاياما والفن توفلر Toffler .

لعل القارئ العربى المثقف يعرف أقل أفكار توفلر من أفكار زميله. يقدم توفلر رؤية جديدة للعصور الحضارية عبر التاريخ مستعملا مفهوم «الموجات» Waves . فيطرح ثلاثة عصور، بدأ الأول بالموجة الفلاحية وتمثل الثانى فى عصر الصناعة ذات المداخن . أما الموجة الثالثة فهى موجة عصر المعلومات الذى يحمل معه تغيرات ذات نوعية جديدة يكرس المؤلف جهوده للتنبؤ باتجاهات التغيير الذى تحمله.

إن الفصل الحادى عشر «أدلجة الثقافة وتزييفها: العولمة وإشكالية الهيمنة» هو آخر فصول هذا الكتاب. يعرض المؤلف إلى الفيض الكبير من الكتابات حول ظاهرة العولمة بأشكالها المختلفة بما فيها العولمة الثقافية التى تهدد الخصوصية الثقافية والهوية القومية وتنشر هيمنة الثقافة الاستهلاكية وتمثل خطرا على القيم المحلية فى المجتمعات التى تتعرض إلى عولمة الثقافات المسيطرة. فيرى صاحب الكتاب أنه «إذا كان الباب الاقتصادى والسياسى قد شرع أمام العولمة، فإنه من الطبيعى أن يصبح المجال الثقافى بكل أبعاده مجالا خصبا لتداعياتها. ولعل هذا المجال بالتحديد من أخطر النتائج المترتبة على العولمة لاتصالها بالشخصية الثقافية والهوية والانتماء للشعوب والأمم التى أصبحت مكشوفة أمام مؤثرات وتحديات لم تعد تنفع معها الدفاعات الثقافية التقليدية السابقة للحفاظ على الخصوصيات والهويات الثقافية المحلية» (ص ٢٨٨).

لا يكاد يضيف مؤلف الكتاب أى شيء جديد ومفيد فى الخاتمة (ص ٣٠٥ - ٣١٢). فيظل، مثلا، مصدر نشأة الثقافة غائبا أو غامضا. كما رأينا ذلك فى بعض فصول الكتاب . ومع ذلك يصيب الكاتب فى أحد معالم الهيمنة الثقافية الغربية المعاصرة . فيصفها بأنها ذات نزعة إمبريالية تتمثل فى أنها لا تكتفى بإلحاق ثقافات متعددة بها، بل هى تسعى بقوة إلى تفكيك تلك الثقافات واستبدالها شكلا ومحتوى . وهذا ما يساعد فى رأى صاحب الكتاب على إشعال فتيل النزاعات الأصولية والقومية والدينية . وكما أوضحنا فى الصفحات السابقة، فإن الكتاب خليط من الإيجابيات والسلبيات فى محاولة طرحه لعلم الاجتماع الثقافى للقارئ العربى. وفى نظرنا سوف يتحسن المستوى الفكرى والتحليلى لمضمون الكتاب لو يأخذ المؤلف على الأقل ببعض الأفكار والاقتراحات الواردة فى هذه المراجعة فيضيفها إلى فصول الكتاب فى طبعة قادمة. ■

المراجـــــــع

(١) الذوادى، محمود (٢٠٠٦) الثقافة: بينة تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظور العلوم الاجتماعية. بيروت، دار الكتاب الجديد، ٢٧٦ ص .

(٢) الذوادى، محمود: «فى أبجدية الرموز الثقافية»، الآداب ٧/٦، ٢٠٠٦، ص ٥-١٢ .

(٣) الميلاد، زكى (٢٠٠٥) المسألة الثقافية: من أجل بناء نظرية فى الثقافة. بيروت، المركز الثقافى العربى، ص ٢١ - ٢٩ .

(٤) الذوادى، محمود: «فى الدلالات الميتافيزيقية للرموز الثقافية»، عالم الفكر، مارس، يونيو ١٩٩٧، ص ٩-٤٣ . وأيضا كتابى: التخلف الآخر: أزمة الهويات الثقافية فى الوطن العربى والعالم الثالث. تونس، الأطلسية للنشر، ٢٠٠٢، ٢١٨ ص.

(٥) الباقورى، أحمد حسن (١٩٨٧) أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية. القاهرة، دار المعارف.

مـــــا بـــيـــــن الجـــــــارم

أحـــمـــد عـــلـــى الجـــارم

■■ ربما لم يكن الفرزدق أول الهجائين فى تاريخ الأدب العربى، وإن كان أشهرهم، إلا أن تاريخ هذا «الأدب» حافلٌ قديمُه وجديدُه بسجالات ومناوشات.. تختلفُ أسبابها و«كوامنها» الموضوعية أو الذاتية. ولكنها تظل ـ مهما يكن من أمر ـ سطوراً فى هذا الكتاب



■■ ظهر للدكتور زكى مبارك عام ١٩٤٧ ديوان شعر سماه «ألحان الخلود»[١] وفى الصفحة السابعة من تقديمه لهذا الديوان نقرأ له ما يلى: «أذكر أننى قلت فى إحدى كلماتى أن الاستقامة المطلقة ضرب من الجمود. الترتيب يجيده شاعر مبتدئ مثل الأستاذ على الجارم وهو أجهل من أنجبتهم مصر فى حياتها الشعرية وهو فى حياته النفسية غاية فى الانحطاط. وحياة الأستاذ على الجارم شبيهة بحياة الأستاذ أحمد أمين؛ فالأستاذ على الجارم يأبى عليه الوقار المصنوع أن يسير فى شارع فؤاد والأستاذ أحمد أمين يأبى عليه الوقار المدخول أن يسير فى شارع عماد الدين. أخزاكم الله يا أدعياء الأدب والفكر فى هذا الزمان. إن الطبيعة تنكر هذا الرياء: نهر النيل يتحول من مكان إلى مكان ونهر السين يتحول من مكان إلى مكان ونهر دجلة يتحول من مكان إلى مكان (هكذا). كيف كان يعيش على الجارم لو لم يعتصم بدعوى الغيرة على النحو والصرف وهو أجهل الناس بعلم النحو وعلم الصرف. وكيف كان يعيش أحمد أمين لو لم يعتصم بدعوى الغيرة على الأخلاق؟! أحمد أمين على خُلق؟! لم ترضه المكافأة التى يأخذها من مجلة الرسالة فكايدها بإنشاء مجلة الثقافة والمكايدة ليست من أخلاق الرجال. وانتزع أحمد أمين كتاب الرسالة لتموت الرسالة فوقفت فى وجهه وقفة أنذرته بالموت من الخوف».

وفى صفحة ١٢٠ من نفس الديوان نجده يقول: «الجارم يزعم أنه من رشيد وهو كذّاب كذاب. فإن أهل رشيد عرفوا بقوة الشكيمة ولم يعرف هو بغير الانحلال».

وفى صفحة ١٢٤ من نفس الديوان نجده يقول: «وتبينت وأنا راغم أن الأرزاق بيد الله وأن اللؤم الذى تنطوى عليه نفسى لن يضير أحدا غيرى».

ولكى نتفهم شخصية الدكتور زكى مبارك نستعرض بعض ما كتبه فى هذا الديوان فنجده يقول فى الصفحة السادسة: «ليس فى أشعارى مديح فما أعرف رجلا أعظم منى لأنظم فيه قصائد المديح». وفى صفحة ٨ يقول: «إنما الحقيقة الثانية فهى الصياغة الفنية فى ديوان (ألحان الخلود). إن كل

«مناوشات أدبية»

الضخم لسيرة الأدب والأدباء المحكومة بتراث عربى وأدبى راسخ من الفخر.. والثأر. هنا يكتب عن والده دكتور أحمد على الجارم «الطبيب المجمعى» ويحكى لنا بعض ما كان بين الشاعر الكبير و«الدكاترة» زكى مبارك.



بيت فى هذا الديوان قد وُزن بميزان كأنه صفحات من كتاب (النثر الفنى) أو صفحات من كتاب (التصوف الإسلامى) أو صفحات من كتاب (الموازنة بين الشعراء).[٢] ؛ ولن يستطيع ناقد متحذلق أن يكتب حرفا فى نقد هذا الديوان، فما عرفت اللغة العربية فى تاريخها القديم وتاريخها الحديث قلما أمضى من قلمى أو بيانا أبلغ من بيانى. قال الدكتور محمد صبرى إن ديباجتى الشعرية ديباجة بحترية وهى كلمة يريد بها الثناء ولكنى عن نفسى أشعر من البحترى وأشعر من جميع الشعراء لأننى ملك الشعراء».

كما نقرأ له فى صفحة ٥٤ قوله: «وما هى إلا أشهر قلائل (كان ذلك عام ١٩١٦) حتى صحت عزيمته (الفتى زكى مبارك) على أن يكون من أئمة الرأى والبيان فى اللغة العربية. ولا تدهش من هذا الأمل الجارف فصاحبنا مفتون بنفسه أشد الفتون وهو يرى نفسه أذكى الناس وأقوى الناس ولم يخطر بباله أن الله أنشأ إنسانا أصح منه عقلا أو أقوى جسما ولولا نشأته على الوقار لكان من كبار المصارعين».

كما نقرأ له فى صفحة ٨٠ قوله: «قال رشدى (أحد أصفيائه): وتشرب الخمر مع هؤلاء المومسات؟ فقلت: أكفر عن ذنوبى يوم شربت الخمر مع بعض الوزراء والحسنات يذهبن السيئات:

لقد زعموا أنى سكرت وربما
يظن الفتى سكران وهو حليم
لعمرك ما بالسكر عار على الفتى
ولكن عارا أن يقال لئيم»

أما فى صفحة ٢٤ من هذا الديوان فنقرأ له قوله: «تمردت فقلت إننى لا أخاف الله إلا تأدبا مع ذاته العلية فكيف أخاف الناس؟! ثم بالغت فى التمرد فتحديت الله لأننى أعرف أن الله لا يستطيع مقابلة التحدى بالتحدى وأنا أتحداه إن تحدانى وأنا حاضر للتحدى». (ما كل هذا التخريف والهذيان يا دكتور زكى؟!).

وهكذا فقد تدنى الدكتور زكى مبارك فى تهجمه على «الجارم» إلى المستوى من القول الذى لم يلتفت إليهما الجارم الذى لابد أنه كان يردد قول الله تعالى: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم

بغداد وبيروت والخرطوم عرفت الجارم حين هتف فى ربوعها فأوقد جذوات الحماسة وأشعل حمية العُروبة



حين انتقل شوقى إلى دار الخلود تألق الجارم شاعرا كما تألق عالما فصار ممثل مصر فى محافل العروبة

الجاهلون قالوا سلاما، صدق الله العظيم، والذى جعلنى أتذكر بيت الشعر الشهير :

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت، أتاح لها لسان حسود

وأتذكر أيضا قول الشاعر العربى الحكيم:

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعل

وأتذكر قول الجارم نفسه:

دع الحسود ألا يكفيك أن له
نفسا تفور وحظا غير مجدود

وسوف نضع - أيها القارئ الكريم - فى هذا المقال كلا من على الجارم وزكى مبارك وجها لوجه كما وضعتهم الأحداث الأدبية ليتخذ كل منهم المقعد الذى يستحقه فى تاريخ الأدب العربى الحديث فى مصر.

بغداد فى ١٩٣٨:

كانت الجمعية الطبية المصرية برئاسة الدكتور على إبراهيم باشا- جراح مصر الكبير - تُقيم مؤتمرا سنويا وتحرص على أن يكون هذا المؤتمر فى إحدى العواصم العربية المختلفة حرصا منها على تبادل الخبرات بين الأطباء العرب وعلى الترابط القوى بين بلدان الأمة العربية مما أثمر فى ترسيخ مفهوم العروبة وأدى إلى قيام جامعة الدول العربية عام ١٩٤٤. وكان المجمع اللغوى يختار الشاعر الكبير على الجارم ليمثله فى هذه المؤتمرات ليحيى هذا الاتجاه العروبى القومى ويشيد بدور مصر القيادى فى محاولة النهوض الحضارى للأمة العربية.

وفى هذا المجال نقرأ للدكتور محمد رجب البيومى قوله[٣]: «تقدم على الجارم إلى الأمة العربية بعلمه قبل أن يتقدم بشعره فقد عرفته ربوع الضاد بمؤلفاته الرائعة ذات الأجزاء المتعددة فى البلاغة والنحو لأن ماكتبه الجارم فى هذين العلمين كان فتحا جديدا جعل الصعب سهلا والبعيد قريبا. لذلك تعددت طبعات (النحو الواضح) حتى بلغت الخمسين وقُررت أجزاؤه فى مدارس الشام والعراق والأردن والسعودية حينا طويلا من الدهر. وحين انتقل شوقى إلى دار الخلود تألق الجارم شاعرا كما تألق عالما فصار ممثل مصر فى محافل العروبة، والجارم قوى البيان مكتمل الأداة بارع الإلقاء. كان الجارم أحد الفرسان الصائلة فى ميادين الفصاحة الباهرة حين كانت البلاغة مهوى النفوس وحين كان الجمهور ذواقا يلم بشذور من روائع الأدب فى القديم والحديث: فلما مثل مصر بشاعريته الحافزة وديباجته العربية الناصعة جذب الأسماع لما يقول، لقد كان الحفل الجهير يضم أفذاذ الشعر من كل وطن عربى ولكل شاعر منزلته الرفيعة دون ريب؛ ولكن الجارم يقف فى الطليعة بين شعراء كبار فتكون قصيدته مجال التقدير والملاحظة ويعود إلى مصر وكأنه عاد من فتح حربى بعد أن سجل بطولة الانتصار. وإذا كان المصريون قد تعودوا حينئذ سماع روائعه بالإذاعة المصرية إلقاء وترجيعا فإن بغداد وبيروت والخرطوم عرفت الجارم الشادى المغرد حين هتف فى ربوعها كرّة بعد كرّة فأوقد جذوات الحماسة وأشعل حمية العُروبة وأعاد مجد السابقين من فرسان البيان. وللقصيدة العربية موسيقى آسرة تهز من يصغى إليها ويشعر بها كل سامع على قدر استعداده مهما كان غريبا عن تعمق المعانى واستشفاف الخواطر. فإذا كان من ينشد القصيدة عالما بفن الإلقاء وتجويد الكلام وكان ذا صوت لؤلؤى الإيقاع فإنه يبلغ بتأثيره النفاذ ما لا بعد وراءه من التأثير. وكذلك كان الجارم وقد لقب (بالصناجة) لموهبته الإلقائية، فاذا جمع إلى هذا التغريد الساحر عذوبة البيان ووضوح الديباجة وملك التعبير عن الخواطر المكظومة والهواجس الدفينة حتى كأنه ينطق عن أغوار الناس فى موقفه الإلقائى فإنه يهز الحفل هزا؛ والذين ينكرون ارتياح السامعين لما يبهرهم من الشعر ويعدونه من قبيل الخطابيات ينكرون الشعر العربى منذ وجد إلى عصرنا هذا وعليهم أن يقطعوا الصلة بين الطريف والتليد حين يأتون بضباب حائر تبدده الريح. لقد زار الجارم عاصمة الرشيد ثلاث مرات فكانت كل زيارة له موسما شعريا لا ينقطع صداها عدة شهور؛ زارها ممثلا للمجمع اللغوى فى المؤتمر الطبى ببغداد سنة ١٩٣٨ فأنشد قصيدته الذائعة[٤]:

بغداد يا بلد الرشيد
ومنارة المجد التليد

وفيها تحدث عن سجل المجد الخالد، إذ كانت بغداد مضرب المثل الشرود، وأنصع سطر للعروبة خط فى لوح الخلود، ولاينبيك عن بغداد مثل الجارم حين أخذ يناديها متسائلا:

بغداد يا دار النهى
والفن يابيت القصيد
نبت القريض على ضفافـ
ـك بين أفنان الورود
سرق التدلل من (عنان)
والتفنن من (وحيد)
بغداد أين البحترى
وأين أين ابن الوليد؟
ومجالس الشعراء فى
بيت ابن يحيى والرشيد؟
أين القيان الضاحكات
يمسن فى وشى البرود؟
الساهرات مع النجوم
الأنفات من الهجود
يخطرن حتى تعجب الأغصـ
ـان من لين القدود
وإذا سفرن فأين ضو
ء الشمس من شفق الخدود؟
يعبثن بالأيام والأيا
م أعبث من وليد
خبأ الجمال لهن كنزا
بين سالفة وجيد

ويترك الشاعر مظاهر الترف والنعيم إلى مواقف القوة والسلطان فيتحدث عن الجيش الزاخر بالأساد، والبهو الفسيح الحافل بوفود الدول، فالرسل تتلو الرسل من بيض صقالبة وسود، والجو يسطع بالسيوف، والأرض تزخر بالجنود:

حتى إذا رجعوا بدا
بجباههم أثر السجود

أما عواطف الشاعر الذاتية فهى عواطف كل عربى مثقف شاعر، يقرأ التاريخ ويجمح بالخيال إلى أبعد مراميه، فيجوز القرون النائيات، ويفك أسرار العقود، ويهتاجه الطيف البعيد فيصبو إلى ظل الجاه والعزة فى زمان المجد الغابر، وينادى أمة اليوم أن تعيد مجد الأمس. فاليوم يوم السباق والعدو، لا التقهقر والنكوص، والمجد يدعو ذويه للصعود فلا نكول. كل هذه المعانى وجدت متنفسها العاطر فى قول الجارم».

ثم نقرأ للأستاذ عبد المنعم خلاف ماكتبه فى مجلة (الرسالة)[٥] واصفا هذا الحفل ويقول: «ثم وقف الجارم يرسل قلبه فى صوته المعهود الذى يخيل إلى أنه كله هاء عميقة من فرط الشجو وإثارة النفس واستحضار المعانى الكامنة التى لا تظهر وتستعلن إلا إذا تلا لها ساحر رقية أو عزف لها عازف برنة أو شدا لها شاد بحنة أو خيّل لها مخيّل بريشة - وقف يقلب وجهه فى السماء والأرض والجهات الأربع فى قلق وغيبوبة شاعر ويمسح على أبصار الجمع بحركاته ويرسل نشيده فيخيل إلينا من سحره أن كلماته أجسام تسعى أو أمواج تطغى على قلوبنا فتملؤها بالذكرى الحادة ثم بالفخر النافخ ثم بالضحك المرسل ثم بالعزم المرسى الدافع ثم بالأمل القريب؛ فيخرج الدكتور زكى مبارك - طبيب ليلى المريضة بالعراق - عن طوره وعن حدود وقار الحفل فيستعيد ويطلب المزيد وبخاصة إذا جاء بيت فيه ذكر (الحسان) و(وعود الحسان). ثم ينتهى الحلم السعيد بجوه الروحى وقلوبنا راقصة وأكفنا دامية ويُقبل الأدباء والأطباء على (الجارم) يطلبون منه ثمن دواء للأكف المتسلخة والقلوب الجريحة. ويقبل

(طبيب ليلى) فيطبع على خدى الجارم بك قبلتين ذواتى رنين أدار الأبصار إلى مصدر ضجتهما ثم ينقلب يفخر على بأنه نال بهما ما لم أنل، ثم يرتد إلى الجارم بك يبشره بأنه من أول الداخلين إلى الجنة جزاء خدماته بشعره للغة القرآن .... ولله فى الدكتور زكى شئون».

ترى ماذا كتب الدكتور زكى مبارك عن هذا الحفل؟! دعنا نقرأ فى صفحة ١٣٢ من كتابه (ليلى المريضة فى العراق)(٢) قوله: « وكنت - مع الأسف - ذهبت إلى الحفلة وأنا أضمر الشر للأستاذ على الجارم فقد كتب فى منهاج الاحتفال أنه (شاعر مصر) وأنا أكره الألقاب الأدبية.

فلما وقف ليلقى قصيدته لم أصفق - وأعديت من حولى بروح السخرية فلم يصفقوا: ولكن الجارم قهرنى وقهر الحاضرين جميعا على أن يدموا أكفهم بالتصفيق وغاظنى أن تصفق (ليلى) لشاعر يرى بحكم منصبه أنه رئيسى لأنه كبير المفتشين بوزارة المعارف المصرية ولولا حكم الأقدمية لكنت الرئيس وكان المرؤوس ولكن ماذا أصنع وقد سبقنى إلى الأستاذية بأعوام طوال؟ وأنا والله أظلم نفسى بهذا الكلام: فما أذكر أبدا أنى حقدت على إنسان، وما أذكر أبدا أنى عرفت معانى الحسد والضغن إلا على الدهر المخبول الذى يتسفل فيرفع الأدعياء. وقد هجمت على شاعرنا الجارم عدة مرات وحاربته فى وزارة المعارف يوم رأى الأستاذ أبو بكر ابراهيم (وكان مفتشا بالوزارة) أن يكتب فى نشرة رسمية أنه أمير الشعراء. وقد عرف الجارم خطر ما أصنع فكان هو أيضا يحاربنى فى مكتب تفتيش اللغة العربية ولولا سماحة الأستاذ جاد المولى بك لكانت النتيجة أن أعيش بين المفتشين بلا صديق. فيا أيها العدو المحبوب الذى اسمه على الجارم - تذكر أنك كنت حقا وصدقا شاعر مصر فى المؤتمر الطبى العربى وستمر أجيال وأجيال ولا ينساك أهل العراق، وهل تعرف مصر أنك رفعت رأسها فى العراق وأنك كنت خليفة شوقى فى المعانى

وخليفة حافظ فى الإلقاء. إنى أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك وهل أنصفتنى مصر حتى تنصفك؟ وهل أنصفتنى مصر وكنت مجنونها وكانت ليلاى؟! يرحمنى الله ويرحمك فعنده وحده جزاء المجاهدين».

وهنا أتساءل ماذا كان يفعل الدكتور زكى مبارك فى نفس بغداد وفى نفس التاريخ؟! نتعرف على إجابة هذا السؤال عندما نقرأ ما كتبه فى ديوان (ألحان الخلود) صفحة ٢٦٧ مقدما لإحدى قصائده بعنوان (أدب الربيع) قائلا: «فى شهر فبراير من سنة ١٩٣٨ عقد المؤتمر الطبى ببغداد وكنت أحد أعضاء المؤتمر ولأيام ذلك المؤتمر تفاصيل كثيرة فى كتاب (ليلى المريضة فى العراق). كنت شعرت بوحشة شديدة من اغترابى فى بغداد فجاءت (روح مصرية) مع أبيها فى المؤتمر فأسرتنى عيناها من أول نظرة وألقيت بنفسى فى سعير الغرام ثم كانت الرحلة إلى (سدة الهندية) وهى قنطرة على نهر الفرات يسمع للأمواج فيها هدير عنيف. وقفنا فوق القنطرة عينا إلى عين وقلبا إلى قلب لنصنع ميثاق الغرام الجديد. زفرت زفرة محرقة وقلت: يعز على أن أتصور أننى لن أقف معك هذه الوقفة مرة ثانية فما أنتظر أن تعودى إلى العراق. فقالت ستكون لى معك وقفات على القناطر الخيرية أيام طغيان النيل فهناك هدير أعنف من هذا الهدير ونسيم أرق من هذا النسيم: ثم كانت بينى وبين تلك الروح أشياء بعد رجوعى من بغداد. وفى يوم الجمعة من أغسطس ١٩٣٩ كان موعد تلاقينا بالقناطر الخيرية. مضيت إلى الكازينو وهو مكان التلاقى ففوجئت برؤية السنهورى باشا وأمامه كأس والراديو ينقل سورة الكهف. قال السنهورى باشا: لا تؤاخذنى يا دكتور زكى فأنا لا أفهم القرآن إلا بحضرة الكأس فابتسمت وقلت: وأنا أيضا لا أفهم القرآن إلا بحضرة الكأس، وشربنا حتى ارتوينا. وفى المساء يهتف التليفون بصوت تلك الروح فأعرف أنها لم تخلف الميعاد ولكنها استحيت من لقائى ومعى السنهورى. قلت: نعود فالسنهورى لن يوجد هناك فى كل يوم، وقد اتفقت معه على أن تكون مجالسنا الخمرية فى بار سيسل وفى الليل. عدنا إلى كازينو القناطر الخيرية مرة ومرتين ومرات وأمتعنا أرواحنا وأسماعنا بهدير الأمواج وتناجينا بين أشجار تلك الحدائق الغناء. طاب لى أن آخذ لها صورة وهى تبتسم للأزهار بأرق من بسمات الأزهار فطربت لذلك وشع منها نور الجمال وسحر الدلال. وكانت لنا بعد ذلك سهرات حمراء بمصر الجديدة فى أمسية أيام الثلاثاء». ثم تأتى هذه القصيدة (العصماء) التى أوحاها ذلك المجون وذلك العبث للدكتور الشاعر زكى مبارك:

إنى وكل شاعر من البشر
شيطانه أنثى وشيطانى ذكر
أنى أحب الحب
وللملاحة أصبو
ماذا تراه الليالى
ماذا ترى الأيام
الحسن وحى خيالى
والشعر للأحلام
حفظت فى الحب عهدك
يا زهرة فى الربيع
فاحفظ عهودى عندك
عهد الهوى لا يضيع
إنى خلقت جمالك
وأنت أبدعت شعرى
ما كان سحرك يوما
إلا خيالة سحرى
من أنت فى الزهرات
لو شئت سميتك
أنى بوحى الهوى
من مهجتى صغتك

الإسكندرية عام ١٩٤٣:

كان المؤتمر الطبى هذه المرة بالإسكندرية التى كانت تئن تحت وطأة الحرب العالمية الثانية إذ اقترب الجيش الالمانى بقيادة الجنرال روميل من العلمين بينما كانت طائراته تمطرها بقنابلها. وكان الجارم ممثلا للمجمع اللغوى أيضا فى هذا المؤتمر وألقى فى حفل افتتاحه قصيدته «الإسكندرية»(٣) قائلا:

بدت أعلامها فهفا وهاما
سلاما درة الوادى سلاما
بعثنا بالتحية خفق قلب
يطير إليك شوقا واضطراما
عروس الشرق دونك كل مهر
وأين لمثل مهرك أن يساما
بهرت بنى الزمان حلى وحسنا
ودلهت الأواخر والقدامى

ثم يشير إلى تاريخها المجيد والمضىء فى العلم والحضارة مفتخرا قائلا:

بعثت النور من زمن تولى
وكنت لنهضة العلم الدعاما
وفى فجر الزمان طلعت فجرا
على الدنيا فأيقظت النياما

ثم يشير إلى ما جرته الحرب عليها من ويلات قائلا:

دهتك نوازل لو زرن رضوى
لما أبقين رضوى أو شماما
فكم بعثوا على ظمإ غماما
لئيم البرق قد حجب الغماما
أبابيلا تشأن ملعنات
تسوق أمامها الموت الزؤاما
فما أطلقت صيحة مستجير
ولا شردت عن عين مناما
تحديت الخطوب تزيد هولا
فتزدادين صبرا واعتزاما
ومن يكن الاله له نصيرا
فحاشا أن يضيع أو يضاما

ثم يتذكر الماضى الجميل وشبابه الفائت قائلا:

أبنت البحر والذكرى شجون
إذا لمست فؤادا مستهاما
ذكرت صباى فيك - وأين منى
صباى؟! إلام أنشده إلاما؟
فعذرا إن وصلتك بعد هجر
وما هجر الذى حفظ الذماما

ثم يصل إلى المؤتمر ورسالته قائلا:

سعى لك من حماة الطب حشد
فكنت كريمة لاقت كراما
إذا اختلفوا لوجه الحق يوما
مشوا للحق فالتأموا التئاما

فيا أيها العدو المحبوب الذى اسمه على الجارم - تذكر أنك كنت حقا وصدقا شاعر مصر وستمر أجيال وأجيال ولا ينساك العراق



إنى أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك وهل أنصفتنى مصر حتى تنصفك؟

ملائكة اذا لمسوا عليلا

أزاحوا الداء واستلوا السقاما

وأخيرا - ولا ينسى ذلك أبدا - يذكرهم بعروبتهم وبنهضتهم قائلا:

وفود العرب غناكم قريضى

وحن إلى معاهدكم وهاما

رمى الشرق الغمامة بعد لأى

وألقى تحت رجليه الخطاما

عقدنا للعروبة فيه عهدا

فلا وهنا نخاف ولا انفصاما

نلم شتاتنا أنى نزلنا

حجازا أو عراقا أو شآما

ونمشى إن دعت صفا فصفا

نصافح تحت رايتها الوئاما

وهنا يثار السؤال مرة أخرى، وماذا كان يفعل الدكتور زكى مبارك فى الإسكندرية وفى نفس الوقت تقريبا؟! وسوف تجد الإجابة - أيها القارئ الفاضل فى صفحة ٣٥١ من ديوانه (ألحان الخلود) حيث يقول تحت عنوان «قلب تثيره العواصف»: «كان هواى كتب إلى خطابا يذكر فيه أنه مضى إلى الإسكندرية ليصطاف وهو يحب أن يرانى هناك وكان ذلك فى أحد أعوام الحرب والغارات الجوية تزعج المصطافين أشد الإزعاج. أسرعت فسافرت وبحثت عنه فى الشواطئ إلى أن اهتديت إليه وهو يلاعب الأمواج بقوامه الرشيق. تغدينا معا فى مطعم كان يميل إليه، وقضينا العصرية فى نزهات مختلفات وبعد المغرب أشرت إليه أن نقضى السهرة فى منزلى ليستريح من ضجيج الجنود فى أوقات الشراب. ولكن غارة جوية تثور قبل نصف الليل فتوجب أن يبيت عندى.. وكانت ليلة من أجمل الليالى.. ثم ينصرف مع الشروق ليدرك مكانه فى الفندق خوفا من أن يظن أصحاب الفندق أنه أصيب بشظايا القنابل فى تلك الليلة الليلاء. كان وجهه عند الصبح أجمل من الصبح. قال وهو ينصرف: لقد شعرت بسعادة عظيمة لقضاء الليل بالقرب منك وأرجو أن أظفر مرة ثانية بمثل هذا الحظ السعيد. رجعت إلى الإسكندرية بعد أشهر والشتاء فى العنفوان. رجعت وحدى فانقبض صدرى، وشعرت بوحشة تزلزل القلب أعنف الزلزال .. المكان نفسه موحش لأنه ليس فيه. فكيف لا يوحش مع تلك الأهوال: فكانت أخباره انقطعت عنى ثلاثين يوما مع أننا كنا نلتقى فى جميع أيام الثلاثاء (بالطبع فى الشقة الخاصة بمصر الجديدة كما ذكر آنفا):

رجعت إلى مهد الصبابة والهوى

أسائل قلبى عنك فى غيبة العتب

رجعت فألقيت المهاد كعهده

وأنت معى يا روح جنبا إلى جنب

ثلاثين يوما ما التقينا فما الذى

يروعك من أمرى لتنفر من قربى

لقد شاب رأسى شاب من هول جوركم

وثار الجوى المكتوم تزخر بالشيب

أواجه فى المرآة شعرى فأنثنى

فخورا بأنى شبت بالمجد والحب

لئن شاب رأسى فى الهوى فشبيبتى

على خير ما ترجوه من قوة اللهب

وما تصنع الخمسون غامت خطوبها

بفحل شديد البأس يفتك بالخطب»

وقد ذكرنى هذا الشعر بما قاله الجارم بالمقابل مفتخرا بنسبه الى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قائلا:

يا جيرة الحرم المزهو ساكنه

سقى العهود الخوالى كل مُنْسكب

لى بينكم صلة عزت أواصرها

لأنها صلة القرآن والنسب

وقوله:

ولى نسب يُنْمى لبيتك صاننى

وصانته منى عزة وإباء

عليك سلام الله ماذر شارق

وما عطّر الدنيا عليك ثناء

وقوله فى قصيدة دار العلوم:

إن دعانا الهوى لغير سديد

سَدَّدتنا كرائم الأحساب

وقوله أخيرا:

شغف الناس بالفضول وبالحقد

فإن تلق نعمة تلق حقدا

هــوامــش:

(١) ألحان الخلود للدكتور زكى مبارك الطبعة الأولى ١٩٤٧ . طبعة دار الكتاب العربى بمصر، رقمه فى دار الكتب ز ١٦٧٩٦ إلى ١٦٧٩٨ .

(٢) هذه الكتب الثلاثة من تأليف الدكتور زكى مبارك.

(٣) مجلة الهلال: على الجارم: سفير مصر فى محافل العروبة السنة الرابعة والتسعون اكتوبر ١٩٨٦ وفى كتاب الجارم فى ضمير التاريخ اعداد الدكتور احمد على الجارم ١٩٩٤ ص ١٩٥ .

(٤) ديوان الجارم الطبعة الثالثة ١٩٩٧ الدار المصرية اللبنانية ص ١٨٧ .

(٥) مجلة الرسالة السنة السادسة عدد ٢٤٢ ص ٢٩٩ فبراير ١٩٣٨ .

(٦) كتاب ليلى المريضة فى العراق للدكتور زكى مبارك الجزء الأول ١٩٣٩ مطبعة الرسالة.

(٧) ديوان الجارم الطبعة الثالثة الدار المصرية البنانية ١٩٩٧ ص ٢٩٨ .

صنـــاعـة الـوهـــم

فجأة وفى شهر سبتمبر ٢٠٠١ وجدت نفسى مسئولاً عن إدارة السياسات الإعلامية فى مكتبة الإسكندرية. قرأت كثيراً فى هذا الاتجاه باللغة الإنجليزية، أما باللغة العربية فلا يوجد مؤلف محدد فى هذا الاتجاه، فقط مؤلفات فى الإعلان وأسسه، فى الاتصال الجماهيرى، الإعلام ومعالجة الأزمات إلى غير ذلك. إننى هنا أمام هم كبير، وعبء حملته على كتفى؟!!

إذ كانت هناك خبرات متراكمة ورصد متتابع منى لجهود العديد من المؤسسات فى هذا المجال، لكن لابد من أن أكون أكثر تحديدا لمسألة إدارة السياسات الإعلامية، إن هذه الإدارة هى فن من فنون الدبلوماسية شديدة التعقيد والتركيب، إذ هى تجمع بين توازنات داخل المؤسسة قد تتطلب فى وقت ما كبح جماح التوجه نحو الإعلام بسرعة غير مطلوبة من بعض إدارات المؤسسة، وفى وقت آخر حث وإقناع بعض الإدارات على التوجه نحو الإعلام وتلبية متطلباته. كما أن هذه الدبلوماسية قد تمارس داخل الدولة وخارجها، إذ من المطلوب تكثيف المادة الإعلامية التى قد يجرى بثها للوسائط الإعلامية المختلفة، أو التقليل من حجم هذه المادة، لكن متى يتم هذا ومتى يتم ذاك، لا شك أن ذلك يتطلب قراءة جيدة يومية من شخص ما للحياة السياسية والثقافية والأحداث الجارية، حتى يتسنى لهذا الشخص اتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب .

ثم يلى هذا نوع المادة التى ستقدم للجمهور من خلال العديد من الوسائط الإعلامية التى أصبحت من الكثرة بحيث قد تربك الشخص المسئول، لكن هنا يبقى الفيصل هل حدد هدفه؟ هل حدد نوعية المادة؟ هل حدد وسيلة الاتصال المناسبة؟ هل يستخدم كل الوسائط أم بعضها؟ المهارة التامة تكمن فى استخدام كل الوسائط لكن الاكتفاء بوسيط دون الآخر قد يضعف أداء الإدارة، فالاتصال المباشر وهو أقدم الوسائط التى عرفها الإنسان مازال أكثر الوسائط فاعلية وأكثرها صعوبة، لأن فيه إما أن يفقد المتصل به إلى الأبد، أو يكسبه إلى الأبد؟!

هنا يبرز الإقناع ولغة الحديث ولغة الخطاب كوسيلة من وسائل الإعلام، فى عصر السماوات المفتوحة والإنترنت، قد يبدو مستغربا أن العديد من المؤسسات بل حتى الحكومات تلجأ إلى الاتصال المباشر بالجماهير، لأن العلاقة المباشرة تحمل حميمية التواصل الإنسانى. حتى الولايات المتحدة الأمريكية واليابان تلجآن إلى مثل هذا النوع من الدعاية. فالولايات المتحدة لديها برنامج الزائر، حيث تستضيف من خلاله أحد الأشخاص المرشحين فى بلد ما للصعود السياسى أو الثقافى أو الاجتماعى لزيارة الولايات المتحدة لمدة شهر، ليبهر ببلد العام سام، تم من خلال هذا البرنامج استضافة شخصيات تبوأت مناصب عليا فيما بعد فى بلادها سواء من أوروبا أو أفريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية. اللافت للنظر عند حديثى مع العديد من الأشخاص سواء من مصر أو من دول أخرى ممن استفادوا من هذا البرنامج، أن كل فرد منهم أعد ملف مسبقا عنه، حدد من خلاله ميول وأهواء هذا الشخص وما يحب وما يكره. بحيث تخطط الزيارة وفق هذه الدراسة التى هى فى جانب منها لها بعد نفسى وآخر انثروبولوجى، ولكى أوضح الجانب الأخير، فلابد أن أنبه له، فلا يستحسن أن تدعو شخصا من بلد مسلم لديسكو، فى حين من المحبب أن تجعل زائر أوروبا ينبهر بالحداثة فى مجال التكنولوجيا، على حين يجب أن ترى صينياً ذا تراث عريق متحف المتروبوليتان، فى جانب آخر تقدم الولايات المتحدة نفسها على أنها أرض للتعايش الحضارى بين ثقافات متعددة، ولا مانع هنا من زيارة ناسا أو مفاعل نووى أو مشاهدة مترو لوس انجلوس أو وادى التكنولوجيا فى كاليفورنيا أو مصانع بوينج للطائرات مع العروج على البيت الأبيض ومكتبة الكونجرس، المهم فى نهاية الأمر أن يتم غرس نوع من الحب والانبهار، وتركك وقد اقتنعت بعظمة أمريكا أم الدنيا المعاصرة.

اللافت للنظر فى مثل ترتيب هذه الزيارات أن المرافق للزائر، يحمل بتعليمات تتوافق مع طبيعة الزائر، بل قد تكون تركيبته الشخصية أو كيمياؤه النفسية تتكامل معه، لكى يتحول الاثنان إلى أصدقاء، هكذا تنشئ الدول العظمى لها أصدقاء فى مختلف أنحاء العالم .

فى عصر الرئيس جمال عبد الناصر، كان طلبة المدارس والعامة من الشعب لديهم حالة إبهار بكاريزما الزعيم، لذا كانوا يرسلون له طالبين صورة شخصية منه، سرعان ما يقوم مكتبه بإرسالها ممهورة بتوقيعه. تخيل طفلاً فى نجع فى صعيد مصر فى منطقة منسية مهملة، تصله فجأة أمام أهل قريته رسالة من رئيس الجمهورية، فيها صورة عليها توقيعه، كيف سيكون رد فعلها لدى أهل القرية، لاشك أنه سيكون كبيرا. بل ها هو تأثيرها لدى الطفل سيدافع عن عبد الناصر مدى الحياة، لذا لم أكن مستغربا أن أرى صورة جمال عبد الناصر معلقة فى بعض المحال أو المنازل، لأن من أعدوا له صورته لدى الشعب أحسنوا وأدركوا أهمية الاقتراب من رجل الشارع .

هنا يجب أن الفت الانتباه إلى الحضور الإعلامى، فهناك أشخاص ليس لديهم حضور إعلامى وآخرون تجذبهم الكاميرا. بل وآخرون يخطفون الكاميرا الفرق بينهم شاسع. لذا فى هذا الكتاب سيجد القارئ قسما مخصصا لسيكولوجية الأداء الإعلامى، وتجنب السلبيات الخاصة بضعف شخصية أمام وسائل الإعلام، فعلى الرغم من جاذبية جورج الابن احتاج لمعالجات عديدة وتدريبات حتى تصبح لديه قابلية جماهيرية .

إن تفهم طبيعة الجمهور المخاطب وسيلة أساسية من وسائل النجاح الإعلامى، بل نجد كثيراً من الساسة لجأوا إلى حيل عديدة لكسب الجمهور، فها هو نابليون عند غزوه لمصر يشهر إسلامه ويتبنى منشورات تدعو المسلمين فى مصر لمساندته ضد الظلمة المماليك، ويحضر الموالد الإسلامية، بل نرى الرئيس السادات يبرع فى هذا حين يرتدى أحدث الأزياء فى القاهرة وعند سفره خارج مصر، ويلبس الجلباب والعباءة فى ميت أبو الكوم، فالأولى لديه طبقة وجمهور معين يتناسب معه البذلة ورابطة العنق المتناسقة معها وطريقة الإيليت فى التعامل، والثانية كان لدى السادات فيها جمهور آخر يخاطبه هو جمهور الفلاحين والعمال وأهل المدن الصغيرة، الذى كان يهدف إلى إقناعهم بأنه واحد منهم يأكل البط والأوز فى المولد النبوى على الطبلية، بل نشأ مثلهم، وأن لديه قيم الريف الأصيلة.

من هنا جاء هذا الكتاب، لا أعرف هل ما أهدف إليه منه سيكون مؤثراً بصورة أو بأخرى، لكنها محاولة لعلها تكون مفيدة، ثم هل هناك أصلاً علم لإدارة السياسات الإعلامية، لعل هذا العلم موجود فى الغرب وحوله دراسات وأبحاث، ولعلنى هنا أحاول، وقد يكون هناك من حاول قبلى. لكنها كلها إسهامات أرجو أن تكون مفيدة.

لكن مثل هذا العلم لا يبنى على العشوائية بل يخضع لقواعد وخبرات متراكمة، لا تخرج فى نهاية الأمر عن كونها تخضع للتخطيط Planning وتعنى به توظيف الإمكانيات البشرية والمادية المتاحة والتى يمكن أن تتاح خلال سنوات السعى من أجل تحقيق أهداف معينة مع الاستخدام الأمثل لهذه الإمكانيات، ويقوم على مجموعة عناصر: المدى الزمنى، معرفة الواقع، تحديد الأهداف والوسائل، ويرتبط هذا المفهوم دائما بمفهوم السياسة، وإن كانت السياسة Policy أوسع من الخطط فهى تحدد الأسس العريضة التى يتم فى إطارها أوجه النشاط المتصلة بالتخطيط فتنفيذ السياسات من مهام التخطيط .

لسنوات طويلة ظل المجتمع العربى تسيطر عليه فكرة الهيمنة الأمريكية على وسائل الإعلام وصناعته، وغاب عنه التحولات والتقلبات فى الإعلام الأمريكى لكن هناك هيمنة الدولة الأمريكية على العالم من خلال الاقتصاد والقوة المسلحة والأدوات الإعلامية التى تسيطر على عقول البشر بحيث يصبح البشر أسرى هذه الأدوات ومنها الأفلام السينمائية التى تبث السطوة الأمريكية بطريقة ناعمة لدى المشاهد ومثلها المسلسلات الأمريكية، وهى قضية مثارة حتى فى أوروبا، وبصورة خاصة فى فرنسا التى لديها تخوفات حادة من الهيمنة الأمريكية، حتى فى مجال محركات البحث على شبكة الإنترنت إذ إن سيطرة Google على محركات البحث تجعل دائماً المواقع الإلكترونية الأمريكية فى المقدمة أمام الباحث عن أية معلومة على الشبكة الدولية للمعلومات إن هذا النوع من الهيمنة يفرض علينا ضرورة البحث عن تفعيل محركات بحث عربية .

....

إذا المشهد الإعلامى المسيطر على الرأى العام له أداة ينفذ من خلالها ، هى «المجتمع الاتصالى» الذى يشمل كل الوسائط الإعلامية بدءاً من الخطابة أولى هذه الوسائط وصور للإنترنت أحدثها، أما من يقومون بصناعة إستراتيجية هذا المشهد فهم من يديرون السياسات الإعلامية ويضعون خططها المحكمة بصورة مستمرة، هنا أستطيع أن أقف أمام صناعة السياسات الإعلامية التى تشكل المشهد الإعلامى الذى يسيطر على الجمهور غير الناقد واللاوعى للسيل الذى يتعرض له؟!!

خـــالد عــزب

من مقدمة كتاب للمؤلف بعنوان «صناعة الوهم.. إدارة السياسات الإعلامية» يصدر قريباً

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

شهادة حق

جاء فى عرض د. رشدى سعيد عن قصة التنتالوم فى مصر(العدد ١١٣ يونيو لسنة ٢٠٠٨) كمثال لدور المساحة الجيولوجية المصرية فى البحث والتنقيب المنظم. ولقد وجدت من واجبى أن أسجل شهادة حق لدور الدكتور رشدى سعيد فى النهوض بأعمال هيئة التعدين فى هذه الفترة. وما سأسرده هنا هو ملاحظات بسيطة على بعض إنجازاته داخل هيئة التعدين خلال الفترة من (١٩٦٨- ١٩٧٧). إن قصة التنتالوم وغيرها من إنجازات تعدينية ضخمة لم تأت من فراغ .. وإنما استندت إلى قيادة حكيمة ..ذات نظرة مستقبلية بعيدة المدى... دعمتها إنجازات عديدة داخل هيكل هيئة التعدين وقت أن أوكل للدكتور رشدى سعيد إدارتها سنة ١٩٦٨ . وتلك الإنجازات هى التى أفرزت هذه النجاحات التى ينسبها البعض إلى أنفسهم فى يومنا هذا... رغم أن كل تلك النجاحات مسجلة وموثقة وليس لكائن كان أن ينسب لنفسه فضل اكتشافها... كما يحدث فى أيامنا هذه.

إن المساحة الجيولوجية المصرية تدين لأستاذنا العظيم د. رشدى سعيد والذى اقترب عمره اليوم من عامه التسعين... متعه الله بالصحة والعافية وطول العمر.... تدين له بأفضال عديدة... حيث عاشت الأجواء الجيولوجية عشر سنوات ذهبية... بإنجازات إدارية رائعة ... حققت قفزات إدارية وفنية غير مسبوقة فى مجال المساحة الجيولوجية.

وبعيداً عن المجاملات الشخصية.. فإن هذه القفزات تستند إلى عدة خصائص وصفات متميزة لأستاذنا الجليل ومنها:

١- شخصية أكاديمية فذة.... قدمت للعلم عشرات الكتب والبحوث والمقالات العلمية.... ترجم أغلبها إلى لغات عالمية متعددة.

٢- حب وغيرة خالصة من أجل مصر والوطن ومن أجل كل الأمناء القائمين على إصلاح وتطوير بلدنا العزيز.... دون محاباة أو تمييز.

٣- أستاذ ومعلم بارع... يمتلك قدرة هائلة على نقل المعلومة ببساطة وجاذبية ... يغدق بمعلوماته على جميع من حوله وحتى يومنا هذا.....

٤- بعد نظر محدد الملامح وبصيرة ثاقبة... تستشعرها فى جميع قراراته الإدارية وآرائه العلمية.

٥- رؤية محددة واضحة لدور المساحة الجيولوجية وما يجب أن تكون عليه لكى تحقق الهدف المرجو منها علما وعملاً.

٦- ذاكرة حاضرة لكل ما هو كبير وصغير... وحتى يومنا هذا أدامها الله عليه ومتعه بدوام الصحة والعافية.

وليس أدل على صحة كلامى هذا.... أكثر من تهافت زملائه ومرؤوسيه إلى لقائه طالما سنحت لهم الفرصة. مع أن سيادته خارج السلطة منذ ثلاثين عاماً.... وذلك فى فترات تواجده القليلة فى مصر.... لتحيته وتكريمه والاستزادة من آرائه السديدة .. ولا يتخلف عن تلك اللقاءات حتى من قد يختلفون معه حتى ممن تجهدهم أمراض الشيخوخة.....!

دون إنكار دور أى من رؤساء المساحة الجيولوجية فى حسن تيسير أمور ذلك الجهاز المهم... سواء من تولوا هذه المهمة بعده... أو حتى ممن سبقوه... إلا أن فترة تولى رشدى سعيد القصيرة للجهاز (١٩٦٨- ١٩٧٧) كانت زاخرة بنوع جديد من أصول الإدارة المتطورة تجرى فى أوصالها... لم نعهدها من قبل. فقد استطاع سيادته خلال تلك الفترة أن يدير بحنكة وذكاء شديدين... تبدو فيها آثار صفاته الشخصية واضحة لجهاز يربو عمره على الثمانين عاماً بنفس ميزانيته...وكوادره ... ولوائحه ... وتقاليده الهرمة المتهالكة .. وفى فترة من أحلك الفترات التى عاشها الجهاز وعاشتها مصر كلها... ألا وهى فترة ما بعد هزيمة حرب ١٩٦٧ القاسية على النفس والمدمرة لأصول المساحة التعدينية فى سيناء الحبيبة وتعطل الاف العاملين فى قطاع التعدين. إن الإنجازات الإدارية والفنية التى تمت فى عهده... وفى الظروف التى أشرنا إليها.. كانت كالمعجزة حيث استندت هذه الإنجازات إلى شخصية إدارية متميزة... نجحت بمهارة فى التقاط العناصر الأمينة عالية الإنتاجية دون تمييز ودعمها بقوة لتزيد من إنتاجيتها سواء كان هذا العنصر فنيًا كبيراً مخضرماً أو حتى صانعًا صغيرا مبتدئًا.. كما أرسى رشدى سعيد مجموعة من الإضافات والتى لازلنا ننعم بأفضالها إلى يومنا هذا ومستمرة لأجيال قادمة لو قدر للقائمين عليها أن يدعموها ويطوروها. إن أفضال تلك الإنجازات والإضافات لا تخص فقط العاملين فى المساحة الجيولوجية المصرية.... إنما تخص كل باحث جيولوجى مجتهد فى مصر.

قد لا تبدو هذه الإنجازات لغير المتخصصين ذات أهمية تذكر لكنها فى الواقع بالنسبة للعاملين فى حقل البحث والمساحة الجيولوجية ذات فوائد جمة وعائد عظيم. بجانب إنجازات أخرى تصب فى صلب دعم مسار الجهاز والدولة اقتصادياً وعلمياً.. وهذه لها مجال آخر للحديث عنها.

فيما يلى بعض من تلك الإنجازات:

أولاً: قطاع التوثيق المعلوماتى:-

تم استحداث هذا القطاع ضمن برنامج تطوير جذرى لمكتبة المساحة الجيولوجية فبعد أن كانت عبارة عن حجرتين بسيطتين، واحدة لكل من للمراجع العلمية وأخرى للدوريات أصبحت مكتبة المساحة تتكون من عشرات الحجرات تضم كثيراً من الأفرع المعلوماتية وعلى رأسها التوثيق حيث تم جمع وتصنيف وتبويب وتسجيل جميع الأعمال والأبحاث الجيولوجية فى مصر.. سواء من داخل الجهاز أو خارجه. وعلى جانب آخر تمت فهرسة كل هذه البيانات بحيث يستطيع أى طالب علم. الرجوع لهذا الجهد عن طريق الحاسب الآلى لو أن لديه أبسط المعلومات عن هذا العمل مختصراً بذلك مجهودا ووقتاً هائلين.. ورغم أن هذا القطاع لا يزال موجودا حتى يومنا هذا فإنه ولأسباب مبهمة كبل وحجم دوره الرائع فى خدمة طلاب العلم والمعرفة وذلك تماماً على عكس الهدف الذى من أجله أنشئ..!.

ثانياً: تطوير إمكانيات وقدرات المكتبة:

تم من خلال هذا الجهد انفتاح معلومات مكتبة المساحة الجيولوجية المصرية على العالمية عن طريق الاشتراك فى برنامج للتبادل المعلوماتى للعلوم الجيولوجية مع مكتبات المساحة الجيولوجية. لأول مرة تم فتح باب الاتصال والتبادل المعلوماتى بينها وبين عديد من مراكز البحث العالمية.. من خلال الدخول المباشر إلى مواقع المعلومات المكتبية والتوثيق آليا. وهذا أول تطبيق عهدناه لنظم شبكة الاتصالات العالمية (الإنترنت).

ثالثاً: المؤتمر الجيولوجى الأول:

فى بداية الثمانينيات شهدت قاعات وأروقة المساحة الجيولوجية لأول مرة مؤتمراً جيولوجيا عالمياً على أرض مصر وأنا أذكر أن د. رشدى سعيد أشرف بنفسه على كل كبيرة وصغيرة فى هذا المؤتمر من تدريب وتوجيه طاقم الخدمة المكلف بالاتصال بالجهات الأجنبية والإعلام وتنظيم مراحل المؤتمر ومتابعة ما بعده وذلك نظراً لعدم وجود كفاءات فنية متدربة مخصصة أصلاً لهذا العمل داخل الهيئة وتمت مشاركة علماء من أكثر من سبعين دولة فى تظاهرة علمية يفخر بها كل مصرى.. وتأكد للجميع خلال هذا المؤتمر مدى سعة شهرة أستاذنا الجليل العلمية فى مجال علوم الأرض.... ومدى قوة علاقاته الشخصية بأغلب المشاركين فى أنشطة المؤتمر العلمية من داخل وخارج مصر.

رابعاً: رفع الكفاءات والتدريب:

بجانب بعثات التدريب فى الخارج والداخل دأبت الإدارة الحكيمة على تدريب ودفع الكفاءات المتميزة من المختصين ليتولوا مواقع المسئولية... دون تمييز أو محاباة وتم ذلك من خلال تدبير لقاء سنوى بين جميع رؤساء قطاعات المساحة الجيولوجية فى التخصصات المختلفة وعلى رأسهم أستاذنا الجليل مع صغار الجيولوجيين العاملين بالحقل... يقوم فيها المبتدئون بعرض موجز ومنظم لأعمالهم السنوية.. يتولى الرؤساء مناقشتهم فى كل كبيرة وصغيرة والاستفسار عن أهم النتائج العلمية وتوجيههم إلى الصالح وذلك لاختيار العناصر المتميزة كى يتولوا المسئولية فى مرحلة لاحقة وإن هذه اللقاءات السنوية كانت بمثابة الاختبار الحقيقى والمباشر لكفاءة العاملين فى الحقل.. سواء من ناحية الإنجازات الحقلية أو ناحية جودة وترتيب وعرض المعلومات كما تكسب هذه اللقاءات دعم وقوة وثقة صغار العاملين فى أنفسهم أولاً.

الكتب
وجهات نظر
رسائل وآراء

فيتحولون إلى بحاث منتجين وإداريين من الدرجة الأولى. كما أنها فرصة لتقييم الرؤساء المباشر لهم أمام جميع القيادات دون تمييز أو محاباة.

خامساً: إعادة ترتيب مهام ومسئوليات المساحة الجيولوجية المصرية بما يحقق الفائدة المرجوة منها. المسئولية الأولى هي التخريط الجيولوجي بمقاييس متعددة وتفاصيل مختلفة والمشاركة في الأبحاث الجيولوجية الأكاديمية مع جهات خارجية أجنبية ومصرية، استكشاف وتقييم الخامات المعدنية ذات صفة اقتصادية مهمة. تلك الجهود أفرزت كثيراً من الخامات القيمة مثل التنتالوم - الفوسفات- النيفيلين..... إلخ.

ما سردناه هو نماذج داخل بيت المساحة الجيولوجية لما تم من إنجازات خلال فترة قصيرة.. وكان المأمول أن تستمر تلك الإنجازات وتتقدم وتتطور لكنها للأسف وبعد اختيار أستاذنا الجليل لنفسه لطريق آخر في مجال خدمة علوم الأرض بدأت تلك الإنجازات وغيرها في التباطؤ شيئاً فشيئا... حتى توقف أغلبها تماماً... وتجمد نشاط البقية وذلك في غياب رؤية واعية لأهمية تلك الإنجازات للعاملين في حقل البحث الجيولوجي.

جيولوجي
مصطفى إبراهيم توكل
استشاري تعدين . مصر

قضية الألغام

بالإشارة إلى الحديث المتكرر بخصوص تطهير الألغام بالصحراء الغربية، يهمني أن تكون «وجهات نظر» هي المكان الملائم لإيضاح بعض النقاط المهمة وهي:

مصر دفعت تكاليف تطهير الألغام بالصحراء الغربية.

والمطلوب استرداد ما تم دفعه من الدول الثلاث التي تسببت في غرسها منذ أكثر من ٦٠ سنة وهذه الدول (إيطاليا ـ ألمانيا ـ إنجلترا). والحقيقة التي لم يتم ذكرها أبداً أو معرفتها حتى الآن هي أن شركات البترول التي عملت منذ الخمسينيات بالصحراء الغربية قد قامت بتطهير الألغام في جميع المناطق التي أجرى فيها بحث عن البترول، ثم استردت هذه الشركات ما تم دفعه من تكاليف البحث عن البترول بما فيها تطهير الألغام من هيئة البترول المصرية، وهذا يعني أن هيئة البترول هي التي دفعت تكلفة تطهير الألغام، وعليه:

١ ـ ينبغي تجميع فواتير تكاليف تطهير الألغام التي دفعتها هيئة البترول للشركات الأجنبية البترولية، ثم طلب استرداد هذه التكلفة في الدول الثلاث.

٢ ـ خريطة البحث عن البترول بالصحراء الغربية (الخطوط الغربية) هي نفسها خريطة تطهير الألغام، وطلب تزويد محافظة مطروح بها حتى تتأكد، أن هذه المناطق قد تم تطهيرها، ولا داعي لبيعها بمائة جنيه للفدان على أساس من يشتري الأرض يقوم بتطهيرها أو طرح هذه المناطق للشركات التي تقوم بتطهير الألغام وزراعتها بنظام (T.O.B).

عبدالوهاب يوسف
مدير عام سابق بهيئة البترول

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

ثقوب فى الضمير

أحمد عكاشة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٢٥٠ صفحة



تكاد الشكوى من سوء الأحوال وانتشار الفوضى وغياب الإحساس العام أن تكون عامة. الجميع يشكو ويلقى باللوم على الآخرين باعتبارهم سبباً فى معاناته، دون أن نتوقف لحظة لنتساءل عن نصيبنا فيما آلت إليه أحوالنا.

يدور الكتاب حول هذه الفكرة، وإن كان يضم دراسات ومقالات تبدو بعيدة نظرياً عن فكرته الجوهرية، منها ذلك القسم الذى يتناول فيه المؤلف المرض العقلى من العصر الفرعونى وحتى الإسلام، والعلاقة بين الجنسين. والقسم الخاص لهذه الدراسات تشير إلى خيوط ممتدة تربطها بفكرته الأساسية، فهى إما شارحة لها، أو مفسرة لبعض خباياها أو مصححة لكثير من المفاهيم حولها.

يسلم المؤلف وهو عالم نفس وظيفته مراقبة السلوك الإنسانى فى تجلياته الفردية والجماعية، بغياب الضمير العام، بسبب تعقد الحياة، إذ لم تعد هى حياتنا البسيطة التى كانت تحكمها أعراف تنطوى على قيم التواد والتراحم واحترام إنسانية الآخرين، وحل بدلاً منها منطق الأنانية وشعار أنا ومن بعدى الطوفان.

يؤكد المؤلف على غياب القدوة، فالناس تسمع كثيراً عن انحرافات ورشاوى وسرقات ونهب للمال العام فى أوساط كان يفترض فيها الاتسام بالنزاهة، كما يلاحظ الناس أن العقاب لا يطال سوى بسطاء الناس، ولا تنفذ سهام العدالة إلا فى أجسامهم، أما هؤلاء أصحاب السرقات الكبيرة والاختلاسات العظمى، فإنهم دوماً بعيدون عن مرمى القانون ويد العدالة، وحتى فيما يتعلق بالخدمات العامة التى تقدم للمواطن، والتى يدفع مقابلها فى صورة اشتراكات أو ضرائب، فإنها شديدة السوء وينظمها عقد إذعان يجعل المواطن فى الموقع الأضعف، يقبل الخدمة مهما كان مستواها وأياً كانت عيوبها.

وهكذا - يقول المؤلف - تتنوع الخبرات المرة للمواطن المصرى، إلى الحد الذى يجعله غير عابئ بشىء فى هذا الوطن، بدءاً بحقه الانتخابى وانتهاء بحرصه على عدم الإسراف فى الاستهلاك من المياه، إذ توافرت فى صنابير منزله أصلاً، فإذا حدث أحد هذا المواطن عن أمر من الأمور العامة بادر محدثه على الفور: يا عم يعملوا اللى يعملوه البلد بلدهم، أما من هم الذين البلد بلدهم، فعليك أن تخمن.

يشير المؤلف كذلك إلى غياب الهدف العام الذى يسعى الناس من أجله، ولهاث كل منا نحو تحقيق أهدافه الخاصة، وتحقيق مصالحه الذاتية جداً حتى لو تضاربت، وهى تتضارب كثيراً، مع المصلحة العامة، وتغيب معانى العيب، ويتسع الضمير الاجتماعى لتقديم مبررات لكثير من السلوكيات الشاذة.

يقظة الضمير الاجتماعى لن تتحقق إلا بالتصدى لكل هذه الخروقات، كى يستعيد المجتمع صحته النفسية.

■

الاقتصاد عاريًا

تشارلز ويلان

ترجمة: زينب حسن البشارى

القاهرة: دار كلمات عربية، ٢٠٠٨، ٣١٠ صفحات



على الرغم من أن هذا كتاب فى الاقتصاد، إلا أنه لا يحتوى على معادلات أو مصطلحات متخصصة يتعذر فهمها، وهذا ما هدف إليه المؤلف بالفعل، أن يكون كتابه فى الاقتصاد مفهوماً وبسيطاً، ويعلم الكثيرون أن علم الاقتصاد أكثر صعوبة من العلوم الطبيعية، ففى الوقت الذى يمكن فيه إخضاع الظواهر الطبيعية للتجارب المعملية المحكمة، فإن هذا الأمر غير ممكن فى حالة الظواهر الاقتصادية، وأما فهم الاقتصاد فمسألة مهمة، إذ بات الاقتصاد أكبر تأثيراً فى حياتنا من أى وقت مضى، وهو يتقاطع حتى مع سلوكيات الأفراد وتفضيلاتهم، الأمر الذى شجع على مزيد من دراسات الاقتصاد السلوكى، أى الذى يعنى سلوك الأفراد، ولعلنا نتذكر شعار حملة بيل كلينتون الانتخابية عام ١٩٩٢ «الاقتصاد هو المهم أيها الغبى».

ويعرض هذا الكتاب المفاهيم الاقتصادية بطريقة مبسطة ليسهل على القارئ فهمها، فهو يتطرق إلى فوائد السوق الحرة التى تجعل حياة الناس أفضل، ولماذا تخفق الأنظمة الاقتصادية المركزية فى رفع مستوى معيشة المواطنين، كما يعرض للبنية القانونية التى تعطى الفرصة لوجود الأسواق وتوفير السلع العامة ودور الحكومة فى توفير هذه البنية، ودورها كذلك فى تصحيح الأوضاع عندما تتسبب السوق الحرة فى تأثيرات غير مرغوب فيها تؤثر سلباً على أوضاع الناس.

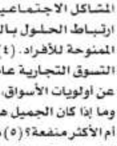
من الواضح طبعاً أن المؤلف من المتحيزين بقوة لفكرة السوق الحرة، على الرغم من الانتقادات التى يوجهها لهذا النظام الاقتصادى فى عدة مجالات، خصوصاً فى جانبه التطبيقى والعملى، وهو فى النهاية يطرح تساؤلات سبعة، يرى فى الإجابة عليها شكل الحياة على كوكب الأرض عام ٢٠٥٠: (١) كم دقيقة يستلزم العمل لتوفير رغيف الخبز؟، وهو هنا يسأل عن الإنتاجية وجدية العمل. (٢) كم سيبلغ عدد النائمين تحت كوبرى واكر دريف فى شيكاغو؟، وهذا سؤال عن تقسيم الكعكة، أى تقسيم عوائد التنمية. (٣) هل سنستخدم السوق بطرق خيالية لحل المشاكل الاجتماعية؟ هذا سؤال عن ارتباط الحلول بالدوافع والحوافز الممنوحة للأفراد. (٤) هل ستوجد مراكز التسوق التجارية عام ٢٠٥٠؟، هذا سؤال عن أولويات الأسواق، وعن التفضيلات، وما إذا كان الجميل هو الأفضل لحياتنا، أم الأكثر منفعة؟ (٥) هل ستظل الحكومة الفيدرالية تحدد كمية اللحم على البيتزا المجمدة؟، وهذا كناية عن تأثيرات عولمة السوق فى أمريكا وخارجها. (٦) هل توصلنا حقاً للسياسة النقدية المناسبة التى تشجع على العمل ودفع الضرائب وتقضى على الركود؟ (٧) هل ستصبح النمور الأفريقية بعد خمسين عاماً شاهداً على حياة البرارى أم قصص نجاح التنمية؟، وهو سؤال عن فرص استفادة الاقتصادات النامية من العولمة وآلياتها.

■

كلمـــات

يوسف زيدان

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٨، ١٥٠ صفحة



تجرى على ألسنة الناس كلمات، معظمها عامى وبعضها فصيح، يستعملونها دون أن يدروا ما تخفيه الكلمات من معنى عميق، بفعل الامتداد الطويل لتاريخنا الثقافى.

ويضم هذا الكتاب عشرات الكلمات، سعى المؤلف إلى بيان معناها ودلالاتها فى حياتنا المعاشة وفى تاريخنا الثقافى، لنكتشف أن كثيراً من الكلمات التى نطلقها تحمل فى حقيقتها معنى مضاداً لما نقصده بالضبط.

كلمة «قهوة» مثلاً تعنى فى كلامنا المعاصر أمرين، إما مشروب القهوة المحبب لدى قطاعات واسعة من الناس، أو المكان الذى يتم فيه احتساء هذا المشروب، فلما تطورت الأمور وصارت «القهوة» تقدم مشروبات أخرى، تحولت إلى كافيتريا ثم إلى كافيه، أما القهوة فقد عشقها المتصوفة لأنها تساعدهم على السهر والعبادة، وقد استخدمت القهوة فى نصوص عربية قديمة شعرية ونثرية بمعنى الخمر، وقد لاحظ المؤلف أثناء بحثه عن معنى القهوة فى الجذر «قها»، أن قها تعنى انسدت نفسه عن الأكل، ومن عجب، أن هذا الاسم أطلق على واحدة من شركات الأغذية والمشروبات الشهيرة فى مصر.

نحن نستخدم أيضاً كلمة «زوفا» للدلالة على الكثرة، فنقول جاءوا بالزوفة، أما كتب الصيدلة القديمة ومنها موسوعة ابن النفيس «الشامل فى الصناعة الطبية»، فقد أورده باعتبارها أسماً من أسماء الدواء، وهى نوع من الحشائش تنفرش أعضاؤها على الأرض، ولصعوبة تقدير كمية حشائش الزوفا، فقد صار التعامل معها بالجملة، أى بالزوفا.

وفى الصعيد يستخدم الناس كلمة «سخمط» تدليلاً على فعل جنسى بشع، اغتصاب بالقوة، أما المؤلف فيعود بالتسمية إلى الأصل الفرعونى القديم للكلمة «سخمت»، وهو اسم «لبؤة» اتخذت هيئتها الإلهة حتحور لتنفيذ مشيئة أمون بتأديب أناس أساءوا العمل، فأوسعتهم قتلاً وترويعاً، وارتاع أمون مما فعلت وأمرها بالتوقف فلم تستجب وإن كانت ندمت فيما بعد على ما فعلته من سخمطة.

ويستخدم العامة كلمة «بس» للدلالة على التوقف، والكلمة فصيحة ذات أصل فارسى، ومعناها: حسب، أى كفى، وهى تعنى عند ابن منظور أيضاً الطرد والتنحية، أما كلمة «كفاية» التى اتخذت منها حركة احتجاج اجتماعية وسياسية مصرية حديثة مسمى لها، فإنها لا تعنى معنى سلبياً، بل هى تعنى توقف الأمر الإيجابى، فيقال: وفى هذا القدر كفاية، أو هؤلاء كفاية لعمل ما، أو أن هذا الأمر الشرعى فرض كفاية، بمعنى أن قيام البعض به يغنى بقية الناس عن فعله.

وتردد كثيراً هذا التعبير: على رأسه ريشة، للدلالة على أن شخصاً ما تم تمييزه لسبب ما، أما الأصل فيعود إلى إلهة العدل عند المصريين القدماء «ماعت» وهى ذات مكانة خاصة فى العقيدة المصرية القديمة، وكانت ترسم على شكل امرأة مجنحة على رأسها ريشة، وهى الريشة التى توزن بها أعمال الناس يوم البعث، فتوضع الأعمال فى كفة، والريشة فى

الكفة الأخرى، فإن رجحت أعمال الشخص دخل إلى عالم النعيم وصار على رأسه ريشة.

بهذا المنهج يعرض المؤلف لعشرات الكلمات.

■

حب على الهوا

انتصار العقيل

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٨ ، ١٩١ صفحة



يشجيك صوت فيروز مع بداية كل فصل من هذه اللوحات المتصلة، تسميها صاحبتها رواية، ربما لأن الرواية جنس فضفاض أكثر من غيرها من الأجناس الأدبية، يستوعب طاقات التجريب فى الشكل وفى المحتوى، وربما كانت هذه أبرز ميزاتها وأظهر عيوبها فى آن معاً. مع بداية كل فصل مقطع من أغنية للمطربة الكبيرة، وبداخل الفصل - أحياناً - مقاطع أخرى، فكأنها تهيمن على النص وتفرض سطوتها عليه، إلا أن أكثر ما يلفت النظر هى هذه الجرأة غير المعتادة لكتابة سعودية، فهى تتكلم فى الحب والعاطفة بقاموس شديد الوضوح والجرأة.

تقدم اللوحات ذكريات امرأة عاشقة، عاشت حياة لو خُيّرت ما اختارتها.. «فى عالمنا النسائى، فى هذا الحرملك الذى نحيا فيه ونحن فى القرن الحادى والعشرين، نحن المالكات المملوكات، نعم المالكات لكل شىء، اللواتى - فى الحقيقة - لا يملكن شيئاً لأنهن لا يملكن أنفسهن اللاتى تملك الأشياء».

كان انفصال أبيها عن أمها هو أول غدر للرجل لها، وأول ضربة تلقتها من الحياة قبل أن ترى نور الحياة.. «لقد خرجت إلى هذا العالم من رحم حزين، والأحزان فى مخاضها لا تلد سوى الأحزان».

وبالفعل توالت عليها الأحزان، زواج ابن عمها الذى أحبته من فتاة أخرى، إجبارها على الزواج من زوج شقيقتها المتوفاة لأنها ستكون الأحرص على أبناء أختها.

وتساءلت: هل تريد أمها أن تكمل دورها فى الشقاء والعبودية، كى لا تتحسر يوماً عن حياتها التى ضاعت هدراً وهى تقارنها بحياة ابنتها الثائرة المتمردة الناجحة؟ ويوم زُفت إليه شعرت أنها تساق إلى قبرها، زواج استمر سنوات، أدركت خلالها أن عذرية المرأة ليست فى جسدها الذى قد يُحكم عليه ويغتصب بشهادة شاهدين ومأذون وحبر وورق.. «إنما عذرية المرأة فى قلبها وروحها وفكرها، إن لم يلمسها الرجل فالمرأة مازالت بكراً».

وسيقدر لهذه المرأة أن تحب، لكن من تحب، سيكون مسجوناً بالآخرين محاصراً بأفكارهم، لا يستطيع اقتحامهم برغم أنها فتحت أشرعتها لاستقباله وكان حلمها الدائم فى المنام واليقظة.. «أن تنام على عشب صدره».

ويتتابع الوصف الجرىء - الموشى بترانيم أخلاقية - فى اللوحات التى تصف لقاء الحبيبين، لكن الحكاية تنتهى بالفراق بعد أن أدركت العاشقة عدم قدرة الحبيب على الفكاك من تقاليد وأعراف كبلته بأساور من حديد.

وفى ثنايا الكلام عن الحب والأحبة، تطرح المؤلفة على لسان بطلتها بعضاً من الآراء شديدة الجرأة، نقرأ مثلاً: أمم العالم الثالث تعودت أن يلغى أفرادها ذواتهم كى لا يوصموا بالغرور والتكبر، وهى بهذا الإنكار حولتهم إلى دراويش يعلفون أيامهم فى خمول وتبلد، لا كفاح ولا نجاح، أمم شعوبها علفيون، يجلسون على ثرواتهم ولكنهم لا يملكونها، من يمتلكها هو من نقب عن هذه الثروات واستخدمها ومن ثم اتباعها مقابل السلاح لتتقاتل به هذه الأمم بعضها البعض ونقرأ:

الحجاب فرض واجب، لكن لابد أن يبدأ من الداخل إلى الخارج وليس العكس، ونقرأ أيضاً: شعرت أن تعصبها الأعمى للعروبة الذى يصل إلى حد الغباء يكاد يخنقها، شعرت بأنها عربية منفية من منفى العروبة.

■

تعليم الإناث فى الدول العربية

رفيقة سليم حمود

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ٤٦٤ صفحة



ليس صحيحاً أن النظرة الدونية للمرأة واعتبارها كائناً أقل درجة ذات مرجعية دينية، إسلامية على وجه الخصوص، فقد كرّم المرأة، ومنحها حقوقاً لم تحظ بها في ديانات سماوية وعقائد غير سماوية سابقة عليه، لكن المؤكد أن هذه النظرة ابتدعتها المجتمعات العربية ذات الطبيعة الذكورية التى عمدت دائماً إلى تهميش دور المرأة وتكريس النظرة إليها على هذا النحو، وهو أمر تعكسه حتى الأمثال الشعبية المتداولة فى كل قطر عربى، وفى الاحتفالات التى تقيمها الأسر إعلاناً عن سعادتها بإنجاب الولد، والشعور بالحزن الذى ينتابها إذا كانت المولودة أنثى.

وبرغم تطورات عديدة ومهمة لحقت بالمجتمعات العربية فى مجال تعليم الإناث وتشجيعهم على العمل فإن بقايا جاهلية مازالت تحكم خروج الفتاة إلى العمل أو انغماسها فى التعليم، وتلاحظ الباحثة مثلاً أن الطفلة لا تتلقى رعاية صحية وغذائية مشابهة لتلك التى يتلقاها الصبى، الذى تؤثره الأم باللحم والطعام الفاخر، فيما تحصل الفتاة على ما يتبقى منه، يحدث هذا فى مناطق عديدة من السودان واليمن وتونس والأردن والجزائر ومصر، وفى الريف العربى فإن رغبة النساء فى تعليم الفتاة، حيث يعتقد الناس فى الريف أن تعليم الفتاة سيجلب لهم العار، وسيفتحهن على أمور ما كان ينبغى لهن أن يعرفنها.

وحتى لو تعلمت الفتاة، فإن نوعية التعليم الذى يتم توجيهها إليه مختلفة، فالطب والهندسة وعلوم الحاسب الآلى مخصصة للكائنات الأذكى - الذكور طبعاً - أما الفتاة فلها العلوم الإنسانية ودراسة اللغات وغيرها.

وتلاحظ المؤلفة أن الكتب المخصصة للذكور فى مراحل تعليمية معينة مختلفة عن تلك المخصصة للإناث فى بلد مثل السعودية، فى الجغرافيا والتاريخ والاجتماع، إذ تتسم كتب الإناث ببساطة ومباشرة حكائية، فيما تركز كتب الأولاد على طرق التفكير ومنهجية البحث، وفى لبنان مثلاً، فإن الصور التى يتم تقديمها للأب فى كتب المطالعة للمرحلة الابتدائية هى لرجل يقرأ أو يكتب أو يمارس عملاً ما، وهو إما طبيب أو مهندس أو قاض أو صانع ماهر، أما الأم فهى دائماً مشغولة بالتطريز والطبخ.

وتشير المؤلفة إلى دراسة أجريت فى مصر على ٦٠ سيدة حول تصوراتهن عن أدوار المرأة، رأين فيها أنهن أقل من الرجال، برغم أن العينة احتوت على سيدات عاملات وربات بيوت.

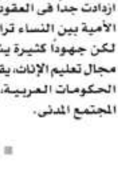
المؤلفة تورد جداول ودراسات عديدة تؤكد على أن الأمور، فيما يتعلق بنسب من التحقن بالتعليم الجامعى وما قبله ازدادت جداً فى العقود الأخيرة، وأن نسب الأمية بين النساء تراجعت بشكل عام، لكن جهوداً كثيرة ينبغى أن تبذل فى مجال تعليم الإناث، يقع أغلبها على عاتق الحكومات العربية، وأيضاً مؤسسات المجتمع المدنى.

■

مع الإخوان

حسين أشرف

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٨ ، ٢٥٥ صفحة



الافتراض الأساسى الذى يطرحه المؤلف، وهو من قيادات الحركة الطلابية المصرية، فى السبعينيات ومن مؤسسى نادى الفكر الاشتراكى بالجامعة، هو أن الإخوان المسلمين جزء من مشاكل مصر اليوم، وهم أيضاً جزء من الحل فيما لو تغيرت قناعاتهم، بهذه الفرضية يدخل المؤلف حواراً مع قناعات الجماعة، ليس بهدف تغيير هذه القناعات ذات الطبيعة الإطلاقية بحسب قوله، وإنما بهدف تحسين قطاعات كبيرة من الشباب قبل أن يجرفها تيار الإخوان «الذى يهدر الطاقات الوطنية ويبدد مخزون الوحدة الوطنية ويريد العودة بنا إلى القرون الوسطى خدمة لطبقة قيادية تتمتع بأبهى منتجات ورفاهية العولمة».

ويحدد المؤلف محاور عديدة يرى أنها وحدها يمكن أن تؤدى إلى نجاح الحوار مع الإخوان، أولها أن يكون الحوار ديمقراطياً، أى أن تتوفر مساحة مقبولة ومتساوية للمشاركين فى الحوار أن يعبروا عن رؤاهم بحرية ودون مصادرة مسبقة، ثانياً: أن يقوم الحوار على أرضية مدنية خالصة، أى إخراج المقدس من حلبة النقاش، لا يجوز ثالثاً للقوى المتحاورة أن تضع نفسها فى موقف الدفاع عن إيمانها أو تدينها، رابعاً: أن يكشف الحوار عن مدى التناقض بين الاتجاه العام للتطور التاريخى فى العالم والمجتمع والفكر الإنسانى، ومن يحاولون إعادة عقارب الساعة إلى الوراء بدعوى القفز إلى ماض صالح، خامساً: أن يكون الحوار جماهيرياً، أى أن تعقد مناقشات ومناظرات مفتوحة حول قضايا تمس سياسات محددة ويشترك فيها مفكرو كافة التيارات، أن يبرز الحوار المصالح السياسية والطبقية الضيقة للقيادات التى تتزعم تلك الجماعات، أن يكشف الحوار التحالفات الداخلية والخارجية التى تقيمها تيارات الإسلام السياسى، وإبراز التناقضات داخل هذه التيارات نفسها.

وكما نرى فإن ما يقترحه المؤلف ليس مرتكزات لحوار يمكن أن تحتكم إليه الأطراف المتصارعة، وإنما هو استراتيجية يقترحها لفصيل يمثله ليكسب بها جولة أو جولات فى الحوار.

يطرح المؤلف محاور عدة يمكن اعتبارها نقاط خلاف مع «هذا التيار الزئبقى الخطير»، كما يسميه وهى أن يكون الاحتكام إلى الآليات الديمقراطية صادقاً فى داخل الجماعة كما فى تعاملها مع التيارات الأخرى، ويناقش المؤلف أيضاً: الخلافة، الشرعية، القطبية، الأسلمة، البرلمان، أمريكا.

بعد ذلك يقدم المؤلف نقداً تطبيقياً لبرنامج الإخوان المقترح، خصوصاً ما يتعلق فيه بالثلاثى المضطهد بحسب قوله: الأقباط والمرأة والثقافة، المهم أن ما قدمه المؤلف من اجتهاد فى كتابه يكشف عن «استحالة» إقامة حوار مع الإخوان إلا إذا تخلوا عن مبادئ أساسية شكلتها فى صيغتها الحالية، بما يعنى أن قبول «الجماعة» تخليها عن تلك المبادئ،

سيحيلها إلى كيان مغاير تماماً. فهل تقبل الجماعة أن يجرى الحوار، حتى لو كان له ضفاف، على هذا النحو؟

■

أعاصير الشرق الأوسط

حامد عمار

القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٨، ٢٠٧ صفحات



يربط الكتاب بين الأحداث السياسية والمعارك الحربية من ناحية، وقضايا الإصلاح والتربية من ناحية ثانية، وهو يقع فى قسمين، يضم القسم الأول ستة عشر مقالاً جميعها تحت عنوان: «بين الهيمنة الإمبراطورية والعدوان الصهيونى»، ويتناول فيه المؤلف المواجهة مع الغرب، وحرب التجويع والإبادة فى غزة، وحرب لبنان وحروب العراق، فى محاولة لتفسير الأسباب الجوهرية الكامنة خلف هذه الحروب ودوافعها.

أما القسم الثانى فوثيق الصلة بتخصيص المؤلف الدقيق كخبير تربوى وتعليمى، وجاء تحت عنوان: تجارة التعليم وتفكك المجتمع.

وهو يوجه خطاباً إلى الرئيس بوش فى الفصل الأخير من القسم الأول مخاطباً إياه بفخامة الإمبراطور، قائلاً له: لن يرحمك التاريخ ولا دعاوى محاربة الإرهاب الذى تتخذه ذريعة، تنادى بها من أجل الأمن القومى الأمريكى، ويسائله عن الهدف الصهيونى من كل هذا القتل والتدمير فى لبنان وفلسطين، مؤكداً له أن جرائم لبنان محسوبة فى رصيده الأسود للولاية الثانية، ويفند مزاعمه حول محاربة الإرهاب بقوله: لا ينبغى لإمبراطور أعظم قوة فى عالم اليوم أن يأخذ الإسلام بجريرة حفنة من البائسين وممن تدربوا فى معارككم ضد السوفييت، ليس هناك إسلام فاشى وإسلام غير فاشى، هناك إسلام واحد حنيف، ويسائله: هل الإسلام هو الفاشى أم أن الصهيونية بمساعدتكم وتأييدكم هى عين الفاشية وصورتها المتجسدة.

وتحت عنوان دور التعليم فى تفكيك الوطن، يرصد شيخ التربويين توجهات التعليم فى مصر المعاصرة والذى تغيب عنه هذه المؤشرات: من يتعلم وإلى أى مدى وماذا يتعلم؟

ويشير إلى أن التعليم ليس موضوعاً علمياً وفنياً محايداً، لكنه نسق لعمليات سياسية، كما أن السياسة نسق لعمليات تربوية، ويتوقع أن تؤدى مجرياته الحالية فى الأفق الزمنى المتوسط، أما بين ٥ و ٧ سنوات إلى بدايات تفكك وطنى مدمر، وإضعاف العروة الوثقى فى التلاحم بين مختلف الشرائح الاجتماعية، خصوصاً مع زحف رأس المال إلى قطاع التعليم وتخفيف أعبائه عن الدولة، ويتزامن هذا مع مشروعات أمريكية لتطوير التعليم هدفها الوحيد هو إحكام قبضة أمريكا من خلال التربية والتعليم على منطقة الشرق الأوسط، وتشير إلى خطورة المعونات والقروض الأجنبية وتأثيرها بالغ الضرر على جهود تطوير التعليم، وينتقد المؤلف بشدة التوسع فى إنشاء المدارس الخاصة والجامعات الخاصة، ويرى فى شيوع هذا القدر من الاختلاف والتباين بين هذه النوعية من المدارس والجامعات من ناحية، ومدارس وجامعات الحكومة من ناحية ثانية، تأثيرات ضارة على مفاهيم الهوية والانتماء والمواطنة.

■

المسألة المصرية فى أوراق الصدر الأعظم

ترجمة: محمد عبداللطيف هريدى

القاهرة: دار العين، ٢٠٠٨، ١٤٥ صفحة



كتب هذه المذكرات الصدر الأعظم محمد كامل باشا (١٨٣٢-١٩١٢)، وهو أحد الصدور العظام فى عهد السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى، وقد عاصر تطورات المسألة المصرية واحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢، والمفاوضات التى جرت بين الدولة العثمانية وبريطانيا لإجلاء الجنود البريطانيين عن مصر.

والكتاب فى قسمين: يتناول كامل باشا فى القسم الأول الأحداث التى عاصرها بما فيها المسألة المصرية وتطورها مع الأزمة المالية حتى نهاية المفاوضات مع الإنجليز، وهو لا يكتفى بالسرد، بل يقدم وجهة نظره ويحذر من عواقب الأزمة المالية التى كانت الدولة العثمانية تعانى منه، وفى القسم الثانى: يقدم الوثائق والمستندات التى تدعم وجهة نظره.

يشير الصدر الأعظم إلى أن ظواهر الضعف بدت واضحة على الدولة العثمانية فى السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر لأسباب مختلفة: ثورات داخلية، تخلف الأساليب الإدارية والعسكرية، تصاعد الحركة الاستعمارية الأوروبية، تصاعد المد القومى الذى تأثر بمبادئ الثورة الفرنسية، وهكذا تحولت الإمبراطورية العثمانية إلى رجل أوروبا المريض واشتد التنافس بين دول أوروبا وإمبراطورياتها لاقتسام تركة هذا الرجل المريض، وكانت مصر فى موقع الصدارة بين هذه التركة، إذ اعتمدت عليها الدولة العثمانية فى توفير كافة احتياجات إقليم الحجاز بدءاً من كسوة الكعبة وانتهاء بمرتبات العاملين بالحرمين الشريفين، إلا أن مصر أصابها ما أصاب الولايات العثمانية جميعاً من ضعف وترهل، فقد كانت تدار بالطريقة ذاتها من خلال نخب عسكرية وقوى محلية متصارعة، وتحولت مصر إلى ميدان للصراع بين السلطة المركزية فى استانبول والزعامات المملوكية فى مصر، ووصل الأمر إلى تمرد عامة الشعب طمعاً فى شىء من السلطة، مثل تمرد الهوارة فى الصعيد.

التحليل الذى يقدمه المؤلف يتفق فى كثير من جوانبه مع ما ذهبت إليه مذكرات مهمة أخرى يوردها المترجم، ويقارن بينها وبين ما انتهى إليه الصدر الأعظم، وهذه ميزة إضافية للمذكرات.

■

أثر المنهج الأصولى فى ترشيد العمل الإسلامى

مسفر بن على القحطانى

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨، ١٣٤ صفحة



أنزل القرآن الكريم تبياناً لكل شىء، وأوحى إلى الرسول (ص) أن يبين للناس ما نُزّل إليهم لعلهم يتفكرون، فكانت مجموعة من النصوص تتمثل فيها شريعة كاملة تجتمع فيها أحكام شئون الناس.

ولكن هذه النصوص على كثرتها لم تبين أحكام ما يحدث فى مستقبل الأيام تفصيلاً، فكان لابد من شىء آخر غير النصوص يفصل ما أجملته، ويستنبط الحكم.. فكان الاجتهاد.

ولأن العقول متفاوتة، والمدارك متباينة، والأفهام مختلفة، فلو ترك الباب مفتوحاً لكل راغب فى أخذ الأحكام من النصوص، لحصل الاختلاط، ولوقع التضارب فى الأحكام، ولاضطرب أمر الشريعة، فكان من الضرورى وضع قواعد يسير عليها من أراد أن يستنبط الأحكام الشرعية من أدلتها، ولذلك وضع القائمون على الشريعة قواعد تضبط هذا العمل، هى «أصول الفقه».

يتألف الكتاب من مقدمة وستة فصول، ويحاول الباحث أن يقدم مساهمة فى تكييف بعض القضايا الدعوية من خلال التأصيل الشرعى لها، وتدعيماً لذلك بالنماذج والأمثلة الدعوية.

■

كتاب الحكمة العربية

دليل التراث العربى إلى العالمية

محمد الشيخ

الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨



لئن بقيت بعض أمم العالم المتحضر اليوم تحترم العرب، فما كان ذلك - مع الأسف - بسبب من حاضرهم، وإنما لماضيهم - وحسبها من مفارقة! ولو وفيت الحكمة العربية حقها من الاهتمام والعناية لكانت فى مصاف حكم بقية الأمم، وذلك لأن الواقف ينظره عليها - بأحق وقوف وأعقله وأيقنه - يلفى أنها ما كانت دون حكم الشعوب الماضية فى المرتبة جودة وصحة معنى ومتانة لفظ وقوة بيان. أضف إلى هذا، إن بعض تجارب العرب الماضية شهدت على أريحية حضارتهم وعلى تسامحهم. إلا أن مشكلة العرب الثقافية اليوم أنهم ما استطاعوا أن يثمروا هذا التراث العظيم الذى امتلكوه وما تملكوه - فبالأحرى أن يجعلوا منه تراث العالمين. وإن لمن مقتضيات العولمة اليوم ما بمكنة العرب أن يقدموا عليه «فيعولموا» تراثهم بحيث يصير ملكاً للناس أجمعين، وذلك مثلما كان هو ملكاً لكل الأمم فيما مضى من العصور، ومثلما صار تراث الغرب اليوم ملكاً لنا. انظر كيف صار «يتعولم» تراث ابن رشد والتراث الأندلسى بوجه عام! ولن يخالف جوابى لصديقى العربى هنا ما قاله الجاحظ قديماً ونسيناه حديثاً: «والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد».

■

مفاهيم الليبرتارية وروادها

مجموعة من المؤلفين

واشنطن، بيروت: دار رياض الريس للنشر - مؤسسة مصباح الحرية، ٢٠٠٨



تتضمن سلسلة «مفاهيم الليبرتارية وروادها»، والتى تمت ترجمتها من قبل صلاح عبدالحق ومراجعة وتدقيق فادى حدادين رئيس تحرير «مصباح الحرية»، والمحلل الاقتصادى فى معهد كيتو بواشنطن من سبعة أجزاء وتتناول نصوصاً لكبار واضعى أسس الفلسفة الليبرتارية ومشتقاتها السياسية

والاقتصادية والاجتماعية. وترتكز هذه الأسس على الحرية، ومقاومة مركزية السلطة، والفردية، والحقوق الأساسية، والتبادل الحر، والأسواق المفتوحة، والسعى نحو السلام.

الجزء الأول بعنوان «التشكيك فى السلطة» ومن موضوعاته: «أصل الحكومة وهدفها» ـ توماس باين. «أى نوع من الاستبداد ينبغى أن تخشى منه الشعوب؟» ـ جيمس ماديسون. «الديمقراطية» ـ أليكس دو توكوفيل. «اعتراضات على التدخل الحكومى» ـ جون ستيوارت ميل. «الدولة» ـ موراى روثبارد. «المصلحة الذاتية والدستور» ـ ريتشارد ابيستين.

الجزء الثانى بعنوان «الفردية والمجتمع المدنى» وفيه: «لا يمكن فرض الفهم» ـ جون لوك. «العدل والإحسان» ـ آدم سميث. «إخضاع الفساد» ـ مارى ولستونكرافت. «المرأة كائن أخلاقى مدرك» ـ سارة غرامكيه. وأبحاث عن الفردية لجون ستيوارت ميل. و«المساواة وعدم المساواة» ـ لودفيغ فون ميرس.

الجزء الثالث بعنوان «الحقوق الفردية» وفيه أبحاث عن «الملكية والحكومة» ـ جون لوك. «العدل والملكية» ـ ديفيد هيوم. «نظرية العدالة فى الحقوق» ـ روبرت نوزيك.

الجزء الرابع بعنوان «النظام التلقائى» ويحتوى أبحاثا عن «التوافق» ـ لاو تسو. «رجل النظام» ـ آدم سميث. «المجتمع والحضارة» ـ توماس باين. «الأنظمة المصنوعة والأنظمة التلقائية» ـ فريدريك إيه. هايك.

الجزء الخامس بعنوان «الأسواق الحرة» وفيه مقالات عن «تقسيم العمل» و«المجتمع والمصلحة الذاتية» و«التجارة الحرة» لأدم سميث. و«الاشتراكية والتدخل» ـ لودفيغ فون ميزس. و«العلاقة بين الحرية الاقتصادية والحرية السياسية» ـ ميلتون فريدمان. و«نظام السوق» ـ فريدريك إيه. هايك.

الجزء السادس بعنوان «السلام والتوافق الدولى» ومن موضوعاته «التجارة هى العلاج الناجع» ـ ريتشارد كوبدين. «السلام» ـ لودفيغ فون ميزس. «نحو استقلال استراتيجى» ـ إيرل سى. رافينال.

الجزء السابع بعنوان «مستقبل الليبرتارية» وفيه عن: «الرأسمالية والمجتمع المتساهل» ـ صمويل بريتان. «نقاط القوة ونقاط الضعف فى الفكر الليبرتارى» ـ ريتشارد كورنيى. «ثقافة الحرية» ـ ماريو فارغاس يوسا. «الدمار الخلاق وعصر الابتكار» ـ بيتر كيه. بيتش. «أدب الحرية» ـ توم جى. بالمر.

هذه المجموعة تضع أمام القارئ العربى العادى والمتخصص المعنى بالاقتصاد أو السياسة، مبادئ الفكر الإنسانى الهادف إلى «الحرية»، حرية الفرد وحرية المواطن وحرية المجتمع، وتعرفه بواضعيها من فلاسفة الغرب المعروفين بـ «رواد الليبرتارية».

يقول الناشر فى مقدمته: «لابد للقارئ العربى أن يلم بكل هذا التراث الليبرتارى، فينتقى منه ما يريد ويعيد تقييم نظرياته فى السياسة والاقتصاد والمجتمع. وإذا كنا اليوم نطرح فى هذه الكتب السبعة مجمل الأفكار الليبرتارية لكبار فلاسفتها ومنظريها، نأمل أن آفاقاً جديدة فى النقاش فى الندوات والمجتمعات والمنابر، ستفتح الباب أمام إعادة النظر فى مواقعنا الفكرية ومواقفنا السياسية. ووسط هذا كله لابد من وقفة أمام التخبط الذى نعيشه على مختلف الأصعدة والمستويات».

■

جوزف حرب وأمطار الوردة السوداء ـ دراسة نقدية

محيى الدين صبحى
رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨، ٣٤٤ صفحة من القطع الوسط



كان هذا الكتاب من أواخر الكتب التى وضعها محيى الدين صبحى فى النقد الأدبى قبل رحيله، وفيه دراسة نقدية لأربعة دواوين أصدرها الشاعر جوزف حرب ما قبل ١٩٩٦ وهى: «شجرة الأكاسيا»، «الخصر والمزمار»، «مقص الحبر» (فى المحكية)، و«مملكة الخبز والورد».

يتألف الكتاب من مقدمة وخمسة فصول. الفصل الأول بعنوان: «تحولات مملكة الخبز والورد» ومن عناوينه (الشعر والتاريخ، شجرة الأكاسيا، مملكة الخبز والورد، الشكل الملحمى، المزايا الأسلوبية والبنائية) وفيما المؤلف يخط سطور الكتاب صدر للشاعر جوزف ديوان «السيدة البيضاء فى شهوتها الكحلية» فألحق بالفصل الأول دراسة نقدية موجزة لكن ضافية.

الفصل الثانى بعنوان: «الراهبة وطقوس الحبر» وفيه: (أقانيم الشعر، جدلية الداخل والخارج، الشعر والشاعر).

الفصل الثالث: «ترحل زرقاء وتأتى عارية» ومن موضوعاته (فى الغزل، الأنثى ـ الجسد، فى اللغة والبناء، تجارب اجتماعية).

الفصل الرابع: «العتمة والمرأة» من عناوينه (شعر القداسة، الشعر والزمن، موتى الحرب).

الفصل الخامس: «الطبيعة والرؤيا» وفيه (مدينة فى شجرة، أنسنة الطبيعة، قصائد القداسة، تشكيل الرؤيا).

يذكر أن محيى الدين صبحى من أبرز المفكرين والنقاد العرب فى النصف الثانى من القرن العشرين. ترك آثاراً أدبية وفكرية عديدة من أبرزها دراسات جمالية نقدية تعد من أهم المراجع فى دراسة آثار كبار الشعراء العرب قدماء ومحدثين.

■

يوسف والبئر

فاضل الربيعى
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨، ٢٥٦ صفحة



فى هذا الكتاب يتناول المؤلف قصة يوسف والبئر. الأسطورة الشهيرة ويتناول شخصياتها مدققاً فى هويات كل منهم: هل العزيز هو حقاً فرعون مصر أم شخص آخر. وامرأته هل هى زليخا أم راحيل أم.. وأحداث القصة هل حدثت فى مصر أم باليمن؟

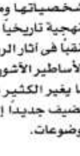
يفتح فاضل الربيعى هذه الأبواب ويثير التساؤلات فى المدخل وأقسام الكتاب الثلاثة: يتمحور القسم الأول «يوسف والبئر» حول أسطورة الوقوع فى غرام الضيف. مسرح الأسطورة. العزيز الحقيقى والعزيز المزيف. الإله الحزين فى البئر. من أساف إلى يوسف. القسم الثانى «النار والصولجان» يتناول قصة «العنقاء والنبى الضائع». فيما يبحث فى القسم الثالث فى «أسطورة الخلود عند العرب» و«بين جلجامش ونسور لقمان السبعة».

هكذا يفكك الباحث فاضل الربيعى ما نسج من أساطير حول قصة يوسف ثم يعيد دراسة مسرحها ورموزها وشخصياتها ومدلولاتها على أسس منهجية تاريخياً وجغرافياً وميثولوجياً، منقباً فى آثار الرواة الإسلاميين والتوراة والأساطير الآشورية والبابلية واليونانية، بما يغير الكثير من المفاهيم السائدة ويضيف جديداً إلى كل ما كتب من هذه الموضوعات.

■

على ضفاف بابل

خالد القشطينى
بيروت: دار الكوكب، ٢٠٠٨، ٢٣٢ صفحة



جورج مالك وعبدالسلام ساسون رفيقا مقاعد الدراسة يتخصصان فى الطب. جورج طبيب الجهاز الهضمى وعبدالسلام طبيب الأمراض النسائية.

حسون عبدالعلى شاب حرص والده على تعليمه فى كلية بغداد الراقية. يلتقى بابنة الجيران ويتحابان. تحبل الفتاة وتشاء الصدف أن يأخذها أخواها إلى عيادة الدكتور ساسون، وعندما يتأكدان من حمل الفتاة يجبران الدكتور على إجهاضها وتتوارى هى خوفاً من عقوبة الزنى وغسل العار!

يتوه حسون ويتوه الطبيب وتتوه الفتاة!

حسون يضيع بين المقابر والشواذ و... والطبيب يصبح ضيفاً على مستشفى المجانين والفتاة تصبح عاهرة!

تتميز الرواية بلغتها السهلة وحواراتها المباشرة وسرديتها الممتعة، وتدور أحداثها فى مدن العراق وشوارعها، حيث يستمتع القارئ بوصف تلك المدن والشوارع وطبائع سكانها حيث تتعدد الأديان والمذاهب والأعراق ويعيش وسط التناقضات الحضارية والفكرية والثقافية..

على غلاف الرواية الأخير نقرأ: «... لكن جورج مالك وعبدالسلام ساسون لم يختلفا فقط فى نزعتهما الموسيقية، بل وكذلك فى موقفهما من مهنة الطب. اعتقد جورج أن الجهاز الهضمى أقصر طريق لجيوب الناس فى الشرق الأوسط. فلا يعنيهم شىء كما يعنيهم الأكل ولا يجعلهم فى حاجة للأطباء كإفراطهم فى تناول أسوأ الأطعمة. اختلف عبدالسلام عن صاحبه فى هذا الموضوع ورأى أن الناس هنا يعطون اليد العليا، إذا جاز القول، للجنس. يدور اهتمامهم دائماً حول العضو الذكرى أكثر من الجهاز الهضمى. إنه الطريق الأقصر لجيوب الناس. تراهم مستعدين لدفع أى مبلغ من أجل فرج سليم وقضيب أكبر. كانت النتيجة أن تخصص جورج بأمراض المعدة بينما تخصص عبدالسلام فى الأمراض النسائية».

■

الملكات العربيات قبل الإسلام

هند محمد التركى
الناشر: مؤسسة عبدالرحمن السديرى الخيرية، ٢٠٠٨

يلقى هذا الكتاب الضوء على جوانب مهمة للمرأة العربية فى التاريخ السياسى للحضارة العربية، ففيه تتبع للملكات العربيات قبل الإسلام، فى كل من مصر والشام وبلاد الرافدين والأناضول وإيران. كما يستعرض

الأنظمة السياسية فى الجزيرة العربية، كنظام المشيخة القبلية، ونظام المكربين، والنظام الملكى؛ ويناقش دور المرأة العربية ومكانتها فى ظل الأنظمة السياسية آنذاك، بدءاً بملكة سبأ، وانتهاء بملكات شمالى الجزيرة العربية: (زبيبة، وشمسى، ويطيعة، ويافا، وباسلو، وتعلخونو، وتبواه، وعادية، وأخيراً ملكة تدمر زنوبيا). والكتاب غنى بحصر الشواهد فى النقوش الأشورية، والعربية الجنوبية القديمة، والنبطية والتدمرية، التى أشارت إلى ملكات العرب، والعلاقات السياسية لكل ملكة مع الممالك المعاصرة لحكمها.

جاء الكتاب فى تمهيد وأربعة فصول، واشتمل على لوحات لعملات معدنية عربية قديمة ـ عثر عليها فى عدد من المناطق العربية ـ ظهرت عليها صور لبعض تلك الملكات.

استعرضت المؤلفة فى التمهيد الإطار الجغرافى والحضارى لمنطقة الشرق الأدنى القديم ومكانة المرأة فيه، فى كل من الجزيرة العربية ومصر وبلاد الشام والرافدين وبلاد الأناضول وإيران. وفى الفصل الأول تحدثت عن النظام السياسى فى الجزيرة العربية قبل الإسلام من خلال استعراض نظام المشيخة القبلية ونظام المكربين والنظام الملكى، وبينت الألقاب السياسية التى استخدمت آنذاك فى ممالك جنوبى الجزيرة وشماليها. وكذلك المرأة فى ظل الأنظمة السياسية السائدة فى الجزيرة العربية فى مملكة سبأ وممالك شمال غربى الجزيرة العربية.

وفى الفصل الثانى تحدثت عن الملكات العربيات من خلال النقوش والآثار العربية القديمة، وقد ضمنت الكتاب صوراً للعديد من العملات البرونزية والفضية التى ظهرت عليها صور تلك الملكات، إضافة إلى دراسة النقوش السبئية، والنقوش النبطية لملكات الأنباط: خلدو، وشقيلة، وجميلة.

وتحدثت فى الفصل الثالث عن الملكات العربيات فى المصادر الدينية والموروث العربى، أما الفصل الرابع فخصصته للحديث عن الأدوار السياسية لهن، كما تطرقت لعلاقة ملكة سبأ بالنبى سليمان عليه السلام، وعلاقات ملكة تدمر مع الأنظمة السياسية المعاصرة لحكمها، عن زوجات الملوك ودورهن السياسى.

واشتمل الكتاب على ملاحق للخرائط واللوحات والأشكال وفهرس للأعلام والأماكن وآخر للآيات القرآنية ذات العلاقة بموضوع الكتاب.

وخلاصة القول إن الكتاب يقدم دراسة علمية مهمة، تتصف بالشمولية والتفصيل لتاريخ الملكات العربيات قبل الإسلام، والأدوار السياسية التى لعبتها المرأة فى النظام العربى القديم، ما يقدم خدمة كبيرة للباحثين والمتخصصين فى دراسة تاريخ المرأة العربية وأدوارها السياسية فى الممالك والأنظمة العربية القديمة.

■

آفاق تربوية متجددة
أزمة الجامعات العربية

تأليف: د. يوسف سيد محمود
تقديم: د. حامد عمار
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ٢٣٨ صفحة



أزمة التعليم الجامعى فى العالم العربى، كانت ولاتزال مثار الحديث والنقاش، خصوصاً وقد خرجت كل جامعاتنا من التصنيف العالمى لأفضل الجامعات فى العالم، ويشتد الحديث عن تلك الأزمة، كلما جرى طرح موضوع تطوير التعليم، فتعقد المؤتمرات والندوات، وينفعل المتحدثون ويشيرون إلى مواضع الخلل، وينفض المولد ونخرج بلا شىء.. أين الخلل إذن؟

إذا كنا نعرف مواطن الضعف، ومناطق القصور فى تعليمنا، فماذا نحتاج لكى نطوره؟ هل إخلاص المعنيين بالأمر؟ أم أنه القرار السياسى الذى يتوقف عليه كل شىء فى حياتنا؟

هذه الخلفية، كانت الدافع وراء كتاب د. يوسف سيد محمود الذى أصدرته الدار المصرية اللبنانية فى سلسلة آفاق تربوية متجددة بعنوان: «أزمة الجامعات العربية»، وهو عبارة عن ثلاث دراسات كبرى، تحيط بأبعاد أزمة التعليم الجامعى فى العالم العربى نظرياً من خلال البحث عن الأسباب المؤدية إلى تلك الأزمة، وعملياً ـ فى القسم الثالث ـ عن عمليات الشراكة القائمة بين الجامعة فى المجتمع العربى، وبين المؤسسات الإنتاجية، فهل تراعى الجامعات حاجة هذه المؤسسات فى خريجيها، وبالتالى تؤهلهم لتلك الحاجة؟ أم أن العلاقة مفقودة بين المؤسستين؟

اتبعت الدراسة فى قسميها النظريين المنهج التاريخى ـ كما يقول د. حامد عمار فى تقديمه للكتاب ـ نظراً لأن كثيراً من كتاباتنا وبحوثنا التربوية ذات المنهج الإمبيريقى تنظر إلى الصور المشاهدة للوقائع والمعطيات المعاشة، كما لو أنها ليست لها صلة بآبائها وأجدادها، ومنبتة الصلة بأزماتها السالفة.

الأول: سيطرة الدولة على الجامعة وسريان روح الالتزام لدى أساتذتها، مما أدى إلى عدم السماح للجامعة بالانطلاق لمناقشة قضايا اجتماعية دقيقة ومحددة من خلال الميدان أو الواقع، مما جعل البحث الجامعى يأخذ الصفة الأكاديمية المطلقة ويميل فى معظمه للتنظير بعيداً عن مجريات الأحداث الواقعية، ويفقده هذا جانباً كبيراً من أهميته وجدواه. وكذلك افتقاد الباحث الجامعى هوية مهنية قوية كعضوية الروابط أو الجمعيات العلمية، تمكنه من الوصول المنظم إلى الميدان أو الحصول على تعاون السلطات، وحتى إذا وجدت مثل هذه الهيئات فإنها تعامل من قبل الدور معاملة الجمعيات الخيرية وليس معاملة النقابات المهنية والتى تعطى نوعاً من الحماية لأعضائها.

الثانى: اعتماد الدولة على ما أنشأته من أجهزة بحثية خارج نطاق الجامعات كالمراكز القومية للبحوث ومعهد التخطيط، والمجالس القومية المتخصصة، الأمر الذى يعنى تخلى الدولة بالكلية عن التعليم الجامعى، وخلق كوادر تخدم الوزارات المختلفة والسياسات المتباينة حسب الوزارة التى يعملون فيها.

فى الكتاب العديد من القضايا المهمة المتعلقة بالجامعات والتعليم الجامعى، حيث ركز الفصل الثانى على كيفية تعامل جامعاتنا مع ظاهرة العولمة؟ وهل جامعاتنا قادرة على ذلك فى ظل التوجهات الفكرية خارجها وغلبة الصراع على التيارات الفكرية فى الحياة الثقافية العامة، وهو ما لخصه زكى نجيب محمود حين قال:

«إن العقل العربى يتعامل مع الألفاظ أكثر مما يتعامل مع المفاهيم، ولا يفكر إلا انطلاقاً من أصل أو انتهاء إليه أو بتوجيه منه الأصل الذى يحمل من سلطة السلف إما فى لفظه أو معناه وأن آلية هذا العقل فى تحصيل المعرفة ولا نقول فى إنتاجها هى المقاربة أو التيار البيانى والمماثلة أو القياس العرفانى، وأنه من كل ذلك يعتمد التجويز كمبدأ ـ كقانون عام يؤسس منهجاً فى التفكير ورؤيته للعالم «هذه الآلية التى لمسها زكى نجيب محمود أسهمت فى فشل النخب الثقافية بشكل عام كسبب ونتيجة فى الوقت نفسه لانهيار التعليم الجامعى.

أخيراً يقف الكتاب أمام الفجوة القائمة بين الجامعة والمؤسسات الإنتاجية والخدمية ليكون الفصل الثالث تطبيقاً عملياً للأفكار النظرية السابقة، ومحاولة اختبار مدى صحتها فى الواقع من عدمه، فرؤية أساتذة الجامعة تتناقض كلياً مع رؤية أصحاب المؤسسات الخدمية والإنتاجية، والخلاصة أنه لاتزال علاقة مؤسسات التعليم العالى بمجتمعها المحلى تقف عند حدود الأمنيات والتى قد تحمل الوعى بأهميتها وضرورتها والحماس لإقامتها، فيما تشير نتائج الدراسة الميدانية إلى شكلية هذه العلاقة، حيث تقف عند حدود المشاركة فى تنظيم وتنفيذ بعض برامج التدريب وتقديم بعض الاستشارات أو تقديم تفسير وبحث لأسباب بعض المشكلات أو الكوارث الطارئة كانهيار العمارات، أو حوادث القطارات، أما تلك القضايا المرتبطة بجوهر عملية التنمية وخصوصاً تلك التى تحتاج إلى مشاركات فى قضايا البحث والتطوير فتكاد تكون المشاركة حولها معدومة.

■

السعودية، السياسى والقبيلة

محمد بن صنيتان
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨، ١٥١ صفحة



وفرت القبائل ممثلة بإخوة ابن مسعود، قوة عسكرية وسياسية تمكنت من توحيد شبه الجزيرة العربية بكيان واحد خلال فترة متباينة قصيرة، أعاد المركز إلى الجزيرة العربية التى فقدته منذ وفاة الخليفة الثالث عثمان بن عفان. فأفلحت شخصية الملك عبدالعزيز التى تميزت بالعبقرية والحظ على تحويل القبائل المتناحرة التى يغزو بعضهم بعضاً ويأخذون الإتاوة من بعضهم إلى إخوة فى الإسلام والوطن حتى أصبحوا مادة الدولة، ومجتمعاً واحداً عوضاً عن قبائل متفرقة ومتقاتلة، فمثل المجتمع نسيجاً كاملاً ووحدة جغرافية.

واستطاعت الدولة السعودية الثالثة فى نشأتها أن تجعل ابن القبيلة يتعالى على الثأر والغزو، فأشاعت ثقافة جماهيرية موحدة بين الحضر وسكان الواحات والقبائل الراحلة. فقامت البيروقراطية الإقليمية بعد ثبات الدولة، كما قام البترودولار وتبعية القوة الخارجية بالدور البديل لقوة القبيلة.

يتألف الكتاب من مقدمة وعشرة فصول، فى قسمين، يعالج القسم الأول موضوع مواريث المجتمع السعودى والقسم الثانى يعالج المحدد السياسى والعسكرى.

■


من الأرضى للمحمول أكيد الصوت أوضح
وكمان السعر أوفر
٣٠ قرش
للدقيقة
سعر جديد ٣٠ قرش للدقيقة
بدلاً من ٤٥ قرش
لكل المكالمات من
تليفونك الأرضى لأى محمول
للاستعلام اتصل بـ ١١١ بسعر المكالمة المحلية
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا
animation ADVERTISING



عبد الوهاب المسيرى

رحلتى الفكرية

فى البذور والجذور والثمر

سيرة غير ذاتية غير موضوعية

دار الشروق

وسط البلد: ١ ميدان طلعت حرب ت: ٢٣٩٣٠٦٤٣ - ٢٣٩١٢٤٨٠
مصر الجديدة: ١٥ شارع بغداد - الكوربة ت: ٢٤١٧١٩٤٥ - ٢٤١٧١٩٤٤
الإسكندرية: سان ستيفانو مول ت: ٠٣/٤٦٩٠٣٧٠ ٠١٠١٦٣٣٦٨٥
مدينة نصر: سيتي ستارز مول ت: ٢٤٨٠٢٥٤٤ - ٠١٦٥٥٤٨٧٢٩
الجيزة: فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة ت: ٣٥٧٣٥٠٣٥ - ٣٥٦٨٦١٨٧
الإدارة: ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر ت: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com email: dar@shorouk.com